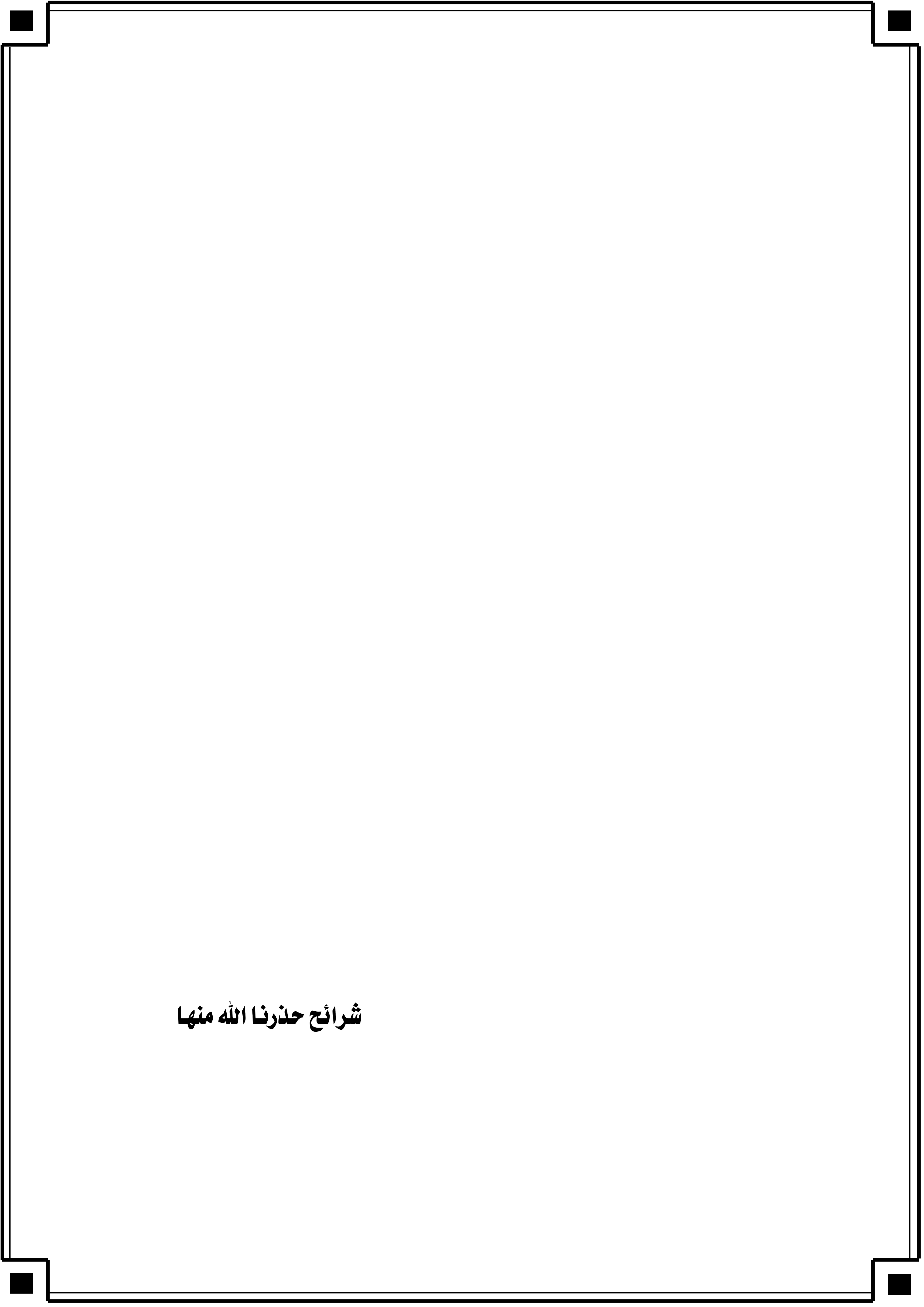


شرائح حذرنا الله منها

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(4068/ ١١/ ٢٠١٣)

٢١١

أبو شرار، محمود موسى

شرائح حذرنا الله منها/ محمود موسى أبو شرار._ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.

(٣٦٤) ص

ر.أ: (٤٠٦٨/ ١١/ ٢٠١٣).

الواصفات: / الثقافة الإسلامية// الإسلام/

❖ **يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.**

ردمك ISBN ٩٧٨ -٩٩٥٧ – ٧٧ – ١٩٤ -٢

دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

شرائح حذرنا الله منها

تأليف

محمود موسى أبو شرار



دار المأمون للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله سبحانه وتعالى:﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩ - ٥٠].

﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٩٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٩ - ١٠٠].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٥٧ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴾ [المائدة: ٥٧ - ٥٨].

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

قال الله سبحانه و تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝١١٢ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٢ - ١١٣].

قال رسول الله محمد ﷺ: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد ثم يرى سبيله أما إلى الجنة وإما إلى النار» رواه مسلم.

«الربا سبعون جزءاً أيسرها أن ينكح الرجل أمه» رواه ابن ماجه «من مشى مع ظالم لعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام» رواه احمد.

«ليشربن أناس من أمتي الخمور يسمونها بغير اسمها يعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير» رواه بن ماجه.

«ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس إن يقول بحق إذ رآه أو شهده فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق إن يقول بحق أو إن يذكر بعظيم» رواه احمد.

«ألا إن رحى الإسلام دائرة فدوروا حيث دارت. ألا وأن الكتاب والسلطان سيفترقان فكونوا مع الكتاب. ألا وإنه سيليكم أمراء، إن أطعتموهم أذلوكم وان عصيتموهم قتلوكم. قالوا ماذا نفعل يا رسول الله. قال: كونوا كأصحاب عيسى نشروا بالمناشير وحملوا على الخشب. ولموته في طاعة الله خير من حياة في معصيته».

«كيف أنتم إذا وقعت فيكم خمس، وأعوذ بالله أن تكون فيكم أو تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم قط يُعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، وما بخس قوم المكيال والميزان إلاّ أُخذوا بالسنين وشدة المؤمنة وجور السلطان، ولا حكم امرؤ هم بغير ما أنزل الله إلا سلط الله عليهم عدوهم فاستنفد بعض ما في أيديهم، وما عطلوا كتاب الله و سنة نبيهم، إلاّ جعل الله بأسهم بينهم». رواه أحمد وابن ماجه

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، نحمده ونشكره ونعظمه على نعمة الإيمـان، وعلـى أن جعلنا من أمة الإسلام، وعلى ما وهبنا من صحة الأبدان، وعلـى مـا هـدانا وأنـار قلوبنا، وبين لنا طريق الفلاح، وأعاننا على السير فيه، وكـره لنـا الكفـر والفسـوق والعصيان.

والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد ﷺ القائل: «مـن يـرد الله به خيراً يفقهه في الدين» لمن تلك العظات بهذا الأسلوب القصصي التحـذيري في القرآن الكريم؟ أهي لأبطال تلك القصـص وزمـانهم؟ أم هـي عظـات وتحـذير وتنبيه للمؤمنين المتقين الموحدين إلى أن تقـوم السـاعة؟. قـال تعـالى:﴿...فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الأعراف: ١٧٦]. الله سبحانه وتعـالى يحـذرنا مـن كيـد الكفار والمنافقين ومن تبعهم من الظالمين والمفسدين: من خطورة مكـرهم، وعظـيم كيدهم، فما حذرنا إلا من شر لابد واقع، وخطر لابد حاصل: يعلمـه ولا نعلمـه. فشكراً لك يارب. تحرس أمة الإسلام وهي غافلة، وتوقظهـا وهـي نائمـة، أهـدنا الصراط المستقيم، واحمنا من كيد المجرمين المفسدين: المغضـوب علـيهم، والضـالين المضلين. ما أنزلت هذه الآيات من عـلام الغيـوب، المطلـع علـى حالنـا مسـبقاً إلا ليعلمنا العلاج الناجح، والثبات أمام العواصف الهوجاء والفتن المفرقة، تلـك الـتي مزقت الجسم الواحد، فقطعت حبائل الود والأخوة.

نقول: اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الدنيا والآخرة وفقهنـا في ديننـا، واحفظنـا من قرناء السوء، وأصحاب الأهواء والبدع. ونسـتعيذ بـك مـن الشـيطان الـرجيم ومكره وكيده وتزينه، ومـن قصـور الرؤيـا، ومـن طمـع الـنفس، ومـن فتنـة المحيـا والممات، وأن لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ومبلغ علمنا، ولا تجعل مصـيبتنا في ديننـا. اللهم آمين.

المؤلف

١ - العالم المرتد كالكلب الذي يلهث

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله سبحانه وتعالى:﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾[الأعراف: ١٧٥ - ١٧٩].

هذه الشريحة من أمة التوحيد؛ وبعد أن كساها الله – سبحانه وتعالى – رداء الوقار والهيبة والتقوى، وأنار قلبها بنور العلم والأيمان واليقين، وهداها لما فيه صلاحها وخيرها، ورفع قدرها، فسمت وارتقت – بعون الله – ووصلت القمة السامقة؛ حيث وضحت لها صورة الجنان بحسنها وخيراتها ونعيمها الأبدي: فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين. فيها السعادة الحقة، والاطمئنان الدائم، والخير الوفير بجوار رب كريم رحيم.

كما وضحت لها النار بلهيبها وحميمها ونتنها وشقاوة من فيها؛ وهم يصطرخون فيها ولا شفيع ولا مجير. وقد حكم عليهم بالخلود فيها: جزاءً وفاقاً لمخالفة أمر الله الخالق القادر العادل.

أقول وبعد أن عرفت هذه الشريحة من العلماء – هدي الله ونعمته – الطريق السوي، وبلغت من الحكمة والهدايا ما جعلها تستمر في الصعود والرقي؛ فتنير للخلق طريق النجاح والفلاح والرشاد؛ انتكست وانحرفت عن جادة الصواب، وتركت الخط المستقيم؛ خط المؤمنين الثابتين الأتقياء الصالحين؛ كما زين لها الشطيان الرجيم؛ فأضلها وأتعسها؛ فخلعت ثوب الوقار والعفة والمجد في الدارين، وامتطت سرج الدنيا بزخرفها ومتاعها، وألقت بنفسها في أحضان تلك الدار الفانية الزائلة.

وقد بهرها الدينار والدرهم، والحرث والنسل، والقصور والحدائق، فهوت من علياء الكرامة والطهر والعفة تتمرغ في وحل حياة فانية، ونعيم زائل، ومصير اسود قاتم، في لهيب جهنم؛ وساءت مستقراً ومصيراً: فذلت بعد عزة، وانحنت بعد شموخ، واعوجت بعد استقامة.

إن خطورة هذه الشريحة الضالة المضلة على فئة العلماء خاصة، وعلى المجتمع الذي ينير طريقه هؤلاء العلماء عامة: لهو أمر عظيم، وخطر جسيم، فعلماء الأمة هم النور الذي تهتدي به الأمة في دياجير الظلام، وهم صوت الحق الذي يرعب الجبابرة المتسلطين. فخسارة الأمة لعلمائها لا تقدر. فما كان تشهير رب العزة بمن خان العهد منهم، وخان أمانة العلم، وانحدر من علياء القمة الرفيعة والمجد الشامخ إلا تحذيراً من السير في طريقهم، واقتفاء أثرهم؛ فلا نقع فيما وقعوا به من الخيانة والارتكاس.

ضرب الله هذا المثل؛ يحذرنا من علماء السوء هؤلاء الذين غرتهم الدنيا بزخرفها؛ فهوى هذا العالم من عليائه يتمرغ في أوحال الأرض، يتلذذ بمتعتها الزائلة، ويركن لنعيمها الحقير؛ فوقع في شباكها، فاصطاده الشيطان فغوى.

فحذرنا ربنا الرحيم بنا، الحريص على سعادتنا، وهدايتنا، من سلوكه الضال، بهذه الآيات المنيرة، وهذا القصص الحق.

قال الله سبحانه وتعالى – مخاطباً رسول الله محمداً – ﷺ – ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

إن هذا التحذير من هذه الشريحة الفاسقة وهذه الكشف عما يدور في العقول المريضة، والنفوس المنحرفة، ليجعلنا نلجأ إلى الله دائماً، فنقول: «اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد».

فهذا الذي أنعم الله عليه بالإيمان، ووهبه الحكمة، وأنار قلبه؛ فعلا قدره، وعظم ذكره؛ فهابته الخاصة، واحترمته العامة. ولكنه انسلخ من زينته تلك وجماله هذا.

ولتوضيح الصورة نقارن بين إنسان سوي خلقه الله في أحسن تقويم، وبين إنسان قد نُزعت عنه زينته بسلخ جلده، وما في منظره من قذارة وشكل تمجه النفس، فتُعرض عنه الأبصار لبشاعته وسوء مَسخه.

إنها صورة الانحراف عن الفطرة بعد وضوح الرؤيا، كمن سلخ جلده الجميل الواقي من الحر والبرد فأصبح عرضه حتى لنسمة الهواء؛ فكيف بالتيارات والسيول؛ تسوقه كما تشاء، فلا هوية له؛ بعد أن سقط في شباك تلك النفس المتقلبة الاتجاه.

فهو كالمروة في طريق المورد تدحره أقدام المارة كيف تشاء؛ وذلك لأنه أضاع مبدأه؛ فهو كالشجرة في مهب الريح؛ ولأنه قد أخلد إلى الأرض. بعد أن كان في العلياء، واتبع هواه فتردى، واتبع الشيطان فغوى.

وكان باستطاعته الثبات والتمسك بعرى دين أعزه وأكرمه، ورفع قدره، وخلد ذكره. فهو ظالم لنفسه، بإتباعه هوى تلك النفس؛ فسار في صحراء تلك الحياة المجدبة على غير هدى، بعد ان ترك الطريق السوي: طريق التقوى والفلاح، والنجاح والصلاح.

يلهث هذا الشقي وراء أطماعه المادية، فيتلون تلون الحرباء؛ فهو وقد زال عنه نور الإيمان، فانكشفت نفسه المريضة: لتناقض السلوك والرأي، والحب والكره عنده. فالمصلحة هي مبدؤه، والمادة هي مطلبه، ومرام فؤاده: يتعلق حيناً بأهداب الشهرة والعظمة والكبرياء؛ وذلك ليخفي ضعفاً وخزياً ونفساً مريضة، متقلبة الشهوة، يتكالب على المال، ولا يسأل من أين جاء،ولا أين صرف، يغطي به سلوكاً سيئاً وجشعاً لا حد له فقاده إلى الهلاك.

فالعلم زينة، وفضل عظيم من الله؛ وترك بعد أن عرف صاحبه به هو ابتاع طريق الغواية والانحراف والضلال ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

وبهذا نزع رب العزة عن ذلك الغاوي هيبة العلماء الأجلاء الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٩].

ثم تأتي قاصمة الظهر: وهو تمثيل موقف هذا الذي اختار السير في مستنقع الحياة الفانية بالكلب بل وأبشع ما في الكلب من صفة ومنظر، وذلك اندلاع لسانه الدائم، واللعاب الذي ينزف من هذا اللسان، وفي جميع الظروف والحالات: في الشدة والراحة، في الحر والبرد، وفي مطاردته وسكونه، هذه قيمة وحالة هذا المرتد عند خالقه.

ذلك العالم الذي انحدر من علياء المعرفة والحكمة إلى غور الشهوة المضلة، وإطاعة النفس الجامحة والسير وراء سراب دنيا زائلة. ثم يأمر رب العزة رسوله الكريم محمد ﷺ: بالتذكير لمن أراد التفكير والاعتبار من شريحة هؤلاء العلماء الرواد، فيثبت على الطريق السوي، ولا ينحرف؛ فيهوي في لهيب جهنم ذات الحميم الآن؛ وذلك بتركه العلم والفقه الصحيح المفيد، وما فيه من نور يهدي ويهتدي به ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ مما يزيد في النكير على تلك الفئة من العلماء الضالة المضلة؛ فيصفهم بالتكذيب والظلم لأنفسهم بتركهم تعاليم

الدين القويم التي رفعتهم وأشهرتهم، لكنهم أخلدوا إلى الأرض، فكانت نتيجة عملهم هذا الخسران﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٧].

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٨].

فهم بعد ان عرفوا – بما علمهم الله – مصير المنحرف الضال، وعرفوا مصير الثابت على دينه المطيع لربه؛ تركوا طريق الخير والعزة واختاروا طريق الشر والانحراف؛ فكان الخسران نصيبهم: ففي الدنيا التي تكالبوا عليها، تلك التي اختاروها ذهبت زينتهم وهيبتهم وفي الآخرة التي نسوها حشروا مع العصاة المكذبين الآثمين.

قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

إن ما وهبه الله لنا من العقل المميز الذي يفرق بين الخير والشر، والضلال من الهداية، والحق من الباطل والطريق السوي الذي يوصل إلى الجنة من الطريق المعوج الذي يردي اصحابه في نار جهنم.

قال سبحانه وتعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ ...﴾ وذلك ممن خلق من الجن والإنس وعلم بعلمه الأزلي دخولهم النار بعصيانهم وكفرهم مختارين ومتبعين شيطاناً مضلاً رجيماً.

وقد وصف رب العزة هذا المرتد بالحيوان الأعجم؛ فرغم أن له عقلاً، لكنه لا يستعمله في طاعة الله وله بصر لكنه لاينظر في آيات الله، وله أذن لكنه أعرض عن سماع الحق؛ فلا يستفيد من عظة، ولا يسمع لصواب رأي؛ فهو أضل من الحيوان لغفلته عن آيات الله الدالة على وجوده وقدرته.

قال الله سبحانه وتعالى في وصف هذه الشريحة: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ما كانت هذه الشريحة السيئة الساقطة حكراً على عصر دون عصر أوزمان دون زمان، بل هي موجودة في كل زمان ومكان؛ مرضاً اجتماعياً يرافق أبناء آدم – عليه السلام – إلى أن تقوم الساعة. ولا فرق أن يكون بطلها «بهرام بن باعوراء» في عهد نبي الله موسى – عليه السلام – «حيث كان عالماً فقيهاً تقياً مستجاب الدعاء لكنه ناصر عبدة الأوثان من قومه على الموحدين المؤمنين من أعداء قومه فحط الله من قدره لردته».

أو كان "لأمية بن أبي الصلت" العربي في عهد رسول الله محمد ﷺ "كان أمية هذا يبشر بقدوم بني آخر الزمان – كما أخبره أهل الكتاب" ويلبس المسوح الى أن بعث رسول الله محمد ﷺ، فبدل أن يناصر هذا الرسول الكريم الذي تؤيده المعجزات وما حواه القرآن الكريم، أخذ يؤلب الروم أبناء دينه على المسلمين ودولة الاسلام، كان من الغاوين".

أو كان ما ينتاب علماء السوء من فتنة وردة، واستلقاء في أحضان دنيا فانية في هذه الايام، ممن قال الله فيهم، محذراً من سلوكهم ومستنكراً عليهم مساندة حكم الجاهلية الحديثة. حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

إن إختيار الكلب مثلاً للعالم المتردي في حبائل الشيطان ذلك لأن النجاسة تحيط من كل جانب – جسد الكلب مصمت لا يخرج منه عرق – فالإناء الذي يلغ فيه الكلب يجب غسله بالماء سبعاً منه مرة بالتراب حتى يطهر. وأما رذاذ جسمه

فهو نجس يوجب غسل الملابس منه. وأما لعابه فهو خطر واي خطر فهو ينقل الأمراض وخاصة مرض الكلب المعروف، ثم نتنه المشهور، ثم أكله للرمم والأوساخ، ثم خلقه وسلوكه في النباح، وصوته المزعج، وخنوعه أمام رشوة حقيرة قد تكون كسرة خبز أو قطعة لحم تجعله يتوقف عن هجومه وصولته، ثم ذبذبته وحركات استعطافه حتى من العدو، وذلك عندما يشتم رائحة الطعام.

إن هذا المظهر والخلق وذاك السلوك والتصرف لينطبق على علماء السوء هؤلاء الذين فتنتهم المادة؛ فخانوا الله ورسوله وجماعة المسلمين؛ فحنوا هاماتهم بذل وصغار لمن يشبع رغباتهم ونفوسهم الحقيرة المريضة.

ما كانت هذه الشريحة التي حذرنا ربنا – سبحانه وتعالى – منها بهذا الأسلوب العنيف الفاضح، ونبهنا من خطورتها على مجتمعنا وعلى جماعة العلماء كقياديين لأمتنا، ورواد صادقين في نصحهم ومشورتهم. أصحاب الصوت المسموع.

اقول ما كانت لتترك بدون محاسبة من الله سند المؤمنين ومن مجتمع الاسلام الصافي النقي بل يجب فضحهم، وتحذير الامة من خطرهم، وفضح ألسنتهم وأقلامهم التي تنفث سماً زعافا، تقلب الحقائق، وتروج افكار الكفر، وعقائد الشرك، تمهد طريق الردة، بعد أن كان واجبها انارة الطريق للامة حتى تسير الى دار السلامة والفلاح والنجاح. وان كان بعضهم قد وقف موقفاً منحته ثقة الامة، تلك الثقة التي تعطيها الامة لعلمائها العاملين، وقادتها المضحين، الذين هم المشاعل التي تنير الطريق اذا اظلم، وتمسك بالراية اذا اشتدت العواصف والأعاصير.

ان هذه الآيات الحكيمة تنطبق على علماء السوء من أمة محمد ﷺ الذين رفعهم الله بعلمهم وثقة الأمة بهم ليكونوا ورثة الأنبياء فزينت لهم شياطينهم من الأنس والجن الحياة الدنيا وزخرفها؛ فانطبق عليهم ما تخوفه رسول الله محمد ﷺ على امته حيث قال محذراً ومنبهاً من خطر هذه الشريحة الضالة المضلة: عن حذيفة عن رسول الله ﷺ: "ان مما اتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى اذا رئيت بهجته عليه

وكان رداؤه الاسلام اعتراه الى ما شاء الله، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك" قال قلت يا نبي الله أيهما أولى بالشرك المرمي أو الرامي؟ قال بل الرامي".

اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الدنيا والأخرة، وفقهنا في ديننا، واحفظنا من قرناء السوء، واصحاب الأهواء والبدع، ونستعيذ بك من الشيطان الرجيم ومكره وكيده، ومن قصور الرؤيا وطمع النفس، وفتنة المحيا والممات، وان لا تجعل الدنيا اكبر همنا، ومبلغ علمنا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، اللهم آمين.

٢ - الايقاع بين المسلمين

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ

ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٩٨ - ١٠٥].

الكيد والايقاع بين الناس والاغتيال هي من أساليب الجبناء العاجزين عن المواجهة، هم خفافيش الليل، جنود الظلام، وأهل الغدر والنفاق. وقد عرف المنافقون واليهود بهذه الصفات واستعمال تلك الأساليب الخبيثة. وقد اجتمع الاثنان كحزب واحد على المسلمين في المدينة المنورة أثناء تأسيس الدولة.

فمحاولة اغتيال رسول الله محمد ﷺ وإحياء الحرب بين الأوس والخزرج بتذكرهم بيوم (بعاث)؛ لتمزيق تلك اللحمة التي أنعم الله بها عليهم بعد اسلامهم؛ ثم قصة الإفك التي طالت أشرف نساء المدينة وأشرف البيوت فيها. كل هذه الأعمال والأساليب القبيحة البشعة وما لفّها من غدر وكذب كانت لتشكيك المسلمين في عقيدتهم، ولتفريق الجماعة المسلمة، ثم الردة.

وهذه الأعمال الشريرة، لا تصدر عن أولياء الله بل عن أعدائه وخاصة عندما يكونون على علم يقين أن محمداً هو رسول من الله، كما بشرت به كتب اليهود وأنبياؤهم. وقد ظهر هذا الفساد جلياً عندما تحولت القبلة إلى البيت الحرام، وفرض الحج إلى ذلك البيت على المسلمين، وأغلظ سبحانه وتعالى عقوبة من يستطيع الحج ولا يقوم به.

حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿....وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

﴿...وَمَن كَفَرَ﴾ تعني هنا ومن لم يحج رغم قدرته فهو بمنزلة الكفار.

قال رسول الله محمد ﷺ: "من مات ولم يحج..."

كما ظهر هذا الكيد والعداء عندما انتصر المسلمون ببدر حيث ظهر حسد اليهود لهذا الانتصار المؤزر، فظهر الكره على وجوههم وألسنتهم، وما تخفي قلوبهم أكبر، حيث عبروا عن هذا الموقف بقولهم: ولا يغركم أنكم انتصرتم على قوم ليسوا أهل تجربة في الحروب والمواجهة؛ فلو خضتموها معنا لر أيتم من الرجال.

ثم تأليب حيي بن أخطب – زعيم يهود – لعبدة الأصنام من العرب: كقريش وثقيف وهوازن وجلبهم الى المدينة لمحاصرتها والقضاء على المسلمين فيها في غزوة الاحزاب.

وشجع بني قريظة – آخر قبيلة من اليهود في المدينة – على قطع ما بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق ومناصرة الاحزاب في ساعة بلغت فيها قلوب المسلمين الحناجر وهم محاصرون في المدينة.

إن تحذير المسلمين من أهل الكتاب في تلك الفترة العصيبة ودولتهم الفتية تحبو ولا ناصر لهم ولا مجير الا الله؛ ليدل على خطورة هذا الاسلوب الجبان منهم؛ خاصة وان المسلمين لم يكونوا قد اطلعوا على أساليب الكيد والمراوغة والنفاق اليهودي، ولا يزالون يأملون خيراً، ويثقون بأهل الكتاب، ولم يتصوروا التفريق الكامل بين الموحدين المؤمنين من اهل الكتاب وبين المحرفين للكتب والتعاليم السماوية منهم.

فحذر رب العالمين – خالق قلوب البشر والمطلع عليها – المسلمين بهذه الآيات البينات التي كشفت مكنون قلوب الكفار والمنافقين من اليهود وأنهم يخفون الحقائق ويحرفون الكتب المنزلة وأهم تلك الحقائق التي حرفوها وأخفوها صفات رسول الله محمد ﷺ، والمكان الذي سيبعث فيه وصفات أمته وصحابته، وكلها حبيسة في بطون كتبهم، يعرفها أحبارهم أكثر من معرفتهم لابنائهم ومن آيات التحذير لهذه الأمة المسلمة الماجدة قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

وهذا التحذير منهم جعل رسول الله محمد ﷺ يغضب في وجه عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – عندما رأى أن عمر يحمل صحيفة من صحف التوراة فقال له "... ألم آت بها بيضاء ناصعة".

فهذا أنكار من رسول الله ﷺ وتحذير لعمر – رضي الله عنه – من صحف اليهود المحرفة وبشهادة القرآن الكريم – التي تحوي الكيد والتشكيك في الإسلام واهله في الأرض.

ومن أساليب التشكيك في دين الله في تلك الفترة دخول بعض اليهود في الاسلام صباحاً ثم الرجوع عنه مساءً ليرتد بعض المسلمين، ممن دخل حديثاً في الاسلام وهو لا يعلم أساليب اليهود في الفساد، ولظنه بأن أهل الكتاب هم مؤمنون أوفياء، عالمون بتعاليم الله وأمره ونواهيه؛ لهذا تنطلي عليه حيل اليهود.

إن استنكار رب العالمين لأساليب أهل الكتاب المضلة في تلك الفترة من عمر الدولة الاسلامية وهدفها تفريق وحدة المسلمين، كما تفرق أهل الكتاب من قبل.

ومن أهل الكتاب من فتح عليه، فازداد قوة في إيمانه. قال الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧].

والوعد الذي ذكر في هذه الآية: هو رسالة الاسلام وبعثة محمد ﷺ.

لم يكتف أهل الكتاب بكفرهم، وقتل الأنبياء وتكذيبهم بل يريدون أن يضلوا المسلمين كفساد لعباد الله في الارض فجريمتهم مضاعفة وإثمهم عظيم. قال سبحانه وتعالى في هذا الأمر ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ ..﴾.

ثم ينعم رب العزة على أمة الاسلام بهديها للأخذ بالعلاج الناجح الشافي لهذا الموقف، وذلك بوجود فئة من أمة الاسلام عملها الدعوة للإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – دائمة الحضور – كفرض كفاية على أمة الاسلام إلى أن تقوم الساعة.

وهذه الفئة المختارة: هي الحارس الأمين على الفكر الإسلامي، والمباديء الاسلامية وأمة الاسلام، بتطبيق شرع الله كاملاً شاملاً في جميع الظروف: في الحرب والسلم، في القوة والضعف. ندعو الله أن نكون من هذه الفئة الثابتة الواعية، لا يضرها من خذلها أو قاومها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هذه الفئة الخيرة المجاهدة الواعية التي امر الله بتنظيمها ووجودها كفرض كفاية على أمة الاسلام لا فرق بينها وبين جند الثغور، حماة حدود الدولة وسورها المنيع.

هذه الفئة تحفظ كتاب الله وسنة رسوله وتطبيقها في حياة المسلمين ودولتهم، كما تحافظ على حضارة الاسلام من كل تبديل أو تحريف أو تقليد وتصون تاريخ أمة الاسلام من الأهواء وأقلام السوء، وقلب الحقائق، وتكبير النقط السوداء وطمس الصفحات البيضاء من تاريخ أمة الإسلام الماجدة. وأما العلاج الثاني

والأهم: فهو تمسك هذه الأمة المستنيرة بنور الاسلام، بكتاب الله وسنة رسوله: وهي العروة الوثقى، والقاسم المشترك بين جميع أفراد الامة الاسلامية: بين الحاكم والمحكوم، وبين العالم والجاهل، وبين العربي والعجمي، فمن دخل حظيرة الاسلام، وفاز بالهداية ورضي الله عليه، التمسك بهذه العروة الوثقى المتينة، والمحافظة على هذا الدين القويم، وعلى الصلة والثبات عليه. والسير مع أمة الاسلام يفرح بنصرها ويغتم لعثرتها. ونطبق شرع الله ذلك الذي يصلح لكل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة، ونتمسك بالفكر الاسلامي، ونجعله النور القوي الذي ينير لنا السبيل للوصول الى رضا الله ودخوله الجنة.

لقد فضح الله – المطلع على السرائر – بهذه الآيات الكريمة أهل الكتاب، لما أخفوه من صفات لرسول محمد ﷺ، وما اسروه من حقائق ذكرتها التوراة والإنجيل عن دين الاسلام، وأنه المنقذ للبشرية من الضلال، وهو دين الموحدين إلى أن تقوم الساعة: يذل من حاربه، ويعز من ناصره.

فيقول رب العزة ﴿...وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ كما يقول، وبلهجة التهديد والوعيد: ﴿...وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ وكلمة "تعملون" في كلتا الآيتين تدل على السير بالفساد العملي، والاستمرار فيه، وليس بحب الفساد وتمنيه فقط، بل قاموا بالايقاع بين قبيلتي الأوس والخزرج، كما حرضوا الأنصار على المهاجرين، وتأمروا على قتل رسول الله محمد ﷺ، كما تأمروا في غزوة الأحزاب المعروفة على * دولة الاسلام الفتية مع عبدة الأوثان من العرب. ولما سئلوا أي الدينين حق، الاسلام أم عبادة الأوثان؟ قالوا: بل الأوثان.

فهم أعداؤنا الألداء دائماً وأبداً ببيان رب العالمين لنا، وتحذيرنا منهم ومن كيدهم، فهم ضالون مضلون، قال الله سبحانه وتعالى:﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ

﴿بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٤ - ٤٥].

إن سبب نزول هذه الآيات من آية ٩٨-١٠٥ من سورة الأعراف. أن شاس بن قيس اليهودي مر بنفر من الأنصار المسلمين فوجودهم يتحدثون متحابين كالأخوة، فغاظة ذلك. فأمر شاباً من اليهود الذين كانوا يحفظون بعض أشعار الأوس والخرج هؤلاء في هجاء بعضهم بعضاً أثناء حروبهم أيام الجاهلية وخاصة ما قيل في يوم "بعاث" المشهور فأخذ هذا الشاب يردد ذلك الشعر على مسمع القوم حتى نفخ الشيطان في رؤوسهم، وحرك فيهم نخوة الجاهلية، فتفاخروا، وتنازعوا، وحملوا السلاح ضد بعضهم. ولما علم رسول الله محمد ﷺ. بحالهم هذه، جاء مسرعاً، وقال لهم – معاتباً ومؤنباً: (يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام أخرجه أبن اسحاق وأبن جرير وأبن المنذر؟ فعرف القوم أنها نزعة شياطين الإنس والجن، فرجعوا تأبين متحابين متصافين، يحذر سبحانه وتعالى المسلمين من كيد أهل الكتاب وحسدهم، وظاهر هذه الأيات العموم. فمن يطع من المسلمين أهل الكتاب وفي أي زمان يرتد عن دينه الصحيح، فيكون هلاكه بردته تلك وولائه لهم. وان تآمرهم على الإسلام لن ينتهي. ولن يخلصوا في نصحهم للمسلمين يوماً من الأيام؛ لا في القديم ولا في أيامنا هذه والتاريخ يشهد؛ وذلك لما تنطوي عليه نفوسهم من بغضٍ وحسد وعداء.

وقد كان انتقام رب العالمين منهم شديداً ومذلاً لهم بطردهم من جزيرة العرب وتشتيتهم في بقاع الارض. ثم هزيمة النصارى في حوض المتوسط وطردهم من جنوبه ومشرقه وقسم من شماله وجزره.

وبأن أورث الأرض لعباده الصالحين الموحدين الأتقياء. وهنا سؤال عتاب للمسلمين من الأنصار خاصة والمسلمين عامة؛ حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ..﴾[آل عمران: ١٠١].

كما يخبرنا العالم بالسرائر والنفوس: أن إطاعة الكفار من أهل الكتاب سيؤدي الى الكفر – والعياذ بالله – والردة عن الدين القويم الصحيح.

كما ذكر سبحانه وتعالى الـأنصار خاصة والمسلمين عامـة؛ بوجـوب الرجـوع للرسول – ﷺ – في أمورهم العظيم منهـا والحقـير. فهـو الرسـول المطـاع ورئـيس الدولة: فقبل حمل السلاح، والسير في الفتن، والانتقـام الفـردي، وتحكـيم الجاهليـة الجهلاء، يجب الاستنارة بالرجوع للمختار الأمين، ليهديهم سبل الرشاد، ويحمـيهم من الغي والفجور والضلال – بعون الله –.

وفي هذه الآيات تبيان طريق النجاة: وهي السير حسب مـا امـر الله، والنهـي عما نهى عنه، والتمسك بتعاليم الاسلام وطاعـة الله ورسـوله ومـن يفعـل ذلـك: ﴿...فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١].

ثم تأمر هذه الآيات بتقوى الله العظيم: بـأن يطـاع ولا يعصـى، ويـذكر فـلا ينسى، وبوجوب التمسك بهذه الدين طوال العمـر حتـى يلقـى المسـلم ربـه وهـو راضٍ عنه.

قـال الله سـبحانه وتعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] وهذا تحذير من الـردة المهلكـة؛ بإطاعـة الضـالين المضلين من أهل الكتاب الذين يهدفون تضليل المسلمين حسـداً مـنهم وكيـداً لهـذا الدين وأهله.

ويطلب سبحانه وتعالى من المسـلمين الثبـات علـى ديـنهم الحـق، وعقيـدتهم الواضحة، حتى الخروج من ضيق هذه الدنيا إلى السـعة عنـد رب رحـيم كـريم في جنة النعيم.

كما يأمرنا بالتمسك بمدأ الإسلام الذي أعزنا بعـد ذلـة، ووحـدنا بعـد فرقـة،

وأخرجنا من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن متاهات الجاهلية إلى الطريق المستقيم. كما حذرنا من إطاعة الكفار وفسادهم، ونياتهم الخبيثة.

ويذكر أمة الإسلام: بنعمه الواسعة وكرمه الجزيل. ومن هذه النعم وذلك الكرم: الإئتلاف بين قلوبهم رغم عداوة الأمس، فأصبحوا أخوة متحابين، لا يفرقهم وطن ولا جنس ولا لون ولا لغة: عربهم وعجمهم. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿...هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣].

ثم يذكرهم بنعمة أخرى وهي الخروج من مستنقع الكفر ومصيره السيء إلى نعيم الجنة. وهذه هي النعمة الحقة الدائمة الخالدة. وكما قال رسول الله محمد ﷺ – مذكراً الأنصار – بعد غزوة حنين وتقسيم غنائمها: "يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فالف بين قلوبكم الله بي، وعالة فأغنكم الله بي...". ويذكر رب العالمين بمن يسير على هدي هذه الآيات البينات، بأن منقلبه جنة عرضها السماوات والأرض. فيها النعيم الخالد.

فالتفكر في هذه الآيات وما فيها من عظات يؤدي إلى الهداية والثبات على دين الله الصحيح القويم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

في هذه الآية الكريمة، فرض الله علينا فرضاً ثقيلاً ومسؤولية عظمى: وهي بروز جماعة من أمة الإسلام في كل العصور: تحمل مهمة حمل دعوة الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تعمل على نشر الدين والمحافظة عليه من أشرار

وفساق الأرض والمفسدين فيها، وتنقيته من البدع، ومن عمل أيد مجرمة حاقدة عليه، وهذه الجماعة تعتبر هي الفائزة برضا الله، والجنة هي جزاؤهم ومثواهم، وهذه الجماعة تعتبر هي الحارس الأمين على حضارة الإسلام ونشرها، والدفاع عنها، والرد على المشككين والحاقدين.

ومن ابرز أعمال هذه الجماعة الخيرة الكريمة هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لا يضيرها مخالفة العامة ولا جبر الحكام. تستحسن ما استحسنه الشرع من قول أو عمل، وتستقبح ما استقبحه الشرع من ذلك أيضا.

إن وجود هذه الفئة من المسلمين: هو فرض كفاية على الأمة الإسلامية. وكلما التزمت هذه الفئة ونشطت وتحملت المسؤولية التي أمر الله بها، نهضت الأمة وتقدمت وعز شأنها، وعلى رأس هذه الفئة علماء الأمة الذين يعبدون طريق السلامة لأمتهم، ويبددون ظلام الجهل والتخلف.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقد وصف سبحانه وتعالى هذا العذاب بأنه عظيم وذلك لعظم الجريمة التي ارتكبتها تلك الفئة من الناس، الذين أعزهم رب العالمين بإرسال الرسل تحمل لهم نور الكتب: فيها الأمر والنهي، فيها صفة النار والجنة، وصفة الطريق إليهما. ولكنهم بكيدهم وفسوقهم وتحكيم الهوى، وإتباع الشطيان الرجيم، فساروا طريق الكفر والفسوق والعصيان. حيث قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

ونصيب من لعنه الله هو الخسران والعذاب الأليم العظيم يوم القيامة يوم الحسرة والندامة، يوم الجزاء ولا عمل، فلكونهم لم يلتزموا بفرض النهي عن المنكر، لعنوا، فلتتعظ أمة الإسلام بما حصل لمن سبقها من الأمم، ولتطبق شرع الله كاملاً ومنه وجود فئة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ولتساعد الأمة هذه الفئة لتقوم بواجب هذه الفرض خير قيام، حتى تكسب الفوز والفلاح، وتدفع عن الأمة العذاب يوم القيامة، لان المسلم سيسأل عما فرض الله يوم القيامة، سواء كان فرض عين أو فرض كفاية.

ثم يصل تهديد رب العالمين لأهل الكتاب من ذكرّهم بسؤة من سوآت يهود، وهم أصحاب السبت، حيث قال سبحانه وتعالى – فاضحاً لهم-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [النساء: ٤٧].

ثم يُذكّر بنتيجة العمل في هذه الحياة الدنيا: فمن سار حسب أمر الله وأطاع: يكون العزوا لوجه الحسن الأبيض في الجنة، يرفل في حلل النعيم، بجوار رب كريم رحيم، وأما تحكيم الهوى، والنفس الأمارة بالسوء، فيكون سواد الوجه والنار التي وقودها الناس والحجارة في حميم آن. جزاء العناد والفساد ورفض أمر الله وإتباع شيطان رجيم.

قال الله سبحانه وتعالى يصف الحالين: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦ - ١٠٧].

ثم يقول سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ

بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٨].

والخطاب عام لامة الإسلام وما فيها من مواعظ وحجج بينه لتحذر أمة الإسلام من الوقوع في شراك أشرار الخلق وفساقها، وذلك عندما تطاوع الشيطان وحزبه من كفار أهل الكتاب.

ثم يوضح سبحانه وتعالى نتيجة السير على الصراط المستقيم وذلك حسب أمره ونهيه، فيكون النعيم الدائم في جنة الخلد. ثم يبين سبحانه وتعالى هيمنته وملكه الواسع، وأن عاقبة الأمور إليه الصالح منها والطالح، والمحسن والمسيء. ثم يمتدح سبحانه وتعالى أمة الإسلام، وأنها خير الأمم وأكرمها، وذلك لقيامها بما فرض عليها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر الإسلام، وما دامت تسير الطريق المستقيم، قائمة بهذا الواجب مؤدية هذا الفرض، فهي أكرم الأمم وأعزها. وإن أهملت هذا الفرض فمصيرها إلى ما آلت إليه في هذه الأيام العصيبة السوداء التي ذل فيها العزيز وانحط فيها. وتمزق فيها الجسم الواحد، وانقطعت فيها حبال المودة والأخوة.

وعاد المسلم غريباً في أرضة وبين أهله وعشيرته. ويرجع كل ذلك لتركهم الحكم بما أنزل الله، واتباعهم شياطين الإنس والجن. وترك ما فرض الله عليهم من: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذلك الحارس الأمين على وحدة الأمة، ونشر الدين، والمحافظة عليه، نقياً عظيماً في النفوس، والوقوف أمام الأعداء المتربصين بهذه الأمة للقضاء عليها. ثم تركهم لكتاب الله وهجره لا بترك تلاوته فحسب بل وعدم العمل به وتكريمه.

ثم اخذنا النصح من الاعداء: أهل الكتاب، وهو ما حذرنا اله منه في هذه الآيات البينات وهو عالم الغيب والشهادة ، فلم نلتفت لتحذيره سبحانه وتعالى لنا رحمة بنا وحرصاً على كرامتنا؛ فكان هلاكنا وذلنا واستعباد الشعوب الكافرة لنا. وما نحن فيه الأن من تفرقة وإنحطاط وصغار.

ثم موالاة أعداء الله وأعداء المؤمنين الذين أجتمعت شرورهم وكيدهم علينا مع المنافقين والظلام منا. قال سبحانه وتعالى – محذراً ومنبهاً لنا –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وكأننا لم نتل كتاب الله، ولم نفقه هذه الأيات الكريمة، وذلك حين طمست بصائرنا، فعميت أبصارنا عن رؤية الحقائق، وسرنا مضبوعين وراء الأعداء من أهل الكتاب كالعبد وراء سيده، ليس له من الأمر شيء، أداة طيعة.

نسير حسب رأيهم، ونأتمر بأمرهم، ونساندهم بخدمة مصالحهم، بتدمير مصالحنا وثروتنا وكرامتنا هذا جزاء من ترك تعاليم دينه ولم يسمع لتحذير ربه، وطلب العزة من الكفار فأذله الله قال الله سبحانه وتعالى: مبيدناً أن أهل الكتاب قد خانوا أمانة التبليغ، وذلك لمعرفتهم بصفات خاتم النبيين محمد ﷺ. ومع هذا وعندما بُعث أنكروه بل وحاربوه؛ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٣ - سوأت أصحاب السبت

﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا

ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۢ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣ - ١٦٨].

ما كانت قصص الأمم السابقة مع أنبيائهم تذكر في كتاب الله عبثاً لتشنيف الأسماع بها، والتلذذ بتلاوتها، والأنفعال مع بعض حلقاتها، ولكنها وعد ووعيد لتربية النفوس على الفضيلة، وتقويم الأعوجاج، وطرق أبواب قلوب قاسية مغلقة، لا تعرف المعروف ولا تنكر المنكر. ومن هذه القصص المنيرة الهادية: قصة أمة من قدماء اليهود؛ كانت تسكن على شاطىء بحر. فاحتالت على تعاليم رب العالمين؛ تلك التعاليم التي تحرم الصيد على يهود يوم السبت.

فاحتالت تلك الأمة بوضع الشباك في البحر ليدخله السمك في يوم السبت وتخرجه من البحر في يوم آخر. فكان قياسهم خاطئاً، وحيلتهم مكشوفة فالرب الخالق لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؛ فرب العزة الذي يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء موجود، يسمع ويرى، كيف لا وهو خالق السمع والبصر، فهؤلاء اليهود الذين اعتدوا على حرمات الله، وخالفوا أمره، وقاموا بالاحتيال على حرمة يوم السبت، بتغير أسلوب صيدهم، لهم اليوم حزب قوي من جميع أمم الأرض، لا يأتمر بأمر الله ولا ينتهي عما نهي عنه، إما علانية أو خفية؛ فهذا الربا والميسر والزنا والخمر تبيحها دساتير الأرض جهاراً نهاراً. ويلعن ابليس ويطرد من رحمة ربه لأنه رفض سجدة، يطيع بها أمر الله، وتأتي الصلاة تلو الصلاة المفرضة على كل مسلم، ويسمع الأذان من على

المآذن لا يقيم البعض هذا الفرض رغم علمه بعظم هذا الجرم ويؤكل التراث أكـلاً لما، ويحرم أهل الزكاة من حقهم وهي ركن من أركان الأسلام، ويعطل ركن الجهاد في مسيس الحاجة أليه... وهكذا.

هذه حال أمة الإسـلام الـتي يبـاهي بهـا الله ملائكتـه، فكيـف بـأمم الأرض الأخرى؟ ثم كيف بالمغضوب عليهم؟ وكيف بالضالين؟ ولنسمع قول الله سـبحانه وتعالى، ولنفكر بما فعله بالعصاة، ممن أراد التحايـل علـى شـرع الله، فجعـل مـنهم القردة، جزاء صنيعهم هـذا. قـال سـبحانه وتعـالى – مخاطبـاً رسـول الله محمـد ﷺ ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ...﴾ [الأعراف: ١٦٣].

والسؤال هنا للتوبيخ والفضح والتعرية، إسأل اليهود الذين يتبجحون بنسبهم ودينهم؛ وأنهم أبناء الله وأحباؤه!!! عن أهل تلك القرية – التي كان يسكنها بعـض أجدادهم – حيث وصل بهم الطغيان والفسوق، أن أعتدوا على أمر الله – وذلـك بتحريم الصيد يوم السبت – وأنتهكوا حرمـة هـذا اليـوم، واحتـالوا ظـانين أن الله كالبشر يخفى عليه خافية، فوقعوا في شـراك فسـادهم، وسـوء نيـتهم. المطلـع علـى نياتهم وخبث سريرتهم، قد أوقعهم في شراك فسـادهم وسـوء فعلـهم واجـرامهم. قال سبحانه وتعالى ﴿...كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ وهذا الابتلاء هو إختبار لعباد الله – في الماضي والحاضر – فإن كانت هذه الأمة التي فتنتها وأضلتها الـنفس الأمارة بالسوء، وزيـن لهـا الشـيطان عملـها هـذا، فكانـت عقوبتهـا المسـخ قـردة؛ ولعذاب الأخرة أشد وأنكى.

فاليوم وقد فتن الناس بالعمارات الشـاهقة، والريـاش الفـاخرة، والسـيارات الفارهة، والحدائق الغناء، والمزارع اليانعة، فاسـتحلوا المحرمـات – مـن أجـل تلـك النعم – كالربا والاحتكار والسرقة والرشوة، والولوغ في دماء الضـعفاء والفقـراء. فكان الذل والصغار، والكبت والدمار. وإجتماع أمم الكفر – حقيرها وعظيمها –

على أمة الإسلام: فحلت الفرقة بعد الإجتماع، والكره بعد المحبة، والعداء بعد المودة، والفقر بعد الغنى والظلمة بعد النور، والردة بعد الإسلام. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وينقسم أهل تلك القرية، إلى مؤيد لهذه الحيلة بالخروج على أمر الله، وعصيانه، وإلى مهمل لهذا الأمر متناسياً ما فرضه الله على أبناء المجتمع من النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل تعدت هذه الأمة من الانكار السلبي بسكوت إلى اللوم للدعاة الناهين عن هذا المنكر.

وأما الأمة الثالثة، أمة الخير والتضحية والنصح حراس الدين، وجنده الأوفياء الأتقياء الصالحين، فما سكتوا، وما هابوا قول الحق، ولو تعرضوا للنقد والأذى من المجرمين، ولسخط أصحاب المنافع والثراء وحب المال. بل وقفت مستنكرة معترضة طريق الفساد، وأوضحت حكم الله، ونهت الضالين الفاسقين، وحذرت من سخط الله، وبينت لهم سوء عاقبة عملهم هذا.

ورغم اعتراض الأمة المسالمة؟ حيث قالت: ﴿...لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فكان رد أمة الصلاح بقولهم: ﴿... قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ...﴾ وذلك حتى لا نتخلى عن وظيفة فرضها الله علينا وهي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أو ﴿...وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾؟ لعل هؤلاء الآثمين المعاندين يرجعون عن غيّهم، فيتوبون، والله يقبل توبة عبده، وهو أرحم الراحمين. ولما لم تستجب هذه الأمة العاصية لنصح ناصح، ولا لتذكير مذكر، وتمردوا على أحكام الله وتشريعه، وتناسوا أوامره ونواهيه أهلكهم في الدنيا والآخرة، وأنجى الله أمة الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر أهل الفلاح والتقوى وأوقع الظالمين المتمردين على شرع الله في أشد أنواع العذاب والشقاء في هذه الدنيا، ولعذاب

الآخرة أشد وأنكى، فمسخهم الله حقيقة إلى قردة بذل ومهانة عظيمة، وذلك نتيجة تكبرهم وتمردهم واستهانتهم بشرع الله العادل المصلح. فأين من يتعظ؟ وأين أصحاب العقول الراجحة والفكر المستنير؟ الذين استنارت عقولهم بنور الإيمان؟ فساروا في طريق النجاح والفلاح، الطريق المستقيم، طريق الصالحين المؤمنين أين من يرفع صوت الحق عالياً لا يخشى في الله لومة لائم؟ أين من يؤمن أن سيد الشهداء حمزة – رضي الله عنه – ورجل قام الى حاكم ظالم فوعظه فقتله؟ أين هم المفلحون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، الجنود الأوفياء الداعون للإسلام؟ الذين يطلبون النجاة من غضب الله وعقابه كما نجت أمة الصلاح في تلك القرية؟ أين من يصبر على تنفيذ هذا الفرض القيم، صاحب الجائزة الفضلى؟!! أين من ينكر على الظالم ظلمه، ولو كان صاحب مركز وجاه ومال؟ أين من يطبق حديث رسول الله محمد ﷺ القائل: "من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام" رواه أحمد.

ثم كان الجزاء العادل من رب العالمين لأمة تمردت على انبيائها، فعصت بعضهم، وقتلت آخرين وخانت الأمانة في التبليغ فأخفت صفات رسول الله ﷺ، من كتبهم، وهي بينة واضحة عندهم، ما عملت ذلك إلا حسداً وتعصباً وغيرة قاتلة، فنالت الجزاء العادل في الدنيا، وجزاء الآخرة هو أدهى وأمر.

وكان عقابها الدنيوي. هو الشتات – قال سبحانه وتعالى: ﴿......وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ﴾ لم تنله أمة من أمم الأرض جمعاء. ثم سلط الله عليهم ﴿مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ ومن ملوك وحكام وشعوب الأرض قاطبة. ما كان هذا الشتات والعذاب لفترة أو حقبة من الزمن بل هو مستمر استمرار وجودهم على هذه الأرض، حتى يأذن الله لهذه الأمة الصالحة بسحقهم وإبادتهم، وتخليص البشرية من أذاهم. فمن فرعون إلى نبوخذ نصر إلى حكام اليونان والرومان إلى

الصليبين فالمسلمين. وصدق رسول الله محمد ﷺ حيث قال: "لا تقوم الساعة حتى تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الشجر والحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله..." رواه مسلم.

قال الله سبحانه وتعالى﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ ...﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وهذا علم الله لنبيه محمد ﷺ ويؤكد إذلالهم واحتقارهم المستمر الى يوم القيامة في الحياة الدنيا، جزاء تمردهم وفسادهم في الارض. فيا أمة الاسلام خذوا حذركم واتعظوا مما حل بهؤلاء اليهود، وما جرى لهم عندما اعتدوا في السبت وتنكروا لشرع الله، وخالفوا أوامره، فمن قلدهم من أمة الاسلام، واقتفى اثرهم في الفساد، سيجمع معهم في نار جهنم، ومن والاهم فهو منهم.

ما كان اجتماعهم في هذا العصر في فلسطين هو عز لهم وتمكين لهم في الارض بل هو للقضاء عليهم، وذلك لمناصرتهم الاستعمار الصليبي وكل فساد في الارض، وما الله بخاف عليه من شيء في الارض ولا في السماء وهم يؤمنون بهذا المصير ولا شك – وينتظرون تلك الكارثة، التي ستحل بهم لفسادهم وتكبرهم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل" ـ

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٦٥ – ٦٦].

اللهم إجعلها لأمة الاسلام موعظة، ولا تجعلها نكالاً إنك مجيب الدعاء. ويفهم من هذه الاية الكريمة: أن التنكيل بهم وبمن يعمل مثل عملهم من الخلق،

فليخش المسلم عقوبة الله عندما تحدثه نفسه بمخالفة أمر الله، أو الاحتيال على النص الشرعي، أو عندما يزين له الشيطان عمل الفساد والطغيان في ارض الله. فاتعظوا واعتبروا يا أولي الالباب.

٤ - تكبر قارون وجزاؤه في الدنيا

قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً

وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٧٦ - ٨٣].

ما كانت تعاليم رب العزة سبحانه وتعالى لتمنع الجد والعمل وتملك المال والضياع والمصانع والعقارات والرياش ولم يحرم الغنى وجمع الثرواة بالطرق المشروعة؛ لانه قوة ومنعة للأمة وسند لدولة التوحيد كما ان تلك التعاليم لا تمنع الانسان من رغد العيش، والتنعيم فيما آتاه الله فما دام هذا المال جمع بوسائل التملك المشروعة، واتفق بطرق مشروعة في وجوه الخير والصلاح. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

إن بعض صحابة رسول الله ﷺ. قد أثروا، والقرآن ينزل، وما كان ذلك عيباً، أو طعناً في دينهم، فما دام المال جمع بالحلال وأنفق في وجوه الخير المشروعة ولا يصاحبه بطر ولا رعونة فهذا قارون اليهودي الذي عاصر نبي الله موسى عليه السلام، وتنكر لدين التوحيد، ولم يسمع لنصح ولا تذكير مذكر في كتاب الله مثلاً على البطر والتكبروالاحتيال والعناد، فبدل أن يقابل هذا الخير العظيم بالشكر والحمد

والطاعة والامتنان، طغى وتجبر وتكبر واستغنى فكان جزاؤه عند الله في الدنيا فريداً من نوعه، مع ما ينتظره من عذاب الآخرة.

وقصة قارون هذا كانت – ولاشك – معروفة عند أهل الكتاب، ومدونة في كتبهم وتاريخهم، تتناقلها الاجيال، وكذلك عند أهل مصر مكان حدوثها، فهي من غرائب المعجزات التي شاهدها الناس بمصر في عهد نبي الله موسى – عليه السلام – ومع هذا لم يتعظوا ولم يؤمنوا.

وذكرت في القرآن الكريم كباقي القصص للعظة والذكرى لمن يتذكر. ولو لم تكن معروفة ومشهورة عند اليهود لذكر اليهود ذلك، ولطعنوا في صحتها.

الويل لمن يعرف بل ويؤمن بما فعل الله بالمتكبر العاصي من خلق الله ويتكبر ولا يتعظ.

ويسرد لنا القرآن الكريم قصته هذه وذلك لنعتبر ونتعظ، ولا نقع في شباك عدو البشر الشيطان الرجيم. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ...﴾ [القصص: ٧٦].

فذكر القرآن الكريم لنسب هذا الطاغية فيه أمر بالغ الأهمية، فهو من الشعب المضطهد المستعبد في مصر في ذلك الوقت من قبل حكامها، الفراعنة، وكان المنقذ لهذا الشعب هو نبي الله موسى – عليه السلام – بأمر ربه فإن يطغى يهودي على المنقذ لهذا الشعب من تعسف وإجرام فرعون، بل هو عين الكفر لأن الكفر هو ستر الحقيقة، وصرف العبادة لغير المعبود الحقيقي.

فكان الواجب تقدير واحترام هذا النبي وصحبه من المؤمنين الصادقين الصابرين، ومساعدتهم لإنقاذ ذلك الشعب المضطهد، لا أن يقابل بالتجبر والعناد والتكبر والرعونة.

قال الله سبحانه وتعالى – في وصف ثروته الطائلة تلك -: ﴿... وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ...﴾ [القصص: ٧٦].

ووصف مقدار ثروته بهذا الوصف البلاغي: فكثرة تلك المفاتح تدل على عظمة هذه الثروة. فالعصبة القوية من الرجال تتعب من حملها ونقلها: إنه لوصف دقيق لثروة عظيمة كبيرة. وقد وعظه قومه من اليهود المؤمنين: أن لا يبطر، وأن لا تفتنه هذه الثروة الهائلة العظيمة، وتنسيه ولي نعمنته، والله الرازق. بل عليه أن يشكره، وألا يكون من الجاحدين، قال اله سبحانه وتعالى – في وصف هذا النصح-: ﴿... إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

ومعنى الفرح هنا هو التكبر والبطر.

وهذه العظات التي ذكرها ونبه إليها هؤلاء المؤمنون من قومه، يحتاجها كل ذي ثراء في هذه الدنيا، فالصدقة والزكاة هي من الواجبات المفروضة للمجتمع المسلم على صاحب الثروة والمال الوفير، ومن تركها فقد هدم ركناً من أركان الإسلام، ويجب على الدولة مُحاربته حتى ينصاع لأمر الله – كما فعل خليفة رسول الله (أبو بكر الصديق) – رضي الله عنه – مع المرتدين من العرب ومع هذا لا ينسى هذا الثري حظه من نعيم الدنيا الحلال، بدون بطر ولا خيلاء.

فالتوسعة على المحتاجين في المجتمع، لهي أكبر عامل للتضامن، وتقوية وشائج الصلة والحب والتقدير، وهي وسام ولباس خير لصاحبه وأعظم إجلال له من مجتمعه.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

إن جواب هذا الطاغية المفترى المتكبر على قول الله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ ...﴾ ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ...﴾ ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ...﴾ بقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ...﴾ فجوابه هذا هو قلب للحقائق، وإفتراء على صاحب الفضل الحقيقي، خالق الخلق وباعث الرزق. فهو ينكر فضل الله عليه، بل ويفتري على الله الخالق الرازق: بجعل سبب الرزق العلم، كما يفعل كثير من الناس في أيامنا إذا سئلوا عن الثروات نسبوها الى ذكائهم وعقولهم ونشاطهم وحسن إدارتهم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ ...﴾ [الزُّمَر: ٤٩] فرد رب العالمين عليه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ...﴾ [القصص: ٧٨].

ففي هذه الآية الكريمة: تعجب من صنيعه، وتوبيخ له، لأنه لم يكن جاهلاً بتعاليم الدين ونبي الله موسى – A– عنده، ومع كل هذا سار في طريق الخيلاء والتكبر والفساد، جاعلاً ماله هذا مصدر السعادة، متناسياً أن السعادة هي رضوان الله، ولا تكون إلا بطاعته، وامتثال أمره. وقد نسي أن أطماع النفس ليس لها حد لو ملك وادياً من ذهب لطمعت نفسه بامتلاك وادٍ آخر، وأن حب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ليس له نهاية، وأنه يسير وراء نفس جشعة لا يشبعها إلا تراب القبر.

قال رسول الله محمد ﷺ: "لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى الثالث، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب".

فبسط الرزق للانسان ليس معناه أنه أفضل عند الله من غيره، وأنه رزقه لتقواه أو لقوته أو لحسن تدبيره وذكائه وعلمه، بل يكون بقدر الله له. وهنا يظهر خطأ القائل: لولا أنه يستحق هذا المال لما رزقه. فقد يكون هذا المال هو فتنة، كما أن الفقر فتنة، وقد يكون هذا المال المفرح حجاباً ومانعاً من نعيم الآخرة.

ثم يبين رب العالمين. أن الموت محيط بالجميع، وأن الوقوف بين يدي الرحمان – لا شك – واقع "قفوهم فإنهم مسؤولون" فما أعد صاحب المال من إجابة؟!! ماذا سيقول لربه عندما يسأله من أين اكتسبه؟!! وماذ يقول له إذا قيل له، وفيما أنفقه؟!!

وعرض قارون نفسه – يحيط به حرسه وخدمه وبطانته – في موكب يظهر عليه الخيلاء والتعظم والتكبر، يلبسون الثياب المزركشة، ويظهرون من الزينة ما يفتن النظر ويزيغ معه البصر.

فعندما رآه أصحاب النفوس المريضة والعقول المحدودة، من لا يفكر إلا بالحياة الدنيا، تمنوا زينة الحياة الدنيا وزخرفها. حتى قالوا فيه: إن نصيبه من هذه الدنيا عظيم. قال سبحانه وتعالى فيه وفيمن رآه: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص: ٧٩].

ولكن علماء الأمة المؤمنة، ومن ارتقت نفوسهم واستنارت عقولهم، نظروا ببصيرتهم إلى نعيم الدنيا الزائل، وبهرجها الفاني، هو أعظم وأسلم من نعيم زائل، يحصده الموت، وتذروه الرياح، والآخرة لمن إتقى ـ ورضي بنصيبه من الدنيا، وآمن وعمل الصالحات، وصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وأحسن كما أحسن الله إليه، وتواضع للخالق والمخلوق.

هذا الرأي السديد الرشيد، هو الذي يميز العلماء والفقهاء عن غيرهم، لصواب رأيهم، وبعد نظرهم.

قال الله سبحانه وتعالى – يصف رأي أولئك العلماء –:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾[القصص: ٨٠].

وفي كلمة ﴿وَيْلَكُمْ﴾ من الردع والزجر لهؤلاء المغفلين الذين يقدمون الفانية لقربها وسرعة ثمرها، على الباقية الخالدة لتأخرها. ولو فكر هؤلاء بعمق وروية، وتذكروا ساعة الموت، وفراق تلك الخيرات والأحبة وما يمكن حمله من هذا النعيم الفاتن، وما وراء ذلك من ظلمة القبر، وتناثر اللحم، فنخور العظم، ثم الوقوف للحساب.

وقد ذم رب العالمين كنز الذهب والفضة، كما توعد المحتكرين لهذا المواد، ولا يزكيها بالكي بها وهي معدن لا يتحول الى رماد، وخص الجباه للإذلال والتبشيع، والجنب لزيادة الألم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[التوبة: ٣٤ – ٣٥].

قال رسول الله محمد ﷺ: "ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوي بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين

ألف سنة حتى يقضي بين العباد ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار" صحيح مسلم.

نعود لتلك الآيات الكريمة لنرى مصير هذا الثري الذي فتن بثروته كما فتن الناس بها حتى تمنوا حياة كحياته ومالاً كماله. قال الله سبحانه وتعالى – يصف جزاءه في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أعظم وأشقى -:﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾[القصص: ٨١] .

هذا جزاء الاختيال والتكبر والرعونة واحتقار البشر، لم يخسف به فحسب بل وبداره وماحوت وذلك احتقاراً له وصغاراً وذلاً، ثم ليكن عظة لغيره، ليتذكر من هم تاركين ما جمعوه وراءهم، يتنعم فيه غيرهم ويحاسبون على جمعه وصرفه.

قال رسول الله محمد ﷺ: "بينما رجل يجر إزاءه إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة" رواه البخاري.

إن هذا العاصي والذي ذكر باسمه لا بصفته فقط، لتتناقل الأجيال قصته للعظة، وهو أقل عند الله من الشهرة والتشهير به. فقد كثر أمثالهم في الأرض وذلك عندما افل نجم الاخلاق والسلوك الحسن، وعبد الدينار والدرهم، تحت راية النظام الرأسمالي الظالم، فاستغنى الفرد عن مجتمعه بماله وثروته وعدّه مصدر السعادة والخلود.

فهو طريق لأشباع أنانيته ورغباته وحب السيادة. والمنفعة هي مبدئه يدور معها حيث دارت. ونسي القوم ساعة الموت، وأنها لا بد قادمة مهما تمسكنا بأهداب هذه الحياة الزائلة، ومهما تطاولت أعناقنا للبقاء في نعيم الدنيا فقد يكون فتنة لهم ومصدر عذاب.

ويرجع – من تمنوا حظ قارون هذا يوم رأوه في زينته الفاتنة تلك – لأنفسهم، فتستنير قلوبهم ويجعلون السعادة هي في رضى الله، وأن الخيرة فيما اختاره الله لهم، والشر فيما اختارته النفس الأمارة بالسوء.

وأن الرزق قد يبسط فيكون فتنة. والنار هي مثوى الكافرين، والفلاح والصلاح لأهل التقوى، الذين يخشون ربهم بالغيب.

قال الله سبحانه وتعالى – يصف حال من تمنوا حظ قارون:﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٢].

﴿وَيْكَأَنَّ ﴾ كلمة تعجب، لما يحصل من تقسيم الأرزاق وبما يحصل للعصاة والكفار من فرح يعقبه غم وعذاب في النار. ثم يبين رب العالمين نصيب وحظ الأتقياء المصلحين المتواضعين الراضين بما قسم الله لهم من نصيب في هذه الدنيا ويوم القيامة ما ينتظرهم من خير في جنة عرضها السماوات والأرض. وقد دفعوا ثمنها بطاعتهم وأعمالهم الصالحة، وإيمانهم القوي.

قال الله سبحانه وتعالى – يصف مآل الأتقياء المؤمنين-:﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

٥ - ألدّ الخصام

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ

جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٩].

وإذا أمعنا النظر في مطلع سورة البقرة في القرآن الكريم، نرى وصفاً لفئات ثلاث من البشر. فقد وصف رب العزة المؤمنين بخمس آيات، كما وصف الكفار بآيتين إثنتين فقط، وأما المنافقون فقد وصفهم بثلاث عشرة آية، كلها توضيح وتحذير من أساليبهم وكيدهم وتلونهم وإخفاء نوايهم الشريرة، وإظهار الحب والخير للمسلمين، وذلك لكي ينخدعوا بهم، فيقعوا في شباكهم. قال رسول الله محمد ﷺ: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر".

قال الله سبحانه وتعالى – في وصفهم -: ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ .... ﴾ [النساء: ١٠٨].

ويظهر الله سبحانه وتعالى بعض أساليبهم القبيحة، لنعرفهم بها، فنتقيهم ونحذرهم، فقد وصفهم بكثرة الحلف الكاذب، والرياء الخفي، ولبس التقى وإظهاره أمام الناس.

وهذه الشريحة من الناس هي من أخطر شرائح الشر على المسلمين، الذين اعتادوا الصراحة وصدق الحديث والشجاعة في قول الحق، فخفيت عليهم أساليب النفاق، وألاعيب المنافقين فيها، فمن هنا كشفت الآيات الكريمة ما خفي على الأمة الإسلامية من صفاتهم وفضحتهم فعرتهم أمام الخلق.

ومن صفاتهم في الفساد عدم مجابهتهم، وغدرهم عن قصد بكل ذي روح من الناس او الدواب وحتى النبات لا يسلم من شرهم وأذاهم: ﴿...وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾.

ومن صفاتهم الشريرة وأخلاقهم الشاذة، أنك إن وعظتهم حملتهم الحمية على مزيد من ارتكاب الآثام، وعدم السماح للنصح، وذلك لعقد وشذوذ كامنة في نفوسهم المريضة، ورين متراكم على قلوبهم، وجرائم سدت منافذ الخير والنصح والعظة، وكبر ما هم ببالغية.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤- ٢٠٥].

وقيل أن سبب نزول هذه الآيات الكريمة: أن منافقاً أوهم الرسول محمد ﷺ، أنه صحيح العقيدة، صادق الإيمان، أظهر الرغبة وانشراح الصدر لهذا الدين، وأخفى النفاق والتكذيب والكيد للإسلام وأهله. حتى خرج من عند رسول الله محمد ﷺ، فمر بزرع وحُمر لأهل المدينة، فأفسد الزرع، وقتل الحمر.

وروي أن هذا المرتد المنافق هو الأخنس بن شريق الثقفي الذي اشتهر فساده ونفاقه، وقد مات كافراً لشدة خبثه ومكره وعناده، كما قيل أن سورة الهمزة في القرآن الكريم قد نزلت فيه – والله أعلم – يقابل هذا الخصم اللدود، والشقي المفسد، من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله، ذلك الذي شنف برأسه إلى الجنة ونعيمها، فدفع ثمنها أغلى ما يملك. قال الله سبحانه وتعالى – في وصفه –: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

فها هو صهيب الرومـي، وعنـدما اعترضـت قـريش هجرتـه – إلى المدينـة – قائلين له: قدمت مكة بلا مال، وأصبحت ذا ثراء، ولن ندعك تخرج من بيننا حتـى تدلنا على مالك فإن فعلت ذلك خلينا بينك وبين ما تريد، فتنازل لهم عـن ثروتـه. ولحق برسول الله محمد ﷺ والمسلمين. فقد دفـع مـا جمعـه مـن مـال في دنيـاه ثمنـاً للسعادة في اخراه، فنال رحمة ربه الـرءوف الـرحيم. حتـى قيـل لـه ربـح البيـع يـا صهيب.

وتقوم دولة الإسلام في المدينة، وينير الله قلوباً كانت تنتظر هـذا اليـوم، نزيـد الخروج من متاهات الكفر والتردد والعصيان.

ويدخل في الاسلام بعض يهود المدينـة، مـؤمنين برسـول بشـرت بـه كتـبهم، فأسرعوا معلنين إسلامهم، مُنيبين لله عنـدما وضـحت لهـم طريـق الخـير، فسـاروا عليها. ولكنها ولحداثة عهدهم بهذا الدين، اختلطت عليهـا بعـض الأمـور. وكـان لذكر القرآن الكريم جهاد المؤمنين مع موسى – عليه السلام – ومـع عيسـى ابـن مـريم – عليه السلام. وأن في الإمكان الجمع بين تعاليم هذه الكتب في دين واحد. وساعد في هـذه الفكرة كون القرآن لم ينزل دفعة واحدة بل نزل منجماً ولم تكن آيـات القنـوط مـن اسلام اليهود والنصارى جماعياً قد نزلت.

ولكن الله المطلع على السرائر، ومـا تتحـدث بـه الأنفـس أجـابهم بوجـوب الأخذ بتعاليم الإسلام الخالية من التحريف والتغير والتزوير، فهـي بيضـاء ناصـعة محفوظة الى ان تقوم الساعة والقرآن الكريم يهيمن على ما سبقه مـن كتـب. فهـذا معنى أمر الله لنا جميعاً بالدخول في السلم كافة في قوله سـبحانه وتعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ...﴾ أي يأخذ تعـاليم الأسـلام جميعهـا ونبذ ما خالفها مما حوته الديانات الأخرى فالاسلام مهيمن على الجميـع وأحكـام ناسخة لما سبقها.

وحسبنا ايماننا أن التوراة كتاب سماوي أنزله الله على رسوله موسى -عليه السلام- وأن الإنجيل هو أيضاً كتاب سماوي أنزله الله على عبده ورسوله عيسى أبن مريم - عليه السلام- كما حذر هؤلاء المؤمنين من نزغات الشيطان وخطواته المضلة. فإن زللتم من بعد هذا البيان والتحذير وتركتم طريق الصلاح. بعد أن أنار الله قلوبكم وهداكم لما فيه خيركم وصلاحكم، والسعادة في الدارين.

فاحذروا انتقام الله الذي لا يعجزه أمر، ولا يغلبه غالب، فهو العزيز صاحب القوة والجبروت والعذاب الشديد، وهوالحكيم الذي أنار للمؤمنين طريق الخير وهداهم سواء السبيل. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨ - ٢٠٩].

٦ - شريحة المصروعين بالربا

قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ

ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾

[البقرة: ٢٧٥ - ٢٨١].

الاسلام بناء متكامل، يشد بعضه بعضاً، ويكمل بعضه بعضاً شامل الهدف، محدد الغاية؛ ليس فيه تناقض، ولا اختلاف، فلاحاجة أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، فمن كفر بآية منه، فكأنه كفر به جميعاً. ذلك لانه دين الفطرة، تسكن له نفس الأعجمي كما سكنت له نفس العربي. فهذا الكتاب هو تنزيل رب كامل الصفات، حكيم الصنعة لا بمقاييس البشر المحدودة المتناقضة، ليس كمثله شيء الإسلام يصلح الفكر، كما يصلح العاطفة، يعالج سلوك المجتمع كما يعالج سلوك الفرد، ويحافظ على حقوق الافراد.

ينظم علاقة الأنسان بنفسه، كما ينظم علاقته بمجتمعه وربه. فلا يهمل جانباً على حساب الأخر، ولا مرفقاً على حساب غيره، فكما أن لكل خلية في الجسم وظيفتها وطريقه لعملها، فكذلك الافراد في المجتمع، فقد نظم العلاقة بين الثراء والفقر: لم يجعل المال حكراً واحتكاره من قبل فئة وشريحة في المجتمع، يخل بتوازن

ذلك المجتمع، وجعل الدولة حارس أميناً على تطبيق الشرع، كما أمر الله، وأعطى القاضي المسلم مهمة العدل بين الناس بصدق وأمانة، كما أعطى الحاكم ذلك: فالضعيف عند الحاكم المسلم قوي حتى يأخذ الحق له، والقوي ضعيف حتى يأخذ الحق منه.

وقد سُبقت آيات النكير على آكل الربا بأحكام تليق بالمجتمع المسلم وتضامنه وتآزره وتعاطفه. فقد بين سبحانه وتعالى طريق الخير وهدى الأمة الاسلامية للسير فيه: فبين لامة الاسلام أن هذه الطبقة المحتاجة، تلك الشريحة التي ابتليت بالفقر هي سبب من أسباب دخول أثرياء الأمة جنة النعيم، فاعطاؤهم حقهم من الزكاة، طاعة لامر الله، ثم التفضيل عليهم بأكثر من ذلك الحق المشروع في الصدقات والمساعدة لظروف وحروب وسنين عجاف، قد تمر بأمة الاسلام حيث لا تكفي الزكاة لسد حاجة المحتاجين، فتكون الصدقات المندوبة، وصبر الدائن على المدين لحين يسره واحترام إنسانية الانسان، وشعوره، وتضميد جراحه ومسح البؤس عن محياه، كل هذا يزيد مجتمع الخير لحمة وصلابة وقوة وصلاحاً.

إن أهم ما يعزز روابط المجتمع هي تقديم يد العون والايثار والتواضع والاحترام والحب والتقدير، واعظم مسببات الكره والحقد والتباغض، وتتمتخ روابط بين العامل ورب العمل؛ فرب العمل يعطي حق العامل قبل أن يجف عرقه كاملاً بما يرضى الله، والعامل يخلص في عمله الذي أُئتمن عليه، وكلاهما يخاف رب العالمين المراقب لهما والمحاسب العادل يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، هذه عقيدة المسلم الحق التي تجعله مخلصاً في السر والعلانية، لا يحتاج لمراقبة أو تنبيه أو تهديد لانه يشعر بسلطان المراقب الأعظم الذي يسمع ويرى يجب احترام الانسان المحتاج: فقد أنكر رب العالمين سلوك المنان ومن صدقته أذى، ومَنْ يتبع يتصدق وهدفه الرياء والسمعة، وفضح ذلك الفقير المحتاج كما أنكر سبحانه وتعالى من يختار الفاسد أو الخبيث ليتصدق به.

كما وقد امتدح ذلك المتصدق الذي يُخفي تلك الصدقة حتى لا تعلم شماله ماتنفق يمينه.

وامتدح سبحانه وتعالى الفقه بالقرآن والشريعة والعلم بالاحكام، وخشية الرحمن. وهي الحكمة التي مَنْ أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً.

وقد وصفت هذه الآيات الكريمة – التي سبقت آيات الربا – النفس الانسانية عامة، ونفس المؤمن خاصة: فحببت لهذه النفس الكرم والعطف والرحمة والمساعدة والإيثار، والشعور برابطة الأخوة الصادقة الوثيقة بالتواضع.

فهو يساعد ويتصدق بأكثر مما فرض عليه، لا يكتفي بدفع الزكاة المفروضة عليه بل ويردفها بالصدقات المندوبة، حسب حاجة الامة اليها، ويغنيها عن ذلك السؤال إن نظام الإسلام لا يطبق بالحديد والنار بل ومن دراسة هذه الشريحة الخيرة التي هدى الله، نستنتج كيف تعالج النفس الانسانية بترغيبها وحثها على عمل الخير واحترام المجتمع، وتطلب الجزاء من الله، فهو الذي يربي الصدقات ويضاعف الأجر الى سبعمائة ضعف.

ثم تختتم هذه الآيات الكريمة التي عالجت شح البخيل، ووسوسة الشيطان الذي يعد الانسان الفقر والفاقة. وشجعت الكريم ليزداد جوداً حيث قال الله سبحانه وتعالى: ﴿...وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

كما بينت لهذا المحتاج العفيف، أن ما يأخذه هو حق له من مال الله الذي خلقه ووهبه لفئة من الأمة ليختبرها فيما أنعم عليها قال سبحانه وتعالى – مبشراً أهل الخير المتصدقين – ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

ثم وبعد أن بين سبحانه وتعالى صفة أمة التوحيد التي تسير على نهج الاسلام وهدي القرآن الكريم ووصف المتصدق والمتصدق عليه بكل دقة: الظاهر من حالهما وسلوكهما والخفي منه؛ انتقل ليصف مرضاً مجتمعياً وعلة تفوق كل العلل والأمراض وهي الربا، ولخطورة هذا المرض وتأثيره على المجتمع والفرد والدولة والشعوب، فقد بدأ سبحانه وتعالى بإظهار الغضب والوعيد والتهديد – وذلك قبل يوم الحساب – فآكل الربا يقوم للحساب متعثراً يجر بطناً قد أثقله عفن الربا الممزوج بدماء وعرق المستضعفين في الارض. وقد وصف سبحانه وتعالى أكلة الربا بابشع ما يوصف به إنسان، وانكر ما يجازي به مجرم، وأقسى أنواع العذاب. حيث قال سبحانه وتعالى:﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ...﴾ والاسم الموصول "الذين" يفيد العموم، يجعل هذه الآية تنطبق على جميع أكلة الربا ثم أن كلمة "الربا " لم تحدد بل ينطبق عليها: "كل قرض جر ربحاً فهو حرام ".

ثم ننتقل لوصف حالهم يوم قيامهم للحساب: إنسان فقد عقله الذي يدير سلوكه، وينير له السبيل وهو الذي ميزه عن الحيوان والنبات والجماد فهو يسير على غير هدى، عندما سحبت منه تلك الجوهرة، فهو يتخبط كاشف العورة، لا يدرك ولا ينتبه لما حوله لشدة الصرع والألم، فلا ارادة عنده لضبط حركاته وسكناته، فهو مجنون: يرعب حتى أقرب الناس إليه رحماً، فتعافه الخلق، ويتنكرله الصديق بل والحبيب.

فما كان هذا الجزاء إلا لعظم تلك الجريمة النكراء، ونتيجة غضب الله وسخطه. قال رسول الله محمد ﷺ يصف بعض مواقف أكلة الربا – عن سمرة بن جندب في حديث المنام الطويل: "فأتينا على نهر – حسبت أنه يقول أحمر مثل الدم – وإذا في النهر رجل سابح يسبح وإذا على حافة النهر رجل قد جمع عنده حجارة

كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع الحجارة عنده فيفغر له فاه فيلقمه حجراً وذكر في تفسيره – أنه آكل الربا" رواه البخاري.

وعن ابي هريرة قال رسول اله ﷺ "الربا سبعون جزءاً أيسرها أن ينكح الرجل أمه" رواه ابن ماجه.

وقال رسول الله محمد ﷺ: أتيت ليلة أسري بي على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات تجري من خارج بطونهم، فقلت: من هؤلاء ياجبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا " رواه ابن حاتم وأحمد.

إن هذا الموقف وذلك المنظر ليجعلك تعارض وبشدة تلك الزوجة التي تطلب منك الاستدانة بالربا لتغيير أثاث البيت، لان جارتها قد فعلت ذلك.

كما تعاف ذلك الابن الذي يطلبك تغيير تلك السيارة لان إبن الجيران قد فعل ذلك. أقول هذا المنظر الذي صورته لنا تلك الآيات الكريمة والاحاديث الصحيحة، يجعلك تعاف العمارات الفارعة، والحدائق الغناء، والمصانع التي تدر الملايين والتجارة الواسعة العريضة. أنصحك أيها القارىء العزيز بالابتعاد عن حفرة الربا وقد عرفت مآل ومرجع من يفعل ذلك، ولعذاب النار، والخلود فيها أشد وأنكى.

والله سند المتقين، فسيجعل لك من كل ضيق مخرجا، أجعل الآخرة همك واعد عدتك لساعة لا بد قادمة حيث تخرج من الدنيا كما دخلت إلآ كفناً زهيد الثمن إن وجد –

انها أيدي المظلومين ترتعد وترتعش ولاتكاد ترتفع بالدعاء تستنجد بمن يجبر كسر الضعيف المظلوم، حيث أذله وارقه هم ذلك الدين، وما استدان الا لينقذ حياة مريض في أسرته أو جائع يتلوى أو عار يرتعش من البرد، أو موقف يحتار أمامه العاقل الحكيم، وقد أعرض عنه القريب والصديق فاصطادته أذرع ذلك

الأخطبوط الجشع، ذلك المرابي المجرم الخبيث، فهوى يتمرغ في رماد طموحه وسعادته وكيف لا وهذا الدين يتضاعف بطول الايام، ويتجدد عقده، فيحطم النفوس، ويحير العقول، فهو ذل في النهار وأرق في الليل.

وتزيد الشكوى، ويزيد غضب الله على تلك الشريحة الجبارة التي تستغل نكبات وكرب الناس وحاجاتهم لتمتص دمائهم معتبرة صلتها مع مجتمعها هو المنفعة "الدينار والدرهم".

ويزيد التذمر والاستنكار والتخبط، وتتشابك الايدي المرفوعة، وتتكتل الجموع.

والآلة وما فعلته فيهم، حيث ألقت بهم أرضاً، وأخذت تجمع أرزاقهم لتتخم مخازن أصحابها. ثم لا يقدر على إمتلاكها إلا ذلك المرابي والمصارف وشركات الربا وتشتري الضمائر بفائض ذلك المال، وتمتد أذرع ذلك الاخطبوط الجشع، لتتحكم في التشريع والحكم ورجاله وتسوقهم جميعاً لخدمتها، وتحقيق أطماعها ورغباتها التي لا حد لها.

فتنقسم الأمة الواحدة الى جبهتين متعاديتين: المال وأصحابه والحكام وشرطهم في جبهة والعمال والفقراء والمظلومين والمستضعفين في الجبهة المقابلة ويبدأ الصراع وتشتعل الفتن بل والحروب، فيتجبر القوي ويتعسف في حكم الضعيف وإذلاله. ويبلغ ذلك العامل المحتقر كرهه وحقده وحسده من أجل تلك اللقيمات التي لا تكاد تسد رمقه، وتبقيه على قيد الحياة، ولكنه ينظر بشزر يتحين الفرصة، لينقض على ذلك المرابي وحزبه ولو بالتخريب والغش والهدم والفساد.

هذا هو مجتمع الربا الذي اختاره العالم اليوم بدل مجتمع الاسلام وما فيه من تراحم وحب وإيثار أخوة تجمع الغني والفقير في بوتقة واحدة: فلا حسد ولا حقد

ولا كره. الجميع راض باحترام وعطف ومساعدة الاخرين بما فرضه الله من تشريع عادل يرضي الجميع ويحقق لهم السعادة.

وتثور ثائرة أساطين المال والربا من الملأ من قريش والطائف معترضين على حكم الله في الربا فقد وضع حداً لطمع المرابين، ولسطوتهم على رقاب الضعفاء المحتاجين لتسخرهم عمالاً مستعبدين من أجل لقمة العيش.

فقالت هذه الشريحة بحنق وشدة: ".. إنما البيع مثل الربا.."

جاعلة من الربا أساساً والبيع تابعاً، فيقول قائلهم كيف يحل الله البيع، ويحرم معاملة الربا متناسين أن الذي يحرم ويحلل هو الله الحكيم العليم، الذي وضع الميزان، وأمر بالعدل.

فما حرم الربا إلا لخطورته على المجتمعات. فكيف بمجتمع الاسلام النقي السمح الذي يسوده الإخاء والتراحم والإيثار والترابط وصلة الرحم والجار والخلق الرفيع والعطف. أقول: كيف يتفق مجتمع إسلامي مع أكل المال بالربا المحرم؟

ثم إن اعتراضهم على تحريم الربا هو اعتراض على شرع الله. ولا أعرف كيف يكون اعتراض المريض الجاهل المحتاج على دواء وصفه وجربه وعلمه حكيم مختص به – بلا تشبيه.

ثم يصدر الأمر من صاحب الأمر: ﴿...وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ..﴾ فلا اعتراض على حكم الله ولا مجال لتبيان ما في الربا لصاحبه من منفعه رغم أنها لاتساوي شيئاً من ضرره العظيم على الفرد والمجتمع وتحريم الربا هو تحريمه بأقل نسبة وقد ثبت ذلك أثناء التطبيق من قبل رسول الله ﷺ ومن قبل صحابته الكرام – رضي الله عنهم – ومن قبل أمة الاسلام عبر تاريخها الطويل، وما كان ذكر الاضعاف المضاعفة إلا لإظهار عظم هذا الجرم. قال الله سبحانه وتعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠ - ١٣٢].

وهذه الآيات لم تحدد نسباً أيضاً بل يفهم من مصطلح: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ للتشنيع وتعظيم تلك الجريمة النكراء وأنها من العادات المذمومة المحرمة، فليتجنبها المؤمنون وعبر العصور، فمن هنا "كلمة أضعاف" ليست هي قيداً في النهي بل هي ليست نسباً. ثم أردفت بالمطالبة بالتقوى وتطبيق الشرع لمن يطمع للفلاح في الدنيا والاخرة ثم أن هذه الاية لا تنفصل عن الآية التي عطفت عليها: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ فالتحذير للمؤمنين من السير في طريق الكافرين الذين أعدت لهم النار، كما أعدت الجنة للمؤمنين الثابتين القائمين على تطبيق شرع الله، رغم النفس الأمارة بالسوء ورغم تزيين الشيطان لمعاملة الربا.

إن فصل هذه الآية عن سابقتها كفصل آية ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ عن آية ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وطاعة الله والرسول تكون بترك الربا جملة وتفصيلا، وبأي نسبة كانت، ومهما كانت أساليب الإغراء، ومهما كانت الحاجة اليه ملحة. وحتى تكون من الأبرار الذين مدحهم الله لا بد من الصبر والتحمل والسير حسب أمر الله. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

كان أبو حنيفة رحمه الله – يقول: "هي أخوف آية في القرآن حيث توعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه". وماذا بعد هذه الآيات البينات وتلك الشروح من تعد على حكم الله في الربا وتعظيم جرمه. وحتى النار

التي أعدت للكافرين بات آكل الربا المؤمن منها على قرب، فليتق الله، ولتردعه هذه العظات التي لو أنزلت على الجبال الراسية لركتها وأذابتها. ثم يبين سبحانه وتعالى: كيف يجب أن نتأدب ونطيع عندما نستقبل شآبيب رحمته، وعظيم فضله بالشكر والخشوع لا بالامتعاض والاعتراض. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

و "الهاء" كضمير في كلمة جاءه تفيد العموم. كما أن كلمة "موعظة" أيضاً تفيد العموم لأنها نكرة. إذن فالأمر لا يتعلق بالربا فحسب – لكونه سبب النزول – بل الامر عام شامل لجميع احكام الشرع من عبادات ومعاملات ومطعومات ومشروبات، فكل أمر وموعظة يجب العمل بها حالاً وبدون اعتراض أو تسويف.

فكيف وقد نسب رب العالمين هذه الموعظة العظيمة لنفسه سبحانه وتعالى حيث قال: "من ربه" فمن هو ذلك المخلوق الشقي الذي يحاج الله أو يرد أمره وحكمه متعللاً بقوله "إنما البيع مثل الربا؟ أيريد أن يعلم خالق العلم والتدبير، والنفوس والعقول الصالح والطالح؟ فمن أطاع ربه، وتوقف عن تلك المعاملة المذمومة التي حرمها الله، فلا يطالب بما سلف وأمره الى الله: إن شاء غفر له وعفى عنه، وإن شاء عذبه واقتص منه ولكن الويل والدمار والخلود في النار لمن تحدى وعاد باصرار، بعد أن سمع ووعى تلك المواعظ؛ لتلك المعاملة المحرمة فقد كان جزاؤه أعظم جزاء فهو ليس منفياً في النار، ويرحل بعد ثلاث، أو عابر سبيل ثم ينتقل إلى الجنة بل هو صاحب تلك النار يتقلب فيها خالداً مخلداً. هذا حكم الله عليه وعلى من يعترض على أحكام شرع الله، ويصر على الذنب، ويعرض عن العظة، ويسير طريق الضلال، ويتبع نفساً أمارة بالسوء وشيطاناً لعيناً.

ثم تأتي المقارنة بين نتيجة الحالتين: حال الصدقات وحال الربا. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ... ﴾ المحق هو من أعظم أنواع الهلاك، فيذهب مال المرابي أدراج الرياح أو تذهب بركته ثم يعاقب عليه يوم القيامة. وبالمقابل "يربي" أي يزيد ويبارك في مال المتصدق، ويورثه الجنة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[المائدة: ١٠٠].

وفي مسند الإمام أحمد عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: "إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير الى قل".

ثم مقارنة بين صورة ذلك المرابي الذي وعظ فأبي واستكبر واستمر في غيه وفساده وعنادة. حيث "يقول الله فيه: ﴿ ...وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾.

فلا يكفي كفره بل وفوق ذلك حمله للآثام والشرور لفساده وتجبره في أرض الله، وظلمه لعباد الله، فقد تتبع خطى قارون بخيلائه واحتقاره لمجتمعه وقومه ورحمه واقترن بالكفار الآثمين "كفار" أبلغ وأشد وقعاً من كلمة كافر. وكلمة "أثيم" جعلته مستمراً في عناده وكفره. ولم تردعه العظات المتتالية. فقد تبلد حسه، وطمست بصيرته وفي وسط مستنقع التهديد والوعيد والنار والصديد وبعثهم المزري كالمجانين المصروعين. وصورة ربوة جميلة المنظر، فواحة الزهر، عالية المكان، إنها حال من آمنوا وعملوا الصالحات، واستمروا متمسكين بالعروة الوثقى ثابتين مطيعين لامر الله، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، يؤدون الصلاة في وقتها، يقومون على شكر الله خاشعين لمن خشعت له الكواكب والبحار والجبال الراسية، وخضعت جميع المخلوقات طوعاً أو كرهاً لأمره.

ثم أدوا حق الضعفاء والمحتاجين من مالهم واحتقروا تلك الدنيا وزخرفها وزينتها وخافوا يوماً لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

فهؤلاء الذين أدوا لربهم ماعليهم وأطاعوه فيما أمر وانتهوا عما نهى مؤمنين بوجوده تمام الايمان. وقد أبرز سبحانه وتعالى ركن الصلاة وركن الزكاة على غيرهما من الطاعات.

وقد بشرهم سبحانه وتعالى بأجر وآمنهم من خوف وابتلاء هم منه ناجون، وكلمة "خوف" نكرة تفيد العموم فمنذ فراقهم لهذه الدنيا حتى طرق باب الجنان يشملها هذا الامان. ولا يحزنون على ما فاتهم في الدنيا التي تركوها. فهذا هو الأمان الحقيقي، وليس الاحتكار أو الكنز أو وثائق الربا أو ضمانات التأمين في هذا العصر. فهم آمنون مطمئنون بجوار رب رحيم: أطاعوه فأحبهم. صاموا عما حرم الله، فأمنوا غضبه، وتفيؤوا ظلال رحمته. فلا تمر بسمائهم سحب الحزن ولا صواعق الغضب التي تصب عذاباً أليماً على أكلة الربا والسحت، الذين اتبعوا هوى النفس الأمارة بالسوء، ينظرون لربوة النجاة، مسكن الذين أنعم الله عليهم. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٤ - ١٥].

ذلك نداء أهل النار ممن عصى الله ربه، وقدم الفانية على الباقية، وهذا هو جواب أهل الجنة الذين أطاعوا واستجابوا لأمر الله، ونهوا النفس عن الهوى بأهل الجنة، وقد عرفوا ماهم فيه من خير ورحمة، بجوار رب كريم، قال اله سبحانه

وتعالى﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[الأعراف: ٥٠].

فكم في هذه المواقف من عظات، لمن بقيت عنده ولو ذرة من إيمان بهذا الكتاب الكريم الذي يزيل حُجب الغيب عن مواقف ستكون، يشيب من هولها الرضيع.

هذا ينتظر تلك النفس الشقية التي أغراها الشيطان فأكلت الربا وكفرت وعاندت الرب القادر، فسارت طريق الضلال، فهوت في نار وقودها الناس والحجارة وهذه الآية الكريمة – تحمل نداءً وتحذيراً للمؤمنين – قال الله سبحانه وتعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

فإن كنتم مؤمنين حقاً فأطيعوا واتركوا ما بقي لكم على الناس من ربا. ثم يأت الحكم الفصل فيمن اتخذ العناد منهجاً، وسار طريق التحدي، ولم تؤثر فيه العظات، ولا التهديد والوعيد واستمر في غية، يتعامل بالربا قال اله سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ .... ﴾.

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ ﴾ أي لم تتركوا وتذروا العمل بالربا ﴿فَأْذَنُوا۟﴾ فأيقنوا ﴿بِحَرْبٍ﴾. "حرب" نكرة للتفخيم فانتظروا نوعاً من الحرب عظيماً عند اله ورسوله. وقد ذكر أن هذا السياق قد نزل في "بني عمرو بن عمير" من ثقيف، و "بني المغيرة" من بني مخزوم. وكان بينهم ربا في الجاهلية، فلما جاء الاسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذه منهم، فتشاوروا وقالت بنو؛ المغيرة: لا نؤدي الربا في الاسلام فكتب في ذلك "عتاب بن أسيد" والي مكة إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه

الآية، فكتب بها رسول الله ﷺ إليه " الآية " فقالوا نتوب الى الله، ونذر ما بقي من الربا. فتركوه كلهم. ثم تأتي رحمة الله بالعدل حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ . فقد اشترط سبحانه وتعالى التوبة عن هذه المعاملة الظالمة؛ وحكم لصاحب المال بأخذ ماله وبدون ربا، وحط عن الاخر الزيادة الظالمة. ثم يذكرنا رب العزة الرحيم بعبادة بفضل عمل المندوبات وأجرها العظيم حيث يقول " وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وإن تصدقوا خيرلكم إن كنتم تعلمون " هذه سمة مجتمع الخير والفلاح والتعاون والتضامن والحب، فتفريج الكرب، ومساعدة المعسر والصبر عليه والشعور معه: هي حبل النجاة لأخ مسلم من أن يلجأ للربا فيهلك.

عن رسول الله محمد ﷺ قال: "كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه " البخاري.

وعن عبد الله بن سهيل بن حنيفة أن سهلاً حدثه أن رسول الله ﷺ قال: " من أعان مجاهداً في سبيل الله أو غازياً أو غارماً في عسرته أو مكاتباً في رقبة أظله الله في ظلة يوم لاظل إلا ظله " رواه الحاكم في المتدرك وقال صحيح الإسناد.

وسمة إجلّ وأعظم من سابقتها، وكرم لا أظنه ينير إلا مجتمع الاسلام المضيء بالمحسنين من أهله، حيث يذكرنا الله الكريم المتعال، بمندوب وفضل وصفه خير عظيمة المقام، غالية القيمة، إذ قال سبحانه وتعالى ﴿..وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ والخير ما اختاره الله، يهدينا لما فيه مصلحتنا، ويعلمنا التضامن والتراحم وحب الخير، والتمسك بالفضيلة، والله هو الرزاق الحكيم ثم يختم هذا الموضوع بآية كريمة قدورد أنها آخر آية نزلت على رسول الله محمد ﷺ، وذلك قبل وفاته ﷺ ببضع أيام فقط: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

فقد أوصانا الله سبحانه وتعالى بالتقوى، وذكرنا بيوم على الكافرين غير يسير: يقف الجميع حفاة عراة غرلاً أمام الرب الخالق العادل، فيحاسبون على أعمال وأقوال والفاظ سجلت وهم عنها لاهون، توفي كل نفس ما كسبت لا ظلم اليوم ولا رشوة ولا صديق ولا قريب، كل ينهل من معين عدل الله قال رسول الله ﷺ: لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهدية "كما قال الإمام أحمد عن أبي هريره أن رسول ﷺ، قال: "يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا" قيل له: الناس كلهم؟ قال من لم يأكله منهم ناله من غبارة" نعم، ما ينطق ﷺ عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي. بل هي معجزات لاخباره عن تلك المغيبات، فقد استغرب السامع لهذا الحديث حيث قال رسول الله ﷺ. الناس كلهم فأجابه ﷺ "من لم يأكله منهم ناله من غبارة" وهذا الابتلاء ما نحن اليوم فيه، في كل بقاع العالم من لم يأكله منهم ناله من غباره رغم أن هذه اللآيات وما فيها من تحذير وتوجيه وإثبات قاطع أن الربا هو من أعمال الكفار ولا يتناسب مع مجتمع الخير ولا بوجه من الوجوه، ولكن القلوب والنفوس لاهية عن هذا وما تنتظر إلا عذاباً في الدنيا والآخرة. فمن يقف أمام غضب الله وحربه؟ وما تغليظ رسول الله محمد ﷺ على آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه إلا دلالة مخيفة وعذاب واقع لا محالة، ولعنة أبدية لمخالفة أمر الله/ وما مخالفة أوامر الله بالامر البسيط.

قال علي بن ابي طلحة عن ابن عباس: "فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله" فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه كان حقاً على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه. "وقال قتادة: أوعدهم الله بالقتل كما يسمعون وجعلهم بهرجاً "أي دمائهم مهدورة" أين ما أتوا، فإياكم ومخالطة هذه البيوع من الربا، فإن الله قد أوسع الحلال وأطابه، فلا يلجئنكم إلى معصية فاقة" رواه ابن ابي حاتم.

٧ - صاحب الجنتين ومقاييس الهوى والرغبة والتمني

قال الله سبحانه وتعالى ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف: ٣٢ - ٤٤]

يحذرنا الله سبحانه وتعالى كما أنذر الملأمن قريش – على لسان رسوله الكريم محمد ﷺ- من البطر وكفران النعمة، فيضرب لنا الأمثال – لما فيها من وقع قوي في القلوب القاسية والنفوس العاصية – ومن هذه الأمثال على الخيلاء والتكبر واحتقار الناس: المثل لرجلين أحدهما: فتن بأعظم ما يفتن به ابن آدم وأكبر ما ترتاح له نفسه، وتطمح له رغبته وهواه: وهي مزرعة مكتملة الأشجار والزروع، تغذيها مياه دائمة الجريان، فهي خضراء يانعة طوال العام، مكللة بالخير، والنفع

الكثير، فأكلها دائم، وخيرها وفير، وظلها ظليل، فتانة المنظر، عظيمة المظهر، حلـوة الثمر، ريانة الشجر.

كيف بهـا، وهـي في الارض المباركـة، مـن أرض الشـام الفاتنـة، في واد مـن أودية "الرملة" بين القدس الشريف ويافا البهية العطرة. على جدول اسمه "كمـا روى البعض قرطس" دائم الجريان، عذب الميـاه تكلـل حافتيـه خضـرة يانعـة، وأغصـان يافعة، وأزهار فواحة ولكن ورغـم هـذا النعـيم الجـاري، والرفـاه الـدائم، يتبـاهى صاحبها، مترفعاً ومحتقراً ذلك المؤمن الفقير، قائلاً ومعرضاً به وبفقره: ".. أنـا أكثـر منك مالاُ وأعـز نفـرا". ثـم يشـير الى مصـدر الخـير عنـده لتلـك المزرعـة الفاتنـة. فيقول: ".. ما أظن أن تبيد هذه أبداً" هكذا زين له الشيطان، ونفسه الضـالة، وفكـره المحدود وكما نلاحظ مـن تلـك المنـاظر: أن هـذا الضـال المتكـبر يقـيس بمقـاييس الجاهلية، ويحكم الرغبة والهوى، لا العقل والاتـزان، والقيمـة الماديـة هـي الطافيـة عنده علـى السـطح، وهـي المتحكمـة في سـلوكه، ونظرتـه للحيـاة. المـال والبنـون والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة وما يتبعها ويسير في ركبها من رغـد العـيش الدنيوي كالمزارع والرياش والقصور: هي الغاية والمطلب.

وقد طويت ولفت القيم الصحيحة الحقة عند المـؤمن وهـي في قولـه سـبحانه وتعـــالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾ [الكهف: ٤٦].

فالباقيات الصالحات هي مطلب وهدف المؤمن، فيها الخير والنجاة من النـار، والخلود في الجنة، لا بكثرة البنين والمال والجاه تلك الـتي تنسـل وتتركـه وحيـداً في قبره يواجه موقفاً عصيباً أمام حاكم عـادل ماكلفنـا إلا عبادتـه وطاعـةأمره، بإتبـاع شرعه.

وينصحه صاحبه المؤمن: أن يرجع عن كفره وغيه وعصيانه، لانه ماعنـده مـن

خير هو من فضل الله سبحانه وتعالى؛ فليشكره على نعمائه ليزداد. خيراً، وليتـذلل لله الرازق مقدساً ومعظماً، حتى يحظى بدوام النعم.

كما يذكره ذلك المؤمن الناصح الشفوق، بأصله وخلقه، وحاجته لله الخالق: فهو من تراب، ثم من ماء مهين، فطفل ضعيف محتاج الى أن شب وأصبح رجلاً قوياً، وكل هذه الاطوار برعاية الله وكرمه وخيره وحفظه. سبحان الله الخالق الحافظ. وقد سبقت هذه الآيات البينات بمناقشة حادة بين رسول الله محمد ﷺ، وأشراف مكة: حين طلبوا منه عليه الصلاة والسلام – الجلوس والاستماع منه على أن يفردلهم مجلساً خاصاً، أو يوماً خاصاً بهم لا يحضره ذلك النفر من الفقراء والعبيد والعامة من الناس الذين كانوا يتحلقون حوله: يسمعون آيات الله، ويبادرون العمل بأمره سبحانه وتعالى فكان طلب هؤلاء الملأ من قريش: هو افتخار بأموالهم وأحسابهم وصلف وتكبر واحتقار لعامة الناس ولكن الله المطلع على السرائر، يخبر رسوله الكريم بعدم الطمع في اسلام هؤلاء المتكبرين، وأن الناس أمام دعوة الله سواسية، وهذه هي سنة التبليغ. يقول سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله الكريم ﷺ: ﴿...وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ...﴾ وفي هذه الآية الكريمة أمر للدعاية بعدم التمييز بين الناس، ولا يعلم إلا الله من هو المستجيب لهذا الهدي ومن الشقي المعرض عنه وما على الرسول الا البلاغ. لا تهدي من أحببت أن الله يهدي من يشاء قال الله سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله الكريم ﷺ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[الكهف: ٢٨].

قيل الذي أغفل الله قلبه في هذه الآية هو: "عُيينة بن حصـن" حيـث طلـب مـع أشراف مكة، ماطلبوه من تخصيص يوم ومجلس لهـم مـع الرسـول الكـريم – عليـه

الصلاة والسلام – وذلك تكبراً وتعظماً منهم " أمره فرطا" أي هلاكاً ودماراً.

ثم ذكر الله القاعدة الثابتة المعادلة الشاملة للداعية قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

فلم يبق تمييز في مجلس العلم، ولا يعلم الا الله سبحانه وتعالى من يستجيب ومن يعرض من يريد وجه الله ومن يتبع هواه. قال الله سبحانه وتعالى: مخاطباً رسوله محمد ﷺ "واضرب لهم مثلاً رجلين...." كان لأحدهما جنتان على حافتي نهر، وقد وصفت هذه الآيات هاتين الجنتين وصفاً دقيقاً، تنقلك لمشهد رائع لمزرعة. كثيرة الثمار: أعنابها ونخيلها وحبوبها، وقد أثمرت وزهت وحان قطافها، يغذيها ذلك النهر الجاري فهي دائمة الخضرة والثمر، وأمام تلك الجنة الفاتنة حدثت مناظرة بين صاحبها المتكبر المغتر بدنياه وماله ومزرعته تلك وبين فقير جعل هذه الدنيا سحابة صيف، والعاقبة لمن اتقى. ويبدأ الحوار: فيقول ذلك الغني المتكبر لذلك الفقير المؤمن: ".. أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرا " ويأخذ بيد هذا الفقير ليريه خيرات تلك الجنة، وماتحويه من عجائب الثمار، وطيب الفاكهة، وخصب الزروع. قال الله سبحانه وتعالى: يصف دخوله جنته تلك – " ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً " ثم يتمادى في غيه وغروره فينطق عبارات الكفر بدل الشكر. وكلمة " أبداً" في هذه الآية الكريمة، تدل على مقدار ما أوهمه الشيطان ونفسه الخبيثة من تعظم وتكبر وصلف ".. ظالم لنفسه..." في هذه الآية الكريمة: تدل على كفره وعناده وإنكاره ليوم الحساب، ونتيجته.

قال الله سبحانه وتعالى – مبياً كفره بقيام الساعة – " وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لاجدن خيراً منها منقلباً " ثم يقول هذا المتكبر: اني لومت

وهلكت، وفرض انني بعثت بعد المـوت، فانتظـاري الخـير الـوفير فمـن رزق خـير الدنيا، فله خير الآخرة.

وهذه بعض الآيات التي تكرر نفس الجواب عند هذه الشريحة الضالة المتكبرة: قال اله سبحانه وتعالى: وعلى لسـان أحـدهم:﴿...وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٦].

وفي آية أخرى يقول سبحانه وتعالى – على لسان آخر:﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾[فصلت: ٥٠].

كما ينطبق عليه ماقيل في "العاص بن وائل" كما ذكرت الروايات ذلك – قـال الله سـبحانه وتعـالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ [مريم: ٧٧ – ٧٨].

قال الله سبخانه وتعالى – يصف تلك المحاورة بين المطيع لأمر الله وذلـك العاصـي: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٣٨]

والاستفهام في الآية هو للأنكار والتنبيه، لعظم جرمه، ثـم يـذكره بفضـل الله عليه: إذ خلقه من تراب ثم طوره وبدون علم منه ولا قوة ولا إختيار حتى أصـبح رجلاً قوياً سوياً. ثم يقارن نفسه به قـائلاً: أنـا لا أنكـر خـالقي وربـي، وصـاحب الفضل علي بل أعبده ولا أشرك به شيئاً. فقد أستعمل هذا المؤمن الواعظ أسلوب الاستنكار والوعيد تارة، والدليل والحجة الدامغة تارة أخرى. ثم يبين له ماذا كـان عليه أن يفعل وقد أكرمه ربه بهذا الخير الجزيل، كان عليه ان يقـول – شـاكرا نعـم الله عليه -: ماشاء الله لاقوة إلا بالله، فما من نعمة علينا إلا من فضل الله "لا حول

ولا قوة الا بالله" هي كنز من كنوز الجنة.

فلولا معونة الله وتوفيقه لنا ما أطعناه، فهو الهادي سواء السبيل: كما أنه الرازق الرحيم.

ثم يتابع هذا المؤمن الفقير قوله: إنه ورغم حاجته وفقره يتمسك بدينه، ويرضى بحظه، وما قسمه الله له في دنياه، يتأمل الخير الجزيل والنعمة الكبيرة في أخراه. قال الله سبحانه وتعالى- على لسان ذلك الواعظ الفقير -: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾ [الكهف: ٤١].

وأما مزرعتك هذه والتي تفاخر بها وتظنها سبب قوتك وكفرك والتي دعتك لاحتقار البشر فالله قادر على أن يرسل عليها سيلاً عارماً أو صاعقة شديدة لا تبقي منها شيئاً ولا تذر أو يغور ماؤها الذي هو سبب طراوتها وجمالها وينعها وخضرتها فاستجاب له ربه فحترقت تلك الجنة من وقتها وأصبحت أثراً بعد عين.

وعبر ذلك الغني عن ندمه وأسفه بضرب كفيه أحدهما بالآخر – كما هي العادة – فلا مال ولا جنة ولا حام من الله وغضبه.

هذه الساعة التي مرت به سيمر كل منابها، يوماً، حيث ملك الموت جالساً ليأخذ تلك الأمانة والكل مشغول: هذا يحفر القبر، وذاك يحضر الأكفان، وثالث يقول: كرامة الميت دفنه، ورابع يقول: ماله وماعليه. ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٩ - ٣٠].

فأين المال؟ وأين الخزائن المترعة به؟ وأين القصور والرياش؟ وأين الحدائق والمزارع؟ وأين التجارة والصناعة؟ تسأل عنها وتتركها. ولمن؟ لقد أشغلوا القضاة والمحاكم والقريب والبعيد، ثم دور الفجور والخمور والميسر، فاتعظ أيها الغافل

وتذكر ساعة الحساب ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾ [الكهف: ٤٤].

ثم تذكر قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

فيجيبهم أصحاب الجنة ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

الله أكبر!! الله أكبر!!! أين من يتذكر هذا الموقف المرعب المخيف؟ فيا من أمطرتم بالخير العميم، والمال الوفير: تذكروا حق الله فيه، تذكروا ركن الزكاة، تذكروا حكم الاسلام في الكنز، وصفائح الذهب والفضة، وهي محماه تكوى به الجلود، مصدر الاحساس في الجسم.

وتختم هذه العظة القيمة، بمثل آخر يشهده كلنا سنوياً، وهو خضرة الأرض ثم الاصفرار فالهشيم تذوره الرياح، وكأنها لم تغن بالامس. وفي حياة كل منا: القوي والضعيف، الغني والفقير، فلا فرق بين سنبلة تطاولت الى عنان السماء وأخرى ضعيفة تزحف على الأرض كلاهما غدت هشيماً.

فالجميع منا ومهما طالت به الأيام، ومرت به السنون فالفراق والموت – لا شك حاصل – والبعث والحساب – لا شك حاصل – قال الله سبحانه وتعالى – يصف الحياة الدنيا: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥] كما قال الله سبحانه وتعالى أيضاً – في وصف هذه الحياة: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ

وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾[الحديد: ٢٠].

وتبقى الباقيات الصالحات: زادك في القبر أيها المسلم أين من يحرص عليها، ويترك الحرص على الفاني الزائل.

٨ - أصحاب الجنة وحق المساكين فيها

قال الله سبحانه وتعالى - محذراً الملأ من قريش والظالمين عامة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ١٧ - ٣٣].

وبعد أن عرض رب العلمين سبحانه وتعالى صوراً لاشخاص من المشركين بمكة المكرمة كانوا يقفون حجرة عثرة أمام دعوة الاسلام، ووصفهم بصفات بما يستحقون من الوصف الذي يندي له الجبين، انتقل سبحانه وتعالى الى دور التهديد والوعيد مذكراً أهل مكة خاصة والبشرية عامة في كل زمان ومكان بقدرته على الانتقام والحرمان لكل من يظلم أو يغمط حق غيره: مستقوياً بماله، مفتخراً بنسبه، وقومه، فيأكل حق الضعفاء والمساكين لضعفهم وفقرهم.

يذكر سبحانه وتعالى أهل مكة المكرمة بقصة وعظة كانت معروفة لديهم وأبطالها من اليمن – كما ذكرت بعض الروايات – قرب صنعاء حيث كانت لهم مزرعة خصبة. وقد أعتاد أبوهم إعطاء حق الله للمساكين يوم جنية، ولا يبخس منه شيئاً. وعندما توفي إتفق أبناؤه على حرمان هؤلاء المساكين من حقهم. ويصف رب العزة في هذه الآيات الكريمة، بكل إعجاز وبلاغة، حال هؤلاء الورثة المتنكرين لحق المساكين، وكيف ساروا كالصوص لجني، ثمار ذلك البستان وفي هجعة الليل

وظلامه، والناس نيام، ولكنهم يفاجأون بأمر لم يكن بالحسبان، فقد صعقت تلك المزرعة ليلاً، بأمر الله الجبار. فنظروا إليها وقد كسيت بحلة سوداء، فلم يصدقوا نظرهم، وظنوا أنهم قد ضلوا الطريق، وقد ذهلوا أمام جنة كانت بالامس: ريانة خضراء، يانعة الثمار قد حان قطافها، فيرونها، وقد حُرقت، يلفها السواد القاتم، لا ثمر ولا ورق. ثم تأتي الصحوة أو ساعة الندم والتوبة، والرجوع للقادر المنتقم الجبار. يصفهم رب العالمين بأدق وصف: فقد صحوا من غفلتهم وذهولهم.

وبعد أن تأكدوا أنها مزرعتهم، وقد حُرقت وحرموا خيرها لذنب عزموا عليه، وساروا في تنفيذه، وجريمة نكراء قاموا بها، ومخالفة لأمر الله الذي جعل نصيباً مفروضاً حقاً للفقراء والمساكين في مال جمعه الأغنياء من مال لله وبمعونته وبفضله.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤ – ٢٥].

- فيا أثرياء المسلمين، ماسُطرت هذه الآيات في كتاب الله عظة لعصر أو قوم أو بلد خاصة بل هي عظة لنا مادمنا نتلو كتاب الله وهو شاهد علينا في كل مكان وزمان.
- فأدوا حق الله في أموالكم، وما فرضه الله عليكم، ثم تذكروا عقوبة من هدم ركناً من أركان الاسلام، ولنتذكر جميعاً: ماذا فعل أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – خليفة رسول الله ﷺ في الحكم: على ما نعي الزكاة؛ وكيف كانت رؤوس المرتدين تتطاير مثل ورق الخريف. حتى أستقامت قناتهم، وإنصاعوا لأمر الله ثم تذكروا يوماً لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. ثم تذكروا الموت ذلك 'التدمير الشامل للدنيا الفانية فراق المال والأهل، ذلك القطع الأكيد لحبل الدنيا ونعيمها تذكروا

الأهل والقوم والصحب وقد رجعوا ليقتسموا تلك الثروة وذلك المال وقد تركوكم منفردين أمام ساعة حساب وشدة ورعب وخوف؛ رجعوا مسرعين يقتسمون ماجمعتم لهم ليتنعموا فيه، وأنتم تُسألون عن كل ذرة منه كيف جمعت؟ وأين صرفت؟ قال الله سبحانه وتعالى:﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقد وعظكم رب العزة وأنذركم وبين ووضح لكم وضرب لكم الأمثال في هذا الكتاب العزيز الكريم ذلك الذي تؤمنون بكل مافيه وتعلمون أنه نذير وبشير وأنكم ستسألون عن حقوق من لهم عليكم حقوق وفي طليعتهم الزكاة: وهي فرض عليكم بل وفصلت وطبقت أحكامها على أمة الإسلام القرون الطويلة؛ فورثتموها بيضاء ناصعة، لا مجال للتردد أو الشك في أدائها ومقدارها ووجوبها من، منا يجهل الثمانية أصناف وحقهم في أموالكم؟ هل أديتم لهم حقهم؟ كيف بكم وهم خصمكم يوم القيامة أمام حاكم عادل هو الله الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب وفرض الفرائض، وحد الحدود؟ وهؤلاء الورثة الذين اقتسموا تلك الثروة بعدرحيلكم سيفرون منكم، وكما وصفهم رب العالمين قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٣ - ٣٧] ولنتذكر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [المنافقون: ١٠].

- نعم أنت المخاطب أيها المسلم القارىء لهذه الآية المباركة الكريمة العظيمة،

لا تلتفت يمنة ولا يسرة تبحث عن غيرك؛ لتقول له أنت المخاطب بها، ظناً أنك لست صاحبها، وأنك في منجاة من السؤال والحساب.

- ارجع لنفسك، ألست القائل: أشهد أن لا الله الا الله وأن محمداً رسول الله. بها دخلت حصن الاسلام، فلا تتهرب، وتلجأ الى التفسيرات والعلل الواهنة الكاذبة، كما تهرب أصحاب هذه الجنة، فتقع فيما وقعوا فيه وتندم كما ندموا ألا من مجيب!!! ألا من متعظ!!!. ونستعرض هذه الآيات الكريمة، لعل فينا من يتذكر فيتعظ؛ لكونها تخاطب القلوب قبل الآذان فيهتز جسم المؤمن، وينتفض خوفاً عندما يرى الحقيقة وقد مثلت أمامه، وكأنها رأى العين، فتنهمر الدموع قبل ساعة الذهول، والندامة والحسرة، ولات ساعة مندم. قال الله سبحانه وتعالى – يذكرنا بقصة هؤلاء الابناء العصاة الذين تمردوا على سلوك أبيهم التقيّ وساروا طريق الضلال – ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ...﴾ وضمير الغائب في كلمة ﴿بَلَوْنَٰهُمْ﴾ تفيد العموم فهي لا تعني المشركين من قريش أو من نزلت فيهم فحسب بل هي عامة لكل من ينطبق عليه حرمان شريحة المساكين من حقها، وما فرض الله لها من مال الأغنياء في كل زمان ومكان وسنحاسب كما يحاسب من نزلت فيهم، وسنسأل كما يسألون، ونحرم كما حرموا، ونرزق كما رزقوا فكما أننا نتلوا هذه الآيات متعبدين بكل حرف منها كذلك، فإننا مطالبون بتطبيقها، وبكل دقة كما طبقها المسلمين عبر العصور في أقطار المعمورة.

ثم تعرض قصة هؤلاء الورثة الذين ورثوا تلك المزرعة وحق العباد فيها. فأقروا حقهم وتمسكوا فيه واستغلوه وأهملوا حق المساكين بل وأكلوه ظلماً وعدواناً. الله سبحانه وتعالى: – يصف سلوكهم هذا: ﴿...إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ فهذا القسم والتأكيد والتشديد على حرمان المساكين من حقهم،

بقطف الثمار بسرعة وخفية وتصميم حتى أنهم لم يقولوا " إن شاء الله " ولا يستثنون حق الفقراء من القطف، فقد عدّوا أمر الحرمان مفروغاً منه ولا مناقشة فيه ولا مراجعة. ولكن الله الفعال لما يريد، المطلع على السرائر والنفوس عجل لهم العقوبة، فأهلك تلك الجنة، وقبل وصولهم ليلاً، وهم يتسللون كالصوص، ويتحدثون بصوت خافت يوقظ بعضهم بعضاً من النوم ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ...﴾ ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ فقد أظهر سبحانه وتعالى حقيقة نواياهم، فقد فكروا أنهم قادرون ومصممون عن قصد على حرمان الفقراء فماذا كانت النتيجة؟ وما نوع العقوبة تلك؟ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ وذلك لسوء نيتهم وكفرانهم النعمة، وتجاهل شريكهم في خير هذا البستان. عجل لهم ربهم بالعقوبة – فهم عبرة لمعتبر – حرقت تلك المزرعة ليلاً قبل وصولهم لها، وكان تدميرها عاماً شاملاً، فقد أصبحت كالهشيم تذروه الرياح، بل كالرماد ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ مما جعلهم – ومن تغير خضرتها بالسواد – يشكون فيها؛ وأنها ليست هي بل لعلهم ضلوا الطريق إليها. قال الله سبحانه وتعالى ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾.

وبعد أن صحوا من هول الصدمة، وتأكدوا من بستانهم هذا وأنهم لم يضلوا أجابوا بأسف وندم بقولهم ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

وتبدأ الصحوة بعد تلك المفاجأة والذهول. وتبدأ معارك اللوم والعتاب والسبب والمسبب قال الله سبحانه وتعالى ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠].

ثم ينبري أحد لهم وأكثرهم تقوى قائلاً ﴿...أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ لولا أن تعترفوا بظلمكم فتندموا وترجعوا لربكم ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ثم يتلفظوا

بالويل والثبور، وألفاظ الأسف والندم ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ وصلنا من الاعتداء حد الطغاة – وهو أعلى أنواع الظلم والتجبر – وتبدأ عبارات الرجوع للتوبة والاستسلام لامر الله والخضوع لحكمه ومشيئته بقولهم ﴿ ...إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ فهذا هو الرجوع للخط المستقيم، والله يقبل توبة عبده التائب.

وتبقى صورة تلك الجنة التي احترقت عالقة في أذهانهم، يطمعون في رجوعها بعد أن خوت على عروشها: ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ ... ﴾ هذا صنف من أصناف عذاب الدنيا أيها المشركون من قريش. فكيف لوا طلعتم على عذاب الآخرة فهو أشد وأنكى. وما تكبركم وصلفكم هذا إن استمر إلا وتكون نتيجته أعظم وأشد من ألم أصحاب هذه الجنة التي ذُكرت لكم لتتعظوا بها فتكون نموذجاً على انتقام الجبار العزيز القادر عندما يصل الأمر درجة السخط وكان ذلك في معركة بدر، وقد سُحب سبعون من ملأ قريش الذين امتهنوا إحتقار المساكين وتعذيبهم وإذلالهم، حتى انتقم منهم رب العالمين أيما انتقام. حيث لم يسمعوا لنصح ولا لعظة وقد توالت عليهم النذر، لو كانوا يدركون ويتعظون. قال الله سبحانه وتعالى – متوعداً ومنذراً: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [القلم: ٣٣].

٩ - رجل من القرينين عظيم

العظمة هي عظمة النفس والروح وليست عظمة المال والجاه قال الله سبحانه

وتعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزُّخرُف: ٣١ - ٣٥].

إن رابطة الوطن والنسب والمصلحة تتمتخ أمام رابطة العقيدة وحب الله ورسوله والمؤمنين. العروة الوثقى وهي الرابطة الدائمة القوية الثابتة التي أمرنا الله بها هي رابطة التقوى، يجعل رضا الله هو مصدر السعادة، ودار الآخرة هي الحياة الحقيقية.

فها هو أبو الأنبياء إبراهيم – عليه السلام – يتبرأ من دين قومه، ومن عبادة أصنامهم، وتشريعهم الضال؛ فيتحداهم في عقر دارهم، فيسفه أحلامهم، ولا يأخذ إلا بالدين الصحيح، الموافق للفطرة، والعقل السليم فيتمسك بالعروة الوثقى، والعقيدة الواضحة: توحيد الله الواحد الأحد، خالق الكون وما فيه. القاضي العادل يوم الحساب العظيم، يوم يقف كل منا أمامه فرداً.

لم تتحكم في نبي الله إبراهيم – عليه السلام – النفس البشرية ولا الهوى والرغبة، ولم تسيره العاطفة الجامحة وحب الأب والأهل المشركين الضالين. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ

﴿ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

فقد أظهروا دينهم ومعتقدهم بكل صراحة وتحد للكفر وأهله رغم أنهم قومهم وعشيرتهم؛ ولكنهم جعلوا حب الله فوق كل حب، ورابطة العقيدة فوق كل الروابط وإذا تفرقت السبل فسبيل الله واحد، وهو الحق وما سواه باطل قال الله سبحانه وتعالى:- يصف موقف إبراهيم – ﷺ – مع قومه وعصبته ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴾ [الزُّخرُف: ٢٦ - ٢٧].

فهو يتمسك بعبادة الله الحق، فاطر السماوات والأرض الواحد الاحد الفرد الصمد. ثم وردثت تلك العقيدة الصحيحة الحق ذريته: لامعبود بحق إلا الله، يتوارث هذه العقيدة المؤمنون من ذريته – ﷺ– وتتمسك بها أمة الاسلام: تسير على الحق لا يهمها من يخذلها، ولا من يعاديها إلى أن تقوم الساعة. فلا تضل ولا تشقى. هي المنار الذي يهدي به الخلق في كل زمان ومكان. لاتنحني رقابهم إلا لله، هم أهل التضحية والجهاد والفداء، حماة الثغور، رهبان الليل، فرسان النهار.

أو قفوا أنفسهم وأموالهم لنشر هذا الدين، والدفاع عنه.

قال الله سبحانه وتعالى ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٨]. يرفع هؤلاء المؤمنون راية التوحيد عالية شامخة بسواعد فولاية، عرفت عبر التاريخ الإسلامي الطويل؛ فهابتهم أمم الكفر، وعرفت مصير المعتدي عليهم قال الله سبحانه وتعالى – يذكر ما أورثه سيدنا ابراهيم – ﷺ – لذريته من بعده – هي كلمة التوحيد يرجع لها من هدى الله إلى أن تقوم الساعة ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الزُّخرُف: ٢٨].

والكلمة الباقية هذه هي "لا إلله الا الله" يتمسك بها بعض ذريته، والرجوع يكون بالطاعة والتوبة هذا هو ابراهيم – ﷺ – الذي تعتز العرب به والذي نسبه عندهم أشرف نسب قد كان موحداً قال الله سبحانه وتعالى – يصف فترة الاسترخاء التي سبقت رسالة الإسلام: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزُّخرُف: ٢٩ - ٣٠].

الحق الذي جاءهم هو دين الإسلام. والرسول المبين هو محمد ﷺ. ولكن شياطين الإنس والجن الضالين المضلين قاموا بفتنة أهل الأرض مستغلين تلك الفترة فقلبوا الحقائق وزينوا لأهل الارض عبادة الأصنام حيث كان دين إبراهيم – ﷺ – الدين الحنيف قد طوته الايام، ونسيه العرب، واستعمل أهل الكتاب علمهم للكيد بالعرب، فما انتفع العرب من رسالات أنبياء بني اسرائيل في بلاد الشام.

ويطلق على تلك الفترة الجاهلية – التي ذمها الله بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

وتتميز هذه الفترة بتحكيم الهوى والنفس الأمارة بالسوء ويؤزهم الشيطان للشر أزاً، يلهثون وراء سراب الدنيا من مال وولد ونسب وفخر وكبرياء وينسون الموت وما بعده، كما نسوا أيام الله، وأخبار عاد وثمود وفرعون وقوم لوط وتفتح كوى النور، وينزل القرآن على رسول من العرب: معروف النسب والخلق، ومن جوار بيت الله الحرام، مهوى الأفئدة، ومركز الوحدة لهم، وبؤرة القدسية عندهم، والذؤابة في شرف الانتساب لإسماعيل بن ابراهيم – عليهما السلام – ويكفيه فخراً أنه المختار لحمل رسالة التوحيد وتبليغها لأبناء آدم – ﷺ – عامة، لجميع أهل الأرض عربهم وعجمهم ولكن الكفر ظلم، فمن وجه الشكر والتقديس، لغير خالقه لا يهمه أن يتصدى ويطعن في نبوة محمد ﷺ وفي كتاب الله الكريم، فكان طعن كفار مكة المكرمة في كتاب الله فقالوا إنه سحر وأنهم به كافرون فقدموا حكم

الهوى على حكم الله.

وأما رسول الله محمد ﷺ العربي القرشي الهاشمي. ومع أنه في الذؤابة من نسبهم، معروف السلوك والخلق كما أنه معروف النسب والحكمة والأمانة وحب الخير. إلا أنه الشيطان أطغاهم وزين لهم الطعن فيه فوافق ذلك هواهم ونظرتهم للقيادة والزعامة، وأن المادة والمال الوفير والعصبة القوية هي طريق العلياء والسلطان.

فقالوا: لو نزل هذا الكتاب على رجل كالوليد بن المغيرة بمكة أو عروة بن مسعود الثقفي بالطائف. قال الله سبحانه وتعالى – يرد عليهم، ويخبرنا خبرهم: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزُّخرُف: ٣١ - ٣٢] .

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ ﴾ استفهام استنكاري رداً على تصورهم الخاطيء وقياسهم الظالم، فالعظيم هو عظيم العقل والحكمة والخلق الرفيع، وليس هو صاحب الثراء والعصبة الكثيرة. ثم يبين سبحانه وتعالى أن التفاوت في الأرزاق والمال هو أقل شأنا وقيمة من الرسالة والنبوة ومع هذا جعله متفاوتاً بين خلقه، فكيف باختيار رسول أمين ليوصل كلام الله لعباد الله.﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ وهذا تعريض واستنكار لمقياسهم الظالم الجاهل الجائر. فنعمة اختيار محمد رسول من الله خير وأفضل وأعظم قيمة وأهمية عبر التاريخ والعصور من جمع المال والثراء. وقد أعطاه ربه الخير الكثير ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ الكوثر ثم يبين الله سبحانه وتعالى أن هذا التفاوت والتقسيم للأرزاق: هو من أجل تكامل المجتمع وتنظيمه. كل مسخر لعمل ودور في هذه الحياة الدنيا وقد لا يكون ذلك بالذكاء

والنشاط بل بما قسمه الله بين عبادة قال الله سبحانه وتعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ ومع هذا لا يجوز التواكل بل كل ميسر لعمله: قال الإمام الشافعي يصف هذا الموقف: "ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق".

وهو كما قسم أرزاقهم وسخر بعضهم لخدمة بعض خص بفضله ورحمته من يشاء فاختار من يريد لتبليغ رسالته، وهو المطلع على القلوب والنفوس والعالم بأهل الخير والعفاف والقوة والبأس والصبر قال الله سبحانه وتعالى: يبين سبب تفاوت الأرزاق – ﴿...وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥]. وكما جعل لنا الحياة الدنيا من صنعه وتدبيره جعل الآخرة حسب أعمالنا وطاعاتنا وتقوانا. والتقوى هي الميزان العادل والوسيلة للوصول الى طاعة الله والفوز بجنته.

قال سبحانه وتعالى: ﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ كما بين سبحانه وتعالى أنه لولا فتنة المؤمن لجعل الدنيا بخيرها ونعمائها وزخرفها حكراً على من يكفر بالله وذلك لحقارتها مقارنة بجنات ونعيم الآخرة قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزُّخرُف: ٣٣ - ٣٥].

ولولا ظن الجهلة من الناس أن إعطاء الله الرزق والمال والجاه دليل حب الله للكفار، وليس هو فتنة لهم واختباراً قاسياً لعقولهم. قال رسول الله ﷺ: "لو كانت

الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً" رواه الترميذي.

فمساواة الكفار بالمسلمين في الحياة الدنيا وخيرها هو من باب الرأفة بالعباد، وخوف الفتنة ووسوسة الشيطان الرجيم، وتعطيل المصالح الدنيوية قال الله سبحانه وتعالى – مبيناً وبكل تفصيل وبكل دقة أنواع الزخرف، وأسباب الرفاه: ﴿... لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزُّخرُف: ٣٣ - ٣٥].

فالسقف والأدراج والأبواب والسرر تكون من ذهب وفضة وزخرفة الجدران كل هذا ما هو إلا "متاع الحياة الدنيا" ولا مقارنة مع نصيب المتقين في الآخرة. وكيف يقارن الفاني بالدائم، والقليل بالكثير. قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – لرسول الله محمد ﷺ، حين صعد إليه في تلك المشربة – لما آلى ﷺ من نسائه – فرآه على حصير قد أثر في جنبه الشريفة، فابتدرت عيناه بالبكاء. وقال: يارسول الله هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال: "أو في شك أنت يا ابن الخطاب" ثم قال ﷺ "أولئك عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا" روي في الصحيحين. إن اختلاف المقاييس عند الكافر والمسلم، واختلاف وجهة النظر للحياة عندهما يجعل المهم والعظيم عند الكافر هو الحقير والزهيد عند المؤمن الصادق. وهذه الخيرات في هذه الدنيا ما هي إلا متاع مسافر وزينة فانية. ولو سئل أغنى وأعز من عاشها حين احتضاره وهو يودع مفارقاً ما جمع فأوعى. كيف أنت؟ لقال ليتني لم أخلق أو كما قال الخليفة عبد الملك بن مروان حين احتضاره: "ياليتني كنت غسالاً أكسب ما أعيش به يوماً بيوم ولم آل الخلافة". قال الله سبحانه وتعالى:- يصف الدنيا والآخرة – ﴿.. وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزُّخرُف: ٣٥].

كما قال سبحانه وتعالى – يصف حال المجرمين المتكبرين المتعالين الذين يريدون أن يفرضوا رأيهم على خالقهم في اختيار الرسل فحكم عليهم سبحانه وتعالى بالصغار لمكرهم وتطاولهم– ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٣ – ١٢٤].

١٠ – شريحة المنافقين والتحذير منهم

قال الله سبحانه وتعالى – محذراً ومبيناً تاريخ المنافقين مع الفئة المسلمة ثم مع الدولة الإسلامية: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٤٨].

لقد أعجزت الحروب المتتالية – خلال قرن من الزمن – قبيلتي الأوس والخزرج اليمانيتين على حكم العرب في يثرب، فتعطلت مصانع السيوف والخناجر وعدة الحرب عند يهود يثرب وخيبر، تلك المصانع العظيمة التي كانت تمد شمال الجزيرة والحجاز بعدة القتال.

فاخذ اليهود – كما هي عادتهم – بتحريك الفتن بين تلك القبيلتين المتنافستين على سيادة يثرب، فتحركت كلاهما تطلب الأحلاف والجيرة من قبائل العرب القريبة المجاورة. ويصل بعضهم مكة المكرمة العاصمة الدينية للعرب ويترافق ذلك في تلك الفترة من حياة الدعوة الإسلامية ورسول الله محمد ﷺ يفتش عن نصرة ليحمي الفئة المسلمة، وليبلغ دعوة الإسلام للناس بأمان وحرية، فيهدي الله تلك الفئة من الأوس والخزرج لفكرة فيها الصلاح والفلاح والأمن لعرب يثرب الذين أنهكتهم الحروب والفتن منذ عقود طويلة، فعرضوا على رسول الله ﷺ فكرتهم بالانتقال لمدينتهم ليصلحها الله به. وبعون الله الهادي القدير تنجح الفكرة ويسلم بعض القوم. ثم تكون بيعة العقبة الثانية، ويهاجر ﷺ، تصحبه الفئة المسلمة التي رأت في تلك المدينة وأهلها النصرة المطلوبة، فكان تدبير الله ومشيئته أن تقوم نواة الدولة الاسلامية على أكتاف المهاجرين والأنصار في تلك المدينة التي أراد لها الله العزة وعلوا المكانة وكان الذهول والحيرة ثم الكيد والحسد ثم الفتن والإيقاع بين جماعة المسلمين؛ لينفضوا عن رسول الله محمد ﷺ الذي أصبح ليس نبياً فحسب بل رئيس دولة تطبق شرع الله في الأرض، وله جيش تهابه الجيوش. أقول توحدت جبهة اليهود مع المنافقين مع طلاب الزعامة والحكم القبلي العفن. للإطاحة بدولة

الإسلام الفتية ما كان ظن يهود المدينة وحلفائهم من المنافقين بهذه الفئة قليلة العدد والعدة وفي تلك الفترة القصيرة أن يتكون منها دولة؛ ثم تحطم تلك الدولة بجيشها القليل وعدتها الضعيفة أصنام العرب ومعتقداتهم البالية وتوحدهم، وتدمر سحائب التفرقة والشر والكيد عنهم، بل ويتكون من شتات هؤلاء العرب أعظم دولة حكمت في التاريخ البشري. نعم، إن المجرم المعتدي هو أكثر حذراً من غيره، وأكثر تفكيراً وتقليباً للأمور، فاللص لاينام قرير العين خوفاً من الثأر والانتقام منه، فكان لذلك أول من انتبه لخطر دولة الإسلام، وتجمع العرب تحت ظلها، ونتائج تطبيق حكم الله في الأرض ونشر الدين الحنيف في المعمورة، هم اليهود. فما ان انتصرت تلك الدولة الفتية بقلة عددها وعدتها على الفئة القوية الكثيرة من كفار قريش في معركة بدر المشهورة حتى بدأت التكتلات والفتن والكيد لأمة الاسلام والدولة الاسلامية.

وبدأ التسارع وعمل الأحلاف بين يهود المدينة ومنافقيها من جهة وبين مشركي العرب وحكام بلاد الشام من عرب وروم من جهة أخرى وبطرد بعض يهود الجزيرة والمدينة خاصة، ويقتل بعضهم لخيانتهم العهود، ثم تفتح خيبر المعقل الثاني لهم، وتقلع شأفتهم من الجزيرة بعد صراع وفتن بل وقتال قد أشغل المسلين فترة من الوقت. ثم تقلع شجرة الشرك من جذورها بفتح العاصمة الدينية للعرب، مكة المكرمة – ثم يعز الله دينه فتأتي وفود العرب من أنحاء الجزيرة تتعارك أقدامهم على أبواب عاصمة الدولة مدينة رسول الله المنورة، للدخول في الاسلام – زرافات ووحدانا – ذلك الدين الحنيف الذي احتضنته العرب وجعلته خيط المسبحة الذي يربطهم ويصلحهم ويعزهم. قال الله سبحانه وتعالى – يصف هذا النصر –﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[النصر: ١ - ٣].

ولكن فئة الحسد والكيد والفساد وشريحة ضالة مضلة يقودها الشيطان، ويسيطر عليها بخيله ورجله يؤزهم الى الشر أزاً، تلك الفئة التي اعتادت العيش في الظلام، كحياة اللصوص والمارقين الفاسقين؛ تمتص دم وعرق المستضعفين والعبيد والمساكين.

حكموا العامة باسم القبيلة والعشيرة والولاء والجيرة، فأرقهم عدل الاسلام وأفكار المساواة التي يدعولها، ففتح أبواب ذلك السجن الكبير على مصاريعها، ذلك السجن الذي كانت تحيط به وتحرسه أسواط وشرط الحكام المتعسفين من ذلك السجن الكبير الظالم – سجن أحكمت نظامه عادات جاهلية ظالمة مجرمة – فخرج الناس منه مهللين مكبرين، حيث استردوا حريتهم وحقوقهم كبشر، فرأوا الدنيا مضيئة مستنيرة السبل وفتحت لهم كوى الهداية والنور، واستبشروا بجنة عرضها السماوات والارض، وساروا طريق الفلاح والخير، يأتمون برسول آخر الزمان، خاتم الرسل ﷺ، ويرتشفون تعاليم الرب من مصدره الصافي، يحتضنون كتاب الله الهادي سواء السبيل، ويتمسكون بشرع الله، يبلغون من جاء بعدهم، بكل همة ونشاط، وتحمل للمسؤلية؛ مضحين بالغالي والنفيس بل وبأرواحهم في سبيل نشر هذا الدين فحمى الاسلام هذه الفئة الضعيفة، وفتح انظارهم على حياة العزة والكرامة، فلم يعد من مجال لاضطهاد أو استغلال فئة العامة تلك. فقد حطم نظام الاسلام العادل قيود الجاهلية الظالمة الوضيعة، فسارت العامة رافعة رأسها، عزيزة المكانة، لا تسمع ولا تطع الا أمر الله الذي خلقهم، وأمرها بأوامر أطاعتها ونهاها عن نواه فاجتنبتها كان أن شعرت فئة الامراء والاثرياء حملة السوط والسطوة والقوة بخطر نظام الاسلام هذا فبدأت تكيد أولاً بطرف خفي، وكان أبرز مواقفهم في بداية ظهور دولة الاسلام في المدينة يوم خانوا جماعة المسلمين ورجعوا بثلث الجيش صبيحة معركة أحد المشهورة. وكان من فضح موقفهم. ثم تلا ذلك اختلاف ابن أبي المنافق مع جماعة المؤمنين وحديث الافك.

واتصالهم بمشركي الاحزاب، مما دعا رسول الله ﷺ أن يخفي وجهته في حروبه وغزواته حتى لا تسرب هذه الفئة أخبار الغزو. إلى أن كسرت شوكة مشركي العرب، وانفض جمعهم وحُطمت أصنامهم وأصبح الولاء لله ورسوله وجماعة المؤمنين. كما فقدت تلك الشريحة أولياءهم من يهود الجزيرة الذين قتل بعضهم وهجر الجزيرة آخرون.

فما بقي لهذه الشريحة الفاسقة إلا الروم وعملاء الروم من العرب وخاصة الغساسنة ومن شايعهم، فظهر ولاؤهم للروم كأبي عامر الراهب ذلك الخزرجي الذي كان قد تنصر في الجاهلية، وعندما قويت شوكة المسلمين وظهروا على غيرهم، تزعم؛ هذا المنافق الفاسق المقاومة مع بعض المنافقين مثله من قومه فانضم أولاً لمشركي مكة المكرمة يستنهضهم لقتال المسلمين رغم مخالفة دينه الظاهر لعبادة الأصنام، ولبسه المسوح كراهب؛ فقد ناصر المشركين من عبدة، الأوثان ولم يكتف بحرب الإسلام بالقول واللسان بل ساعد الكفار بالحيل والتخطيط والحرب الفعلية معهم، فكان كابن أبي في النفاق إلا أن ابن أبي قد بقي في المدينة يتزعم المنافقين والفتن فيها، ولكنه لم يشهر السلاح في وجه المسلمين، رغم ما هو فيه من النفاق والفساد، حيث قال لجماعته بعد انتصار المسلمين ببدر: "هذا أمر قد توجه " فدخل مع شيعته من المنافقين في الاسلام ظاهراً ويخفون الكفر باطناً؛ فكانوا كلما أعز الله الإسلام والمسلمين يغتاظون، ويبدو عليهم الحنق وقد تشابه موقف ابي عامر هذا بموقف حيي بن أخطب زعيم يهود الذي قال لأهل مكة أن عبادة الأصنام هي أفضل من الإسلام مشجعاً المشركين على التمسك بدينهم الذي يخالف – ولا شك – دين اليهود. وكان ابو عامر هذا قد اشترك في معركة أحد مناصراً للمشركين من أهل مكة، وأستعمل الكيد والخبث يحفر الحفر حتى سقط رسول الله محمد ﷺ في إحداها فكسرت رُباعيته وشُجّ رأسه ﷺ كما حاول هذا الكافر استمالة بعض الأنصار من قومه ضد المسلمين في تلك المعركة، ولكنهم نالوا منه وسبوه وعيروه

وبعد معركة أحد رحل إلى ملك الروم يستنصره على المسلمين فوعده ومناه وأقام عنده، ومن ثم أخذ يكاتب بعض المنافقين من قومه الأنصار، ثم أمرهم ببناء مسجد ليكون مكان تجمع ومنارة مراقبة لتحركات المسلمين من قبل المنافقين من شيعته، فبنوا مسجد الضرار، قرب مسجد قباء " أول مسجد بناه الرسول بعد هجرته الى المدينة " ولكن الله كشف مؤامرتهم، فأمر رسوله محمد ﷺ بحرقه وفضح المنافقين أصحابه.

وكان أمر هذه الشريحة المنافقة حقيراً في أول الأمر، فلم يظهر منهم خطر يهدد الدولة، كما كان أملهم ومناهم أن تستطيع أحزاب المشركين، وخاصة قريش أن تقضي على المسلمين، أو أن قبائل اليهود تستطيع ذلك، ولكن خاب أملهم، ولم تتحقق أمنيتهم تلك، فامتهنوا التجسس وموالاة أعداء الإسلام وإخفاء الكفر وإبطان الحقد على الإسلام، يتحينون الفرص لتعكير صفو المسلمين، وتأليب الأعداء عليهم حتى كانت غزوة تبوك الفاضحة لسلوكهم هذا، الكاشفة لنفوسهم المريضة، ولخيانتهم العظيمة فلم يعد في الجزيرة من قوة يستترون وراءها او أمل بإحياء دعوى جاهلية يتكتل العرب تحت رايتها ضد الإسلام. فاتجهت أنظارهم لبلاد الشام. وما فيها من روم وعرب يبحثون عن مثل هؤلاء الفساق المنافقين، لتقصي أخباردولة الاسلام تلك الدولة التي نمت وترعرعت حتى حسب لهاالأعداء كل حساب.

ويسيررسول الله محمد ﷺ بأعظم جيش عرفته الجزيرة قاصداً الدولة الأولى في العالم في ذلك الوقت "دولة الروم العظمى" حتى لاتفكر هذه الدولة مجرد تفكير بغزو جزيرة العرب وعاصمتها المدينة وينتصر جيش محمد ﷺ، حيث نصر بالرعب وخافته دولة الروم فما تجاسرت على لقائه في شمال الجزيرة كما كان متوقعاً. وأراد رب العالمين فضح وكشف نوايا تلك الشريحة التي بدأ يظهر نفاقها، حين استبشرت خيراً بمناصرة دولة الروم لها، ولم تعلم أن الكفار لا عهد لهم استعملوهم

كعيون وجواسيس على المسلمين لمصلحتهم الخاصة، ولن يضحوا بجيشهم من أجل أي عربي، وما هي إلا وعود كاذبة، تتحكم فيها مصلحة دولة الروم أولاً وأخـيراً. ينتصر حزب الله، وترفرف راية الإسلام على شمال الجزيرة كما علت جبال اليمن وعسير وبلاد نجد حتى عمان شرقاً.

ولكن آيات التحذير من هذه الشريحة المنافقة الشريرة الخائنة بقيـت نـوراً يـثير للأمة الإسلام ودولة الأسلام طريق فضحهم وسبل مكـرهم حتـى تتجنـب الأمـة خطرهم في كل العصور والأماكن.

قال تعالى – يصف حالهم وتاريخهم قبل فضحهم في تلك الغزوة: "لقـد ابتغـوا الفتنة من قبل.." فهم ومنذ دخول رسول الله محمد ﷺ المدينـة وهـم يتـآمرون عليـه وعلى المسلمين: ينشطون كلما اقترب الكفار المشركون من المدينة وتـذهب ريحهـم كلما هزم معسكر أعداء المسلمين.

يذكر الله سبحانه وتعالى بتاريخهم الأسود المملوء بالفتن، وتثبيط همم المسلمين في الداخل، وموالاة الأعداء من يهود ومشركن ونصارى في الخارج. ﴿...وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٤٨].

قد أعملوا فكرهم وجمعوا كيـدهم لتفريـق إخـوة الإسـلام وجمـع المسـلمين، لينفضوا عن رسول الله محمد ﷺ وساعدوا الأعداء بكل الطرق؛ كلما وجدوا لذلك سبيلاً إلى أن ظهر الإسلام وانتصر على غيره، وأنار شرع الله قلوبـاً غُلفـاً وعقـولاً أضـناها سـراب الجاهليـة الظـالم وانتصـر حـزب الله والمنـافقون هـؤلاء كـارهون حاقدون، يريدون أن يطفئـوا نـور الله بـأفهواهم ولكـن الله مـتم لنـوره ولـو كـره الكافرون.

لقد أوردت هذه الآيات البينات بعض مكائد هؤلاء المنافقين، وسلوكاتهم

الشاذة الخائنة، فالجد بن قيس يسأذن بالقعود عن الجهاد خوفاً على ماله وعياله، فيتعلل بعلل واهية، وأعذار غير مقبولة؛ ففضحه المطلع على السرائر بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]. فقد قال هذا المنافق: أخاف على نفسي من فتنة نساء بني الأصفر "يعني بنات الروم" ولكن الله المطلع على القلوب العالم بالسرائر قد فضحه وبين كذبه فقال سبحانه وتعالى فيه ﴿...أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ...﴾ ثم قرنه بالكافرين، وأن مصيره ومصيرهم إلى جهنم، لظهور نفاقهم، وتخلفهم عن الجهاد حيث قال سبحانه وتعالى:﴿... وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ..﴾ فلا مفر منها ولا مهرب، وقد أحاط بهم سرادقها، ومن هؤلاء المنافقين الذين حذرنا ربنا منهم من طعن بقسمة رسول الله محمد ﷺ في غنائم غزوة حنين، حيث قال الله سبحانه وتعالى فيهم فاضحاً سريرتهم مبيناً نفاقهم ونية حضورهم للجهاد ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾[التوبة: ٥٨ - ٥٩].

قيل أن هذه الآيات قد نزلت في اعتراض أحد المنافقين واسمه "ذو الخويصرة" حيث قال للرسول محمد ﷺ: "اعدل يا رسول الله فرد عليه رسول الله ﷺ" ويلك إن لم أعدل فمن يعدل؟" رواه البخاري

وقد كان موقف الأنصار المؤدب يومها مع رسول الله ﷺ. رغم الفتن وأقوال المنافقين كهذا وأمثاله. وقد رحم الله وأنعم على من تأدب يومها مع رسول الله في أمر توزيع تلك الغنائم وخاصة في إعطاء المؤلفة قلوبهم لتثبيتهم على الايمان، فقد

يكون في هذا حكمة لا نعيها في وقتها ثم تظهر فائدتها لأمة الاسلام فيما بعد، وإلا فمن هم القادة الذين فتحوا بلاد الشام ومصر وبلاد فارس وثغور الهند وبلاد الترك؟ أليسوا هم الذين تألفهم رسول الله ﷺ يوم ذاك وأحفادهم وذراريهم؟ فقد أرشدنا الله – من فضله ونعمائه – في مثل هذه المواقف بالاستجابة والسكينة، وطاعة أمر الله ورسوله والشرع الحكيم، وردع وسوسة الشيطان الرجيم والنفس الأمارة بالسوء، وأن نقول كما علمنا الله: "حسبنا الله سيؤتنا الله من فضله ورسوله" وقد كان فتحققت بشرى الخير وانهالت الاموال وكنوز كسرى وهرقل وملوك الأكراد والترك والبربر وكثرت الأرزاق والخراج نتيجة تلك الفتوحات العظيمة في بلاد الشام الى المحيط الاطلسي غرباً والى بلاد والصين شرقاً. وكل هذا من كرم الله ورحمته وتوفيق لامة أطاعت وصبرت وجاهدت بإخلاص ونية حسنة صادقة، ورجال صدقوا ما عاهدوا اله عليه: أصلحوا سريرتهم وينتهم واتكلوا على الله سند كل مؤمن مطيع. إن اعتراض المنافقين هذا ليدل على نيتهم في جهادهم وأنانيتهم وأن رضاهم وسخطهم هو لأنفسهم لا لنصرة دين أو نشر عقيدة. أظهر الله باعتراضهم هذا مكنون نفوسهم، وهدف جهادهم وخوضهم غمار المعارك وحضورهم فيها.

وذلك من أجل الغنائم لالصالح الدعوة ونشر الدين وصلاح البشرية.

وجواب "لو" في الآية محذوف للتهويل والتعظيم وتقديره لكان خيراً لهم. وذكر كلمة " الله " بقوله ﴿...مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ...﴾ هي لتعظيم أمر صحة القسمة العادلة فالأمر لا يتعلق برسول الله محمد ﷺ بل إن الله أمر بهذه القسمة فمن يحاد رسول الله فيها كأنه حاد الله ومن اعترض على الرسول ظناً منه أنه أعطى الملأ من قريش لأن الرسول محمدً ﷺ منهم فهذا مردود عليه.

فالله هو الذي فرض حصة للمؤلفة قلوبهم ثامن الأصناف الثمانية الذي حددت لهم الزكاة ثم يحذرنا الله من شريحة منافقة أتخذت اسلوباً آخر للطعن في دين الاسلام، وذلك عن طريق الطعن في رسوله الكريم، فقد نعتوه بالتصديق لكل ما يقال له بدون اعتراض ولا مناقشة فمهما قالوا وطعنوا وسخروا من هذا الدين خفية عن رسول الله فما عليهم إن سئلوا إلاّ الحلف والإنكار فيصدقهم رسول الله محمد ﷺ، قال الله سبحانه وتعالى:﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[التوبة: ٦١ - ٦٣]. جاء في أسباب النزول: أن القائل هو الجلاس بن سويد حيث رد على من نصحه بعد الكلام على رسول الله خوفاً من ان يبلغه ذلك، فقال الجلاس هذا: نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول، فإنما محمد أذن سامعة" ويرد رب العالمين عليهم في قولهم هذا: ﴿..... قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[التوبة: ٦١].

"فالمؤمن يُصَدّق ويُصدَق ورسول الله ﷺ يصدق بالله ويصدق المؤمن لا أهل الكفر والنفاق الذين يمتهنون الكذب، وقلب الحقائق، وينتظرون الإساءة والتكذيب والأذى، ولكنه رسول الله رحيم بمن اتبعه، وسار معه درب الفلاح، وخشي الله المطلع على السرائر. ثم يبين سبحانه وتعالى حكم الشرع فيمن يؤذي رسوله الكريم، والكلام يفيد العموم، فأي إيذاء لرسول الله ﷺ يدخل تحته، كما ويصف رب العالمين ذلك بأنه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ولم يحدد هذا العذاب أهو في الآخرة أم في

الدنيا والآخرة؟ ثم يفصل سبحانه وتعالى قولهم هذا فهم يحلفون بالله لكم ليرضوكم، فغايتهم وهدفهم هو إرضاء الناس لا غير ولو كانوا مؤمنين حقاً لأرضوا الله ورسوله فالله ورسوله أحق بالإرضاء:.... إن كانوا مؤمنين". نعم، الأحق بالإرضاء هو الخالق الذي بيده الخير والموت والحياة ورسوله الأمين ﷺ وما إرضاء البشر إلا لإرضائهم. ثم يأتي دور توبيخهم لعنادهم ونفاقهم، حيث قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[التوبة: ٦٣]. يحادد يخالف شرع الله، ولا يطيع أوامره، وقد يصل الأمر لمحاربة رسول الله لانه رسول من الله يبلغ أوامر الله لعبادة الله، فمن يخالف أمر الله وأمر رسوله فجزاؤه النار خالداً فيها وهذا هو الخزي الحقيقي والهوان والذُلّ العظيم.

بعد هذا الكشف الفاضح لدواخل المنافقين وسرائرهم فإنهم وصلوا إلى درجة كبيرة من الخوف أن ينزل الله على رسوله ما يفضحهم، وهو القادر على كل شيء المطلع على السر وأخفى حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ٦٤].

فالأمر جد ولا مجال لإخفاء الجرائم ولا التستر ولا النفاق، فما قال فيهم سبحانه وتعالى ﴿...قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ ...﴾ إلا وأنهم قد استهانوا بالدين ورسول الله إلى درجة الاستهزاء، وهذا ابشع أنواع الكفر والنفاق ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ أي كاشف ماتخفون من الكيد. والضمير في هذه الآية في كلمتي "عليهم وتنبئهم "للمؤمن وأما كلمة "وفي قلوبهم" فالضمير للمنافقين.

وهذا الكشف لحالهم وقد أخفوا ما في صدورهم السنين الطوال منذ سنين في جحورهم يلدغون ثم يختفون، فهذا الفضح هو أعظم بلاء عليهم فهم قد لجأوا للتقيه والنفاق: فَرَقاً وخوفاً من المسلمين، ففي فضحهم ونشر ما تحدث به نفوسهم وما يخفوه من أذى وكره وحقد على المسلمين لهوا البلاء العظيم.

قال الله سبحانه وتعالى – فاضحاً ما أضمروا واستهزأوا _:﴿...قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ ومن آيات الله القاصمة لهم أيضاً قوله سبحانه وتعالى:﴿...وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[المجادلة: ٨].

وقال سبحانه وتعالى – مهدداً متوعداً إياهم: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٩] وفي هذه الآية الكريمة جعل الله النفاق مرضاً وليس هو من طبيعة النفس السليمة بل أمر أختاره وسار فيه إنسان عدو للمجتمع الإنساني ولكل صلاح فيه فهو كاذب مداهن جبان، سلاحه الكيد والخبث والنميمة، والإيقاع بين الناس، قال سبحانه وتعالى في شريحة منافقين اتخذت النقد الهدام السلبي وسيلة إيذاء واستهزاء ضد المسلمين: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦]. جاء في أسباب النزول "بينما رسول الله ﷺ يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح قصور الشام وحصونه، هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك: فقال: أحبسوا علي الركب، فأتاهم فقال:

قلتم كذا وكذا، فقالوا: يانبي الله لا والله ماكنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض في السفر ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ لم يعبأ باعتذارهم لأنهم كانوا كاذبين فيه فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم وبأنه موجود منهم، حتى وبخوا بأخطائهم موقع الاستهزاء، حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقدير، وذلك إنما يستقيم بعد وقوع الاستهزاء وثبوته﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ ﴾لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة، فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سركم و﴿قَدۡ كَفَرۡتُم﴾ قد ظهر كفركم باستهزائكم﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾ بعد إظهاركم الإيمان" ص: ٢٧٧ج٢ الكشاف.

ورغم ما هم فيه من العصيان والنفاق، فقد بقي باب التوبة مفتوحاً، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿...إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ ...﴾ قيل الذي تاب منهم هو "محش بن حمير" حيث قتل يوم اليمامة شهيداً. ثم يقول سبحانه وتعالى ﴿... نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾هؤلاء هم الشريحة المجرمة التي استهزأت بالمسلمين، وقامت بإذاء الرسول ﷺ ما فتئت مصرة على النفاق، فقد تمكن الشيطان منهم استساغت نفوسهم الإجرام والفساد والنفاق فهم أحق بالعذاب والعقوبة.

ومن هذه الآيات البينات الكاشفة لنفوس المنافقين، نرى أن صحابة رسول الله محمد ﷺ كانوا بشراً، وهم شرائح شتى منهم من هدى الله واستقاموا ووقروا واحترموا رسول الله ﷺ والدين الحنيف وثبتوا على ذلك، ومنهم من استخف بشرع الله واتخذ سبيل الفساد سبيلاً، ففضح وكشف خطره. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ

يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].
ومنهم الضعيف المتقلب ينساق حسب الهوى فينحدر حيناً ويسير طريق الغواية، ويستقيم حيناً آخر، ومن شرائح هؤلاء المنافقين من عاهد الله إن أعطاه ما تمنى من مال ورزق كثير أن يؤدي حق الله في ماله، ولكنه وعندما رزق ماتمنى، وأعطي مايريد أحجم وامتنع عن دفع الزكاة التي هي حق لعباد الله مفروض من رب العزة، فمن هنا نقض العهد الذي قطعه على نفسه بأن يكون من الصالحين، أكد ذلك عند حاجته وعندما غمرته نعمة الله، وصار يرفل في حلل النعيم تنكر لوعده، وبعد حضوره الجمعة والجماعات صار يتلقى أخبار هذا الدين من ركب المارة قال فيه وفي أمثاله رب العالمين سبحانه وتعالى فاضحاً تلك الشريحة: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧]. وبالرجوع لهذه الآيات الكريمة يظهر لنا موقف هذا المنافق الكاذب الذي وعد فأخلف، فعندما تمكن وأصبح صاحب ثراء حملته نفسه الأمارة بالسوء فلبس ثوبه الحقيقي لباس البخل والجشع وأعرض عن أمر الله ونسي وعده الذي قطعه على نفسه، وأسرته الدنيا بزخرفها وزينتها فتردى.

ثم يبين رب العالمين جزاء هؤلاء الذين أخلفوا العهد وكذبوا وأبطنوا النفاق والجشع والبخل والاحتيال وأظاهر الايمان والتقوى، ظانين أن الله كالبشر لا يعرف سرهم ومناجاتهم بعضهم بعضاً حيث قال سبحانه وتعالى – موبخاً لهم لموقفهم هذا: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [التوبة: ٧٨].

وشريحة أخرى ذكرها رب العالمين محذراً ومنذراً ومخزياً لهم ولمن سار دربهم حيث قال سبحانه وتعالى فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٩] ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ أي تحقيراً لهم وغضباً من موقفهم هذا ﴿...وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهذا الجزاء ليدل على مقدار سخطه سبحانه وتعالى عليهم لنقدهم سلوك هؤلاء ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فقد قام هؤلاء بما قاموا به، وقدموا ما قدموه تطوعاً وكرماً واستجابة لنداء الرسول الكريم ﷺ. وقيل في سبب النزول: "قال الحافظ أبو بكر البزارعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً" قال: فجاء عبد الرحمن ابن عوف فقال: يا رسول الله عندي أربعة آلاف الفين أقرضهما ربي وألفين لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك فيما أمسكت " وبات رجل من الانصار فأصاب صاعين من تمر، فقال يارسول الله: أصبت صاعين من تمر، صاع أقرضه ربي وصاع لعيالي، قال فلمزه المنافقين وقالوا: ما أعطى الذي أعطى إبن عوف الا رياء، وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ " ص١٥٩ جـ٢ – تفسير ابن كثير.

وبعد فهذه مواقف تحدث من المنافقين لا في عصر رسول الله ﷺ فقط بل هو إبتلاء ومرض يعيب الإنسانية في كل العصور والأماكن، وهذه الشرائح الحاقدة المفسدة المفرقة للجماعات ولأبناء الأمة؛ ولخطرها سطرت مواقفها في كتاب الله لنحذرها ومن منافيه خصلة سيئة؛ فليدعها، وليتب وقد عرف نتيجة السير في طريقها الموصل للنار؛ والمحقرة لصاحبها في دنياه.

١١ - توبة الثلاثة الصادقين

قال الله سبحانه وتعالى:﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[التوبة: ١١٧ - ١١٩]. أول ما عرفنا مخالفة الأمر: كان عصيان إبليس وتكبره، حيث لم يطع أمر الله؛ فيسجد كما سجدا لملائكة لآدم - ﷺ - بعد خلقه؛ فلُعن وطرد من رحمة الله قال الله سبحانه وتعالى فيه:﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤]. وأما المخالفة الثانية فكانت مخالفة آدم - ﷺ لأمر الله؛ حيث أكل هو وزوجه حواء من تلك الشجرة المحرمة عليهما؛ وذلك بوسوسة من الشيطان وإطاعة لهوى النفس الأمارة بالسوء. فكان الندم من آدم - ﷺ- وزوجه؛ وكانت رحمة ربه العظيمة عليه أن علمه سبحانه وتعالى التوبة وتاب عليه. قال الله سبحانه وتعالى: - في هذا الأمر - ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧].

واعترف - ﷺ - بذنبه وطلب المغفرة من ربه، ممن يغفر الذنوب بحق، وهو التواب الرحيم فبقيت سنة في ذريته - ﷺ - وذلك من فضل الله علينا ورحمته بنا - فمن تاب وأصلح منا بصدق وحق نال رضى الله. ومن أصر على الذنب وتكبر وسار طريق إبليس اللعين؛ جُمع معه في جهنم وحقت عليه اللعنة. ما نزل هذا

القرآن على ملائكة بل على بشر بطاقات وقوى متفاوتة، مختلفة أمام أوامر الله ونواهيه فالبشر أصناف: منهم المتكبر المعاند، ومنهم المتواضع المطيع والجميع معرض للخطأ، ولكن الإصرار على الذنب هو صفة شيطانية والتوبة هي سبيل النجاة، لانها مفتاح النجاة لأبناء آدم – ﷺ– وقد كانت سفينة النجاة له ولزوجه وذلك من فضل الله ورحمته بآدم وذريته.

وكانت غزوة تبوك وما اكتنفها من كشف أسرار النفوس، فعرف المؤمن من المنافق. وأظهر المؤمنون من الكرم بالمال والأنفس والثبات في الأيام العسيرة الشديدة: فهذا منهم يحمل كل ثروته ليقدمها للإعداد وشراء العدة والنفقة، وآخر يحمل ألف دينار لتجهيز ذلك الجيش المجاهد الذي سيقابل جيش الروم العظيم، ونساء تتبرع بحليهن وآخر يبكي لعدم نيل شرف السير مع المجاهدين وقائدهم رسول الله ﷺ؛ لضيق العيش وعدم وجود ركوبة. فكانت هذه الغزوة كاشفة لكرم ومروءة كانت كامنة عند المؤمنين من المسلمين. كما كشفت ما أسره المنافقون، حيث هتكت أستارهم، وفضحت نواياهم ومؤامؤاتهم وارجافهم، فبعضهم ما زاد المسلمين إلا خبالاً، وبعضهم، تخلف متعمداً؛ ليوهن قوة ذلك الجيش. كما حاول بعضهم مدافعة الرسول ﷺ في عقبة ضيقة، ليقضي عليه في ليلة مظلمة. كما حاولت فئة الفساد هذه أن توجد إنشقاقاً في صفوف الجيش المحارب فحسب بل وأيضاً في الصلاة، فحاولوا إقناع رسول الله أن يصلي في مسجد بنوه قرب مسجد قباء المعروف؛ ليكون مرصداً ومكان تجمع لهم، ولكن الله سبحانه وتعالى السند القوة والمعين لأمة الإسلام ولرسوله الكريم: كشف مكرهم هذا، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧]. ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ إنها تلك

الفئة من العرب الذين كانوا يرسلون أخبار المسلمين ودولة الإسلام إلى الروم والغساسنة فكان مسجدهم هذا مركز تجمع لهم وفتنة فأمر الرسول الكريم ﷺ بحرق هذا المسجد فحرق، وأنفض جمع أهله وهربوا ثم، يذكرنا الله المطلع على السرائر والنفوس بقوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[التوبة: ١٠٥]. فأعمال المنافقين أصبحت مكشوفة ولا مجال لإخفائها وإظهار الإخلاص، فمن سلوكهم ومواقفهم وكلامهم تحكم عليهم، وإن اختفى البعض عن أعين الخلق لا يختفي عن خالق الخلق.

ثم يأتي دور شريحة من الأمة يحدثها الشيطان بالتولي يوم الزحف، أو يثبط عزائمهم، بالتقاعس واللجوء للأعذار، ولكنها تتراجع وتتذكر مراقبة الله لها، فتعترف بالذنب وتتوب. قال الله سبحانه وتعالى- كاشفاً لهذه الشريحة من أمة الاسلام، ومبيناً حكمه فيهم: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١١٧]. وزاغت قلوب البعض، للشدة التي رافقت هذه الغزوة وعدد وعدة العدو، ووسوسة الشيطان، ولكن الله الرؤوف الرحيم بهم سلمهم وتاب عليهم، ونصرهم بالرعب ثم يذكر سبحانه وتعالى فضله حتى على الثلاثة المتخلفين عن تلك الغزوة، وذلك لصدقهم وتوبتهم. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة: ١١٨ - ١١٩].

لقـد حـددت هـذه الآيـات موقـف التائـب إلى الله وحالـه واحتقـاره الـدنيا وتصويب نظره كاملاً لتلك الكوة التي يأتي منها نور الأمل والخير والرحمة ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾. فقد قنط من كل واسطة توصله للخروج مما هو فيـه وأغلقت الأبواب إلا باب رحمة الله. ذلـك البـاب الـذي لا يغلـق دون تائـب. قـد ضاقت عليهم الأرض، رغم سعتها، حتى أنفسهم قد ضـاقت علـيهم، فمـا أعظـم هذا الوصف وما أبلغه وكيف لا وهو قرآن كريم كله إعجاز. وهؤلاء التـائبون قـد تركز بصرهم على كوة الفرج توبتهم فلم يروا غيرها إن ترديد كلمة "التوبة" في هـذه الآية الكريمة لها دلالة عظيمة هامة، ففي التوبة النجاة مما نحن فيه مـن ذلـك البحـر المتلاطم من أمواج المعاصي والذنوب، فالتوبة هي قارب النجاة، وكوة الأمل. لقـد أمتدحت هذه الآيات أهل التوبة والرجوع الى حظيرة الاسلام بالصـدق والتقـوى. كما جمعت الفاظ الرحمة والرأفة والإحسان، فكانت آيات غيث وخـير وبركـة علـى أمة استجابت لامر الله وأطاعته في سـاعة سميـت بالعسـرة: فقـد تلـت سـنة محـل وجفاف في الجزيرة، وقلة في الظهر والزاد والماء، ويكفينا وصف عمر بـن الخطـاب – رضي الله عنه لهذه المشقة فقد قال: "خرجنا مـع رسـول الله ﷺ الى تبـوك في قـيظ شديد، ـ فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطـش، حتـى ظننـا أن رقابنـا سـتنقطع، حتـى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقـال أبـو بكـر، يارسول الله، أن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، قال: تحب ذلك؟ قال نعـم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأظلت ثم سـكبت، فملـؤا مـا معهـم، فرجعنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر، ونسـير مـع سـياق هـذه الآيـات: آيـات البشرى للتائبين الصادقين المستسلمين لامر الله. فقـد بـدأت هـذه الآيـات الكريمـة بتأكيد التوبة من الله على رسوله وأبرز سبحانه وتعالى المهـاجرين والأنصـار علـى غيرهم تكريماً لهم وتعظيماً لمواقفهم المعروفة في الجهاد ونشر الدين والثبات وحـب الله ورسوله واستجابة لأمر الشرع والعمل به ثم المشقة والصـبر منـذ قيـام الدولـة

ومواقفهم في الإعداد لهذه الغزوة العظيمة المعروفة بقوتها. فقد استجابوا لدعوة الجهاد رغم قلة الظهر والزاد والماء يقطعون طريقاً في الصحراء مجدبه، معروفة القسوة والحر وفي صيف جاف، وحياة جافة، ولكن الجائزة عظيمة كبيرة قيمة فقد تاب الله عليهم رغم ما حصل لبعضهم من وسوسة الشيطان الرجيم والنفس الأمارة بالسوء، والشك الذي انتاب البعض وخاصة مقابلة جيش الدولة الأولى في عالم ذلك الزمان، دولة الروم العظمى ثم إرجاف المنافقين وعملاء الروم ومن والى الروم، والفاظ التقاعس، وتثبيط الهمم، كقول بعضهم ما نحن إلا لقمة سائغة لجيش بني الأصفر ثم ما نال المسلمين من مشقة وشدة في صيف جاف حار إنه اختيار صعب ولكن الجائزة كانت عظيمة قيمة: إنها التوبة التي هي منية كل مسلم في الأرض ومطمح كل ساع لإرضاء الله: فمن نالها فقد نال السعادة الحقة في الدارين.

وقد رزقهم الاطمئنان والثبات وحب الله ورسوله وجماعة المسلمين.

ثم تختم هذه الآية البشرى الخيرية بلطف الله ورحمته بعباده الصابرين المجاهدين في البأساء والضراء وحين البأس. وتخص البشرى ثلاثة أشخاص كانوا قد صدقوا في نيتهم، وأظهروا الندم لتخلفهم، وكان يكفيهم عقوبة مقاطعة المسلمين لهم حتى نساءهم اللاتي منعن عن خدمتهم.

وتركهم رسول الله ﷺ ينظر أمر الله فيهم، خاصة وقد بينوا أن لا عذرلهم والثلاثة هم هلال بن أمية ومرارة بن ربيعة وثالثهم هو كعب بن مالك، وكان ممن بايعوا الرسول بيعة العقبة وحضر معه الغزوات جميعها إلا بدر كما رواها الإمام أحمد عن عبيد الله بن كعب بن مالك، ولنتركه يسرد لنا قصته تلك: "قال لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها قط إلا في غزوة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير معاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ

ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بـدر، وإن كانـت بدر أذكر في الناس منها وأشهر وكان من خبري حين تخلفت عن رسـول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حيث تخلفت عنـه في تلـك الغـزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين تخلفت عنه في تلك الغـزوة، وكـان رسـول الله قلمـا يريد غزوة يغزوها إلاّ ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاهـا رسـول الله ﷺ في حر شديد، واستقل سفراً بعيداً ومفاوز، واستقبل عدواً كثيراً فجلـى للمسـلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهة الذي يريد والمسلمون مع رسـول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه مالم ينزل فيه وحي من الله عز وجل؛ وغزا رسـول الله ﷺ تلـك الغـزوة حـين طابت الثمار والظلال، وأنا إليها أصعر، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنـون معـه فطفقت أغدو لكي أنجز معهم، فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً، فـأقول لنفسـي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي، حتى استمر بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهـازي شـيئاً، وقلـت: أتجهز بعد يوم أو يومين ثم الحقه، فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز فرجعـت ولم أقـض من جهازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يـزل ذلـك يتمـادى بـي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن ارتحل فألحقهم وليـت أنـي فعلـت، ثـم لم يقدر ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزنني أنـي لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عـذره الله عـز وجـل، ولم يـذكرني رسول اله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: "ما فعل كعـب بـن مالك"؟ فقال رجل من بني سلمة: حبسه يارسول الله برداه والنظر في عطفيه، فقـال معاذ بن جبل: بئسما قلـت، والله يارسـول الله مـا علمنـا عنـه إلا خـيراً، فسـكت رسول الله ﷺ، ثم قال: فلما بلغـني أن رسـول الله ﷺ قـد توجـه قـافلاً مـن تبـوك حضرني بثي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً واستعين

على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل أن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً راح عني الباطل، وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه، فأصبح رسول الله ﷺ وكان اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، ويستغفر لهم ويكل سرائرهم الى الله تعالى، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: "تعالى" فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: "ما خلفك، ألم تكن قد اشتريت ظهراً؟" فقلت يارسول الله إني لوجلست عند غيرك من الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخط علي، ولئن حدثتك بصدق تجد علي فيه إني لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل؛ والله ماكان لي عذر، والله ماكنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال، فقال رسول الله ﷺ: "أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك" فقمت، وقام إليّ رجال من بني سلمة واتبعوني، فقالوا: والله ما علمنا ك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن تكوت اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ، قال: والله مازالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي قال: ثم قلت لهم: هل لقي معي هذا أحد؟ قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما اسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي. قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلفوا عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة حتى جاء الفرج بتوبته تعالى علينا ونزول القرآن الكريم في ذلك"، ومن هذا العرض يتبين أن هذا

الصحابي الجليل ما كان له من عذر إلا الكسل والأمر أراده الله ليكون من أسباب نزول هذه الآيات الأمل لكل تائب منيب راجع إلى الله، ولتكون أمل كل مسلم تائب إلى أن تقوم الساعة وعندما رجع رسول الله ﷺ بعد تلك الغزوة المظفرة. وجاء أصحاب الأعذار؟ وكان كل منهم قد أحضر عذره، وكان عددهم بضع عشرات فقط "وهذا الرقم يدل على قوة ووحدة الأمة الاسلامية في تلك الأيام فالجميع هب للغزو والجهاد في سبيل الله" وكانت هذه الغزوة إرهاصات فتح بلاد الروم: الدولة العظمى في عالم ذلك الزمان. وقد تكلم هو بالحقيقة الصادقة وأنهم لاعذر لهم، وهم مؤمنون ينتظرون حلم الله مستسلمين لأمره، وقد أظهروا الندم والحسرة والتوبة ورغم هذا قاطعهم المسلمون بأمر رسول الله ﷺ حتى نساؤهم أمرهن بهجر مضاجعهم بانتظار حكم الله فيهم. فكانت أيام عصيبة قاسية صعبة، حبس إنفرادي حتى ضاقت عليهم أنفسهم، فاعتزلوا الناس، وعيونهم في كوة النجاة، وأمل المؤمن في شدته، وظنوا "أن لا ملجأ من الله إلا إليه". ومما زاد الطين بلة: اتصال حزب الشيطان– جماعة الولاء للكفر من العرب الغساسنة في بلاد الشام – بكعب هذا، حيث وردت له رسالة تغريه بالرد ة والعمل معهم، وهذا نص تلك الرسالة المشؤومة: " أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك " فيقول كعب عندما قرأها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرتها. ولكنه المؤمن الحريص على علاقته بالدين القويم والرب العظيم: فقد أصم أذنه أمام هذا الإغراء من فئة الفساد والنفاق والكفر، وتمسك بعقيدته السامية، والعروة الوثقى، رغم ما هو فيه من إبتلاء، وساعة إمتحان وشدة، إلى أن أقر الله سبحانه وتعالى عينه مع صاحبيه بقبول توبتهم وذلك بعد خمسين يوماً من العنت والعذاب والشدة وتأنيب الضمير والندم. فكانت فرحتهم عظيمة بالبشرى وفرحة الأمة الاسلامية أعظم فرحة بقبول توبة أمثالهم عبر التاريخ أما كعب هذا فقد انخلع بتوبته من كل ما يملك ولكن

الرسول الرحيم طلب منه أن يبقي له بعض ما يملك من ماله وكانت فرحة المسلمين عظيمة حيث قاموا بواجب التهنئة بمغفرة الله لهم وقبول توبتهم والعفو عنهم. أين موقف هؤلاء الثلاثة المؤمنين الصادقين الطائعين من موقف جبلة بن الأيهم الأمير الغساني، حينما لطم الأعرابي الذي وطىء على طرف ردائه وهو يطوف حول الكعبة فاشتكى الاعرابي لعمر بن الخطاب أمير المؤمنين أنذاك، فطلب عمر العادل – رضي الله عنه من الأعرابي أن يقتص من جبلة هذا ولكن جبلة أخذته العزة بالإثم فارتد ولحق بالروم الى أن مات غريباً ذليلاً بعيداً عن بلاده وقومه، وذلك لتكبر ونفاق بل وكفر قاده إلى التعاسة والشقوة في الدارين.

١٢ - التحذير من فتنة يهود

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨ - ٥٠].

ما كان بعث الأنبياء والمرسلين عبثاً، ولا كانت أوامر الله ونواهيه – التي تضمنتها كتب رب العزة المقدسة المرسلة لأهل الأرض لإصلاحهم وانقاذهم من نار وقودها الناس والحجارة – للتسلية، بل هي امتحان واختبار فيميز الطائع من المخالف، ولا وسطية في ذلك فإما إيمان وطاعة مطلقة وإما عصيان ومداهنة وكفر، وتحكيم هوى ونبذ لأمر الله ونهيه.

لُعن إبليس، وطُرد من رحمة ربه لأنه عصى ربه في رفض حكم شرعي واحد، لم يسجد – كما أمره الله – لآدم فيما سجدت الملائكة طائعة مستجيبة لأمر الله وأخرج آدم – عليه السلام – من نعيم الجنة، لمخالفته أمر الله بالأكل من تلك الشجرة المحرمة عليه وعلى زوجه؛ ولولا لطف الله ورحمته بهما– حيث علمهما التوبة – للحقتهما اللعنة، ولكنهما تابا، فأنزلهما الأرض زيادة في الابتلاء والاختبار؛ فمن أطاع الله فيها نجا ومن عصاه هلك.

هذه علاقة العبد المخلوق مع ربه الخالق: الايمان والعمل والطاعة المطلقة، وما الحياة الدنيا إلا امتحان لهذا المرء: فإن سار على هـدي الله، وحكـم بمـا أنـزل الله، واتبع الطريق القويم: نجا بتقواه هذه، وانتصر على كيد الشيطان، والـنفس الأمـارة بالسوء، فنال رضا الله وسعد في جنـة الخلـد الـتي عرفهـا رب العـزة لنـا وإن سـار حسب هواه، واتبـع شـيطاناً رجيمـاً غـوى؛ فالنـار هـي المـأوى والمـآب بعـد يـوم الحساب، وقد حذر رب العزة عباده منها ومن لهيبها؛ ليتقوه، ويطيعوه، ويقدسوه.

هذه هي علاقتنا كبشر مخلوقين مع خالقنـا الفعـال لمـا يريـد، القـادر العزيـز، الحكيم الصمد، الذي رحمنا وأنار لنا طريق الخير، وهـدانا سـواء السـبيل، بإرسـال الرسل والأنبياء، يحملون لنا تعاليم كتباً فيها الأمر والنهـي، لتقـويم عقـول مختلفـة الآراء، متناقضة الأهواء، فهـذا يحـب مـا يكرهـه ذاك وذاك يُجـلّ مـا يحتقـره هـذا وهكذا...

ويحذر رب العالمين رسوله الكريم محمد ﷺ من كيد من مـردوا علـى النفـاق، ممن نطقوا بالشهادة بألسنتهم ولم تـؤمن قلـوبهم، وممـن، إمتهنـوا الفسـاد والخـداع والمداهنة والكذب من الذين هـادوا– حيـث وصـفهم رب العـالمين، محـذراً عبـاده المـؤمنين مـن كيـدهم، قـال الله سـبحانه وتعـالى في وصـفهم: ﴿...سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ ...﴾ فقد استمرأت نفوسـهم الكـذب ونشـره ﴿... سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ [المائدة: ٤١].

تستسيغ أسماعهم وتطمـئن نفوسـهم لكـلام مفسـدين متكـبرين، لم يحضـروا مجالس رسول اله ﷺ، بل امتهنوا تحريف كلام الله، ومـا ورد في التـوراة مـن أوامـر ونواه، فيعطون كلاً حسب هواه، يؤمنـون بالتقيـة، ويتلونـون كالحربـاء، يناصـرون القوي، ويحتقرون الضعيف.

وقد روي أن سبب نزول هذه الآيات الكريمة أن قوماً من اليهـود استضـعفوا قوماً آخرين منهم فكان حكمهم عليهم: أن من قتل مـن الضـعفاء فلأهلـة نصـف الدية ومن قتل من الأقوياء فيدفع لهم الضعفاء الدية كاملة.

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: " قال كعب بن أسـد وعبـد الله بـن صوربا وشاس بن قيس: أذهبوا بنا إلى محمد لعلنا أن نفتنه عن دينه، فـأتوه فقـالوا: يا محمد إنك قد عرفت أننا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وإنـا إن تبعنـاك تبعنـا يهود، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك، فتقضـي لنـا علـيهم، ونـؤمن بك، ونصدقك، فأبى ذلك ".

ولكن الله المطلع على ما تخفيه الأنفس، الحاكم العادل بالمرصاد لكل مكّارٍ مخادع مفسد في الارض حذر رسوله الأمين من مكر يهود قال سبحانه وتعالى: ﴿... وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ...﴾ فإن أجتماعهم هذا واتفاقهم على فتنة رسول الله ﷺ؛ ليعجز الشيطان عنها – رغم علمهم بأنه رسول من الله – ومما شجعهم على تلك الفتنة والمكر، أنه كان حديث عهد بجوار ومعاملة يهود المدينة الذين اجتمعوا به من رؤساء الدين اليهودي الذين اشتهر كيدهم واستهتارهم لتعاليم السماء حتى في عهد أنبيائهم – عليهم السلام – والصالحين المؤمنين منهم.فشكراً لله الحافظ والمدافع عن دينه ورسوله، المرشد والمحذر من شباك هؤلاء المفسدين الضالين المضلين وقد امتد هذا التحذير لأمة محمد ﷺ عبر القرون والعصور. لأن مكر هؤلاء وكيدهم يتوارثها الأبناء عن الآباء، والأحفاد عن الأجداد، فأساليب فسادهم متشابهة، فقد كادوا بأنبيائهم، كما كادوا بنا اليوم. كانوا قد اتفقوا فيما بينهم، وأوصى بعضهم بعضاً:- إن حكم محمد حسب هوانا أخذنا برأيه وحكمه، وكان حجة لنا عند الله وعند الناس، فحكم النبي لا يرد، وإن أبى إلا حكم الله، فلا نحكمه، ونحذر من رأيه، لأن فيه ماتركناه في حكم التوراة الذي هو بين أيدينا وهو المساواة بين خلق الله في الحكم.قال

سبحانه وتعالى – يصف كيدهم: ﴿...إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ ...﴾ ثم يبين سبحانه وتعالى لرسوله الكريم حكمته في فتنة هؤلاء المجرمين المخادعين؛ لأن قلوبهم قاسية ونفوسهم مريضة، فيخزيهم الله في الدنيا، ويعذبهم في الآخرة عذاباً عظيماً. قال الله سبحانه وتعالى – يصف حالهم: ﴿...وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[المائدة: ٤١].

ثم يزيد في التحذير منهم بوصفهم لنا: فهم يسمعون كذب أحبارهم ويسيرون على هواهم، ولا يحكمون شرع الله سواء كان في التوراة أو في القرآن الكريم، ويأكلون الرشا والربا وهو محرم عليهم في التوراة التي يعتزون بها ثم يبين الله عز وجل لرسوله الكريم ﷺ، كيف يتعامل مع هؤلاء المفسدين الضالين المتكبرين، الذين أرادوا فتنته ﷺ، والاحتيال على أوامر الله ونواهيه. قال الله سبحانه وتعالى

﴿... فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

فلا حلول وسط في الحكم: فإما تحكيم شرع الله وإما تحكيم الهوى، فلا تحكم إلا بما أراك الله من العدل والمساواة ولا تميلن مع هواهم وانحرافهم؛ لأن ذلك ليس في مصلحة الدعوة وليس سبيلاً لإسلامهم.

ثم يبين سبحانه وتعالى وبأعلى أنواع التوبيخ والفضح لهم والتعجب من سلوكهم الشاذ فيقول: ﴿ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٤٣].

– نعم، إنهم لا يؤمنون بالتوراة ولا بغيرها، ولو آمنوا بها لحكموها في شؤونهم؛ فقد نبذوا حكم الله الذي جاءت به وراء ظهورهم، وأرادوا تحكيم رسول الله ﷺ، ليفتنوه عن الحق وعن السير في طريق العدل وحكم الله الذي لا حكم: بحق سواه. ومن كفر بتعاليم التوراة الصحيحة العادلة التي أنزلها الله على رسوله موسى – ﷺ – فهو بتعاليم القرآن الكريم أشد كفراً وتكذيباً. ثم يذكر الله سبحانه وتعالى إعراضهم عن تعاليم الله سواء كانت في التوراة التي أنزلها لهم هدىً ونوراً وقد طبقها عليهم أنبياؤهم والمؤمنون من أحبارهم ثم تركوها وراء ظهورهم واتخذوها هجراً وحكموا الهوى والنفس الجامحة عن الحق.

وخانوا الأمانة في حفظ كتاب الله الذي وكلهم فيه ربهم. ثم قال سبحانه وتعالى – منبهاً ومحذراً أمة الإسلام، حتى لا تحذو حذوهم، وتسير طريقهم المعوجة المضلة – ﴿...فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

إن علم الله المحيط بكل شيء إلى أن تقوم الساعة؛ ليعلم تمام العلم تلك الفتن التي سيقوم بها أصحاب الشهوات والسلطان والمال للأنطلاق من لجام حكم الله والسير حسب هوى النفس والمصلحة، فيحذر علماء الأمة – الذين هم ورثة الأنبياء – والنور الذي تهتدي به الأمة عند اشتداد المحن والفتن، إنهم رجال العروة الوثقى، المتمسكون بالدين عند انفضاض الأمة عنه، هم أهل التقوى والوعي الذين استنارة قلوبهم بشعاع الإيمان، أهل الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رجال الثغور عند اجتماع الأمم الكافرة على حرب أمة التوحيد، أقول يحذرهم من اتباع اساليب اليهود والنصارى ورجال الدين عندهم الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً طمعاً في عرض الدنيا وزينتها وزخرفها، تلك المناصب

والكراسي والرياسات.ثم تأتي قاصمة الظهر! تلك الآية الكريمة الـتي يمتـد ظلـها فتنذر أهل الكتاب والمسلمين إلى أن تقوم الساعة.

هي التي تربط الحكم بالإيمان: فمن لم يحكم بما أنزل اللله فقـد رفـض ألوهيـة الإله الحقيقي، واتبع هواه فتردى ولا مجال لتحريف أوتدليس أو محاباة أو تزلـف؛ فقد حسمت هذه الآية الكريمة أمر المناقشة والتورية والمحاجاة فلا عـذر بعـدها لمـن يحكم بغير ما إنزل الله، وهي حجة على أمة التوحيد سواء كانـت تلـك الأمـة مـن أهل الكتاب فيما مضى أو كانت من أمة محمد ﷺ في المتأخرين إلى أن تقوم الساعة. فلا مجال للأعتراض والقول بتغير الزمان أو المكان أما أساليب البشر أو الملابسـات والظروف أو قطع يد السارق منظـر بشـع، أو أن القصـاص لم يعـد يتمشـى وروح العصر، أو أن جلد الزاني والزانية هو كبت للحرية الشخصية ومثله اللـواط، أو أن جلد شارب الخمر هو تدخل في خصوصايات الأفراد وهذا منكر وأن العالم أصـبح أمة واحدة، فطبيق شرع الله هذا شذوذ ورجعية.

ومع هذا فليتذكر الجميع أن الـذي سيحاسـب قـوم نـوح وابـراهيم وموسـى سيحاسب أمة الاسلام؛ فهم مطالبون بتحكيم شرع الله – العـالم بمـا سـيكون ومـا يحصل لذرية آدم إلى أن تقوم الساعة – فكتاب الله وتعاليمه لم ترسل لزمن أو مكان وتنتهي فلا عذر بعد هذه الآية الكريمة الواضحة لمعتذر. ثم يـذكر سـبحانه وتعـالى بعض تعاليم التي حوتهـا التـوراة وطبقهـا أنبيـاء بـني إسـرائيل ومـن خلفهـم مـن الصالحين الموحدين الأتقياء، وتختم هذه الآية الكريمة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

ولم يظهر في معنى هذه الآية الكريمة تخصيص لأمة أو زمان أو مكان بل هي عامة: فمن لم يحكم بما أنزل الله من أهل الكتاب هو ظالم ومثله من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين، وذلك لأن كلمة "من" تفيد العموم ولم يأت ما يخصصها، ولم يرد

مايجددها ثم يمضي السياق فيذكر كتاب الله "الإنجيل" وما حواه من هدي ونور، وقد نزل ليحكم به الموحدون المتقون يتبعون خطا رسول الله عيسى بن مريم- ﷺ - خاصة وأنه أقر تعاليم "التوراة" وخفف بعض الأحكام فيها.تختم هذه الآيات الكريمة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿...وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

فقد أضاف سبحانه وتعالى لصفتي الكفر والظلم صفة ثالثة وهي الفسق كل هذه الصفات لمن لم يحكم، بما أنزل الله. وبما أن هذه الآية الكريمة أيضاً تفيد العموم فالمخاطب بها الموحدون سواء من أصحاب عيسى- ﷺ- أو من المسلمين "أمة آخر الزمان" فهم جميعاً مطالبون بتطبيق شرع الله والعمل بالقرآن الكريم المهمين على ماقبله من الكتب.

ونحمد الله الذي توكل بحفظ القرآن الكريم من التحريف والتغيير، ولم يوكل البشر فيه، فيحصل له ما حصل في الكتب السابقة. قال الله سبحانه وتعالى: حلاً لمشكلة قد تحدث كما حدثت بين اليهود والنصارى: وهي أي الكتب السماوية يتبع الناس في هذه الأرض.﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ...﴾ [المائدة: ٤٨]. فالذي نزل عليه هذا الكتاب هو محمد ﷺ، وتصديق هذا الكتاب "القرآن الكريم" هو تصديق نزول تلك الكتب على هؤلاء الرسل، ولا يضمن التصديق على ما تحويه تلك الكتب، وقد لعبت فيها أقلام وأفكار وآراء فلم يعد بالإمكان معرفة الصواب من الخطأ، فأي إنجيل من الأناجيل نعتمد وفيها التناقض والاختلاف والزيادة والنقصان واضحة وضوح الشمس. وكلمة "مهيمناً عليه" فقد حلت الخلاف فجعلت القرآن الكريم هو المرجع الحقيقي وفيه حقيقة التعاليم بدون تحريف ولا نقص ولا زيادة، ويكفيه شرفاً وصدقاً أن الله وعد بحفظه بنفسه. ثم يقول الله سبحانه وتعالى لرسول الله محمد ﷺ.

﴿...فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ ...﴾ روي أن سبب نزول هذه الآيات كان في رجل وأمرأة من اليهود قد زينا، وقد ورد هذا الحديث في صحيح البخاري وهذا نصه: "قال مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وأمرأة زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ: " ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ "فقالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشرها فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ماقبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: أرفع يدك، فرفع يده، فإذا آية الرجم، فقالوا: صدق يامحمد، فيها آية الرجم، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجما، فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة".

والقرآن الكريم هو الكتاب الذي أنزله خالق الإنسان على الإنسان وفيه تنظم علاقة هذا الإنسان بخالقه وبنفسه وبغيره من الناس.

فهو الحق بلا منازع ومن تركه فقد ضل وعصى ومن ينكر ولو حكماً واحداً من أحكام هذا الكتاب المبارك – الذي تعهد رب العزة بحفظه – فقد كفر ومن لا يطبق الحدود التي ذكرت فيه، وكذلك من لا يرضى بحكمه متعمداً فقد غوى، ومن طلب العدل بغيره، فقد ضل وعصى وظلم نفسه وقد صدق نزول ما سبقه من كتب سماوية، يجمعها جميعاً توحيد الله بصفاته، ولكنه المرجع لفصل كل خلاف فيها لأنه الصورة الأخيرة لكتب الله المنزلة على العباد، وأما ما سبقه من كتب، فقد تسرب الشك إلى ما تحويه بعدما حدث فيها من التحريف والزيادة والنقصان، كما ولعبت فيها أقلام الأحبار والرهبان لإرضاء نزوات الحكام وأصحاب الأهواء والمتنفذين ويشهد على هذا الإختلاف الكبير بين نسخ تلك الكتب ثم شهادة رب العالمين بتحريفها وإخفاء بعضها، والله خير شاهد ومعنى "المهيمن" في هذه الآية: أي الأمين والشاهد والحكم على سبقه من الكتب؛ لما حدث في تلك الكتب من تحريف وتغيير: فما وافق القرآن الكريم – منها – فهو حق وما خالفه فهو باطل

خاصة وأن الله قد تكفل بحفظه حيث قال سبحانه وتعالى:﴿...وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ورغم إجماع الكتب السماوية على توحيد الله وصفاته فهناك بعض الإختلاف في بعض الأحكام؛ ولكنه إختلاف في الشدة والتخفيف لحكمة أرادها الله؛ فهو يُحرّم ويحلّل ما يشاء. فالمهم هو طاعته فيما أحل أوحرّم﴿...وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ...﴾ والمهم هو أختيار هؤلاء العباد فيثيب الطائع ويعاقب العاصي. قال سبحانه وتعالى:﴿...لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ...﴾ وكلمة "منكم" أي من أصحاب الديانات وكلمة "شرع " الطريق لمورد الماء " والماء هو أساس الحياة، والشرع هو أساس النظام لهذه الحياة، فيه الفلاح والأطمئنان في الدارين"وكلمة " منهاج هي الطريق الواضح المستقيم. ثم تعود تلك الآيات الكريمة لتؤكد وجوب الحكم بما انزل الله، وعدم اتباع الهوى، فمحمد رسول الله ﷺ هو آخر الرسل والقرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية، ومن حكم بغيره وتخطى نظامه لأنظمة وضعتها عقول بشر متناقضة متباينة تتغير حسب الهوى، وتساير رغبات غير ثابتة؛ فقد أنحرف عن جادة الصواب وترك طريق المؤمنين المتقين سار في صحراء الضلال فهوى في النار وبئس القرار يأمرنا الله أن نطيعه ولا نعصيه، وأن نتمسك بشرعه بلا تردد، وهذا هو التسابق في الخيرات لإرضاء الله ﴿..فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ...﴾ من خيرٍ أعظم شرفاً من طاعة الله؟!! وهل من أحد واجب الشكر على نعمائه غير الله؟!! فقد عرض علينا سبحانه وتعالى الهدى والخط المستقيم ثم ترك لنا والخيار: فمن سبق للخير وأطاع ربه الخالق، وحكم شرع الله، واتقى الله حق تقاته، وآمن واستقام حتى اتاه اليقين فرحل إلى الدار الآخرة – الحياة الحقيقية – فقد نجا، من تردد وجعل هوى النفس دليله في خوض غمار الحياة الدنيا، وتعلل بعلل واهية، فلا صدق ولا صلى، ولكن كذب وتولي، فوافاه الأجل المحتوم، هلك في النار، وبئس القرار هذا ولنا في الثبات على الأخذ بحكم الله القدوة الحسنة برسول الله محمد ﷺ:

ففي سيرته ونهجه وطريقته في نشر دعوة الإسلام لنا نـور، فلـم يسـاير ولم يـداهن الكفار أو يتهاون معهم من أجل ترغيبهم وإغرائهم بالدخول في الاسلام، فلم نعلم عنه أنه سايرهم على حساب دينه أو طريقته المثلى، فلم يسـمح بتخصـيص مجلـس لطبقة المتكبرين من ملأ قريش كما طلبوا منه ذلك لم يتملق وفد ثقيف الذي طلـب منه شرط الدخول في الاسلام تأخير هدم صنمهم أياماً حتى يستأنسوا بهـذا الـدين الجديد دين الاسلام بل أمر بهدم صنمهم دون تأخير، وأن يقـوم بمـا أمـر بـه رب العزة وينتهوا عما نهى عنه من صلاة وزكاة المحرمات كشرب الخمور.، ولم يسـكت عن جريمة تلك المخزومية التي سرقت رغم شرف قومها ونسبهم العالي بل قـال في ذلك وبكل جد وصراحة "والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ".

- فكيف يهادن يهود بتعطيل حد من حدود الله؟

- وذلك بعدم رجم الزاني الثيب – لا، لن يستجيب لهـوى يهـود وضـلالهم، ولن يدخل شباكهم المغرية بـل سـيطبق شـرع الله الحـق، بكـل جـد وقـوة وصرامة، والله هو الناصر لدينه، والناشر رحمته على عباده لقد بينـت هـذه الآية، وبكل دقة ووضوح أنه لا يجوز ترك حكم مهما صـغر لرغبـة جامحـة عند كافر أو منافق طلباً لإسلامهم، وترغيباً لهم قال الله عليه وسلم ﴿.... وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ...﴾ [المائدة: ٤٩]. ﴿عَنۢ بَعۡضِ﴾ فقط، فكيف بمن زين لهم الشيطان بأكل المحرمات وشرب الخمـور وكشـف العورات، وتوقيـف الحـدود، مـتعللين بترغيـب الكفـار للـدخول في هـذا الدين!! وكيف بمن يترك الفرائض؛ ليقال عنه أنه عصري تقدمي!!! وكيف بمن ترك كل الدين وليس بعضه، وعطل حـدود الله فأبـاح اللـواط والزنـا والربا وكشف العورات،، ليقال عنه هذا متحضـر عصـري؟! ومـا هـو الا زنديق تردى في مستنقع الفساد والأمراض المعديـة ومصـيره الى النـار الـتي

وقودها الناس والحجارة، وقد عميت بصيرته عن تعاليم كتاب الله المنقذ لأمة الإسلام، والنور الذي يهدي المسلمين إلى طريق الخير والفلاح ويخاطب رب العالمين رسوله الكريم محمداً ﷺ – موضحاً مبيناً تدبيره للكون والإنسان، وكيف يهلك بعضهم فينقلبون خاسرين يتمرغون في لهيب جهنم بسبب إعراضهم وتكبرهم وتمسكهم بالباطل.

ولأن رسول الله لم يلب رغباتهم ولم يستجيب لطلباتهم. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿...فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩]. فقد جنواعلى أنفسهم لا عليك يا رسول الله، وأنهم قد تولوا عن الخير، وتركوا طريق الفلاح، وساروا في طريق الشر، يقودهم إبليس اللعين ويزين لهم طريق الغواية فلا تبتئس ولا تيأس لكثرتهم في كل مجتمع قال الله سبحانه وتعالى: ﴿...وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ فالفسق هو سبب مواقفهم هذه وتختم هذه الآيات الكريمة بسؤال من الله ينكر عليهم التحاكم لغير كتاب الله حيث يقول: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ﴾؟ ثم يبن سبحانه وتعالى وجوب تكريم وتعظيم أحكام الله، لأن فيها الصلاح كل الصلاح للفرد والمجتمع: ﴿...وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فهذا السؤال التقريري يبين أفضلية حكم الله هذه الآية الكريمة لم تحدد عصراً دون عصر ولا مصر دون مصر بل هي صفة لوضع يقع في كل عصر وفي كل مكان، فقد انطبق على العرب قبل الاسلام كما ينطبق الآن على العالم أجمع مادام لا يطبق نظام خالق النظام ولا أحكام خالق الأحكام ولا أخلاق خالق الأخلاق، فأين ما أمر الله به أفراد الله بالعبادة والطاعات؟ ومن الأمانة والتسامح؟ أين مجتمع الأخوة والتعاون والتراحم والاحترام؟ أين مجتمع السلام والعطف والشفقة؟ لا أظن بعد هذه آلاية الكريمة القطيعة الدلالة، قطعية الثبوت التي لوأُنزلت على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله لا أظن أن هناك من يقف

خطيباً أو مشرعاً أو حقوقياً يرفع صوتاً بولاءً لغير الله أو بحكم يتعارض مع أحكام الله إلا أن كان ظالماً لنفسه أو كافراً أو فاسقاً. أو ممن يناصبون دين الإسلام العداء ويتبعون طريق من ذكرهم رب العالمين في هذه الآيات الكريمة، ممن يتبعون الهوى، وممن يسوقهم كيدهم، ومكرهم للإسلام، فيخفون غير ما يبدون ويقومون بتحريض أمم الشرك في الإرض ضد الاسلام بل يقفون في صفهم، وهو يعلمون أن محمداً رسول من الله وأن القرآن الكريم هو كتاب من الله، وسواء كان هذا التحريض من زعماء يهود المدينة أثناء جوارهم رسول الله محمد ﷺ أو كان بتجميع قوى العالم المعاصر في هذا الزمان لإزالة حكم الإسلام من الأرض وقد حذرنا رب العالمين من كيدهم هذا ومن خطورة فكرهم على أمة الإسلام، فما يحذرنا ربنا إلا من شر لا بد حاصل، وخطر داهم يعلمه الله ولا نعلمه إلا في حينه ويوم وقوعه يحذرنا من مكر تلك الشريحة الخطرة التي تقيس الأمور بمقايس البشر وقدرتهم وعلمهم، متناسية قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

فشكراً لك يارب، يامن تدافع عن أمة الاسلام ومبدئها ونظامها الشامل العادل، يامن تحرسها وهي غافلة وتوقظها وهي نائمة، تحذرها من أخطار كيد المجرمين المفسدين، المغضوب عليهم، والضالين المضلين والحائرين المترددين. ما أنزلت هذه الآيات من علاّم الغيوب المطلع على حالنا مسبقاً إلا ليعلمنا سبحانه وتعالى العلاج الناجح والثبات أمام هذه العواصف الهوجاء والفتنة والتفرقة للجسم الواحد، وقطع حبائل الود والأخوة التي جمعت أمة الإسلام قروناً.

فقد حذرنا سبحانه وتعالى من هذه الأيام السوداء أيام الردة والزيغ والتقليد الأعمى والسير على غير هدى، بل وإجتماع الأمم الكافرة على أمة الاسلام إجتماع الأكلة على قصعتها. إننا نقف اليوم على مفترق طرق إما إيمان بالله والعمل بما أمر وإما السير مضبوعين وراء حزب الشيطان، نحكم المخلوقين

العاجزين من البشر بتناقض أفكارهم ونظمهم، وتباين عواطفهم وفساد نفوسهم، من منكم يابني آدم يستطيع دفع الموت عن نفسه فيكون بهذا أحق من الله – الحي الذي لا يموت – في العبادة والتشريع والطاعة والشكر؟

من منكم أيها البشر العُجّز يستطيع خلق خلية حية أو ميتة من لا شيء حتى نقدمه ونعبده ونقدسه، ونلغي شرع الله – القائل للشيء كن فيكون – من أجله؟ من منكم يا أبناء آدم – يا من فضلكم رب العالمين على غيركم من مخلوقاته – يطلع على علم الغيب، وعلم ما تتحدث به نفوس الخلق، فنعظمه ونُجلّه بل ونسجد له من دون الله المطلع على السر وأخفى، وبيده مفاتيح الغيب وعلم الساعة؟

أنعبد العجل كبني إسرائيل في ريعان عزتهم ووحدتهم وحريتهم، أم نطيع كبراءنا الضالين الظالمين وقد حذرنا الله من ذلك. أم نطيع المفسدين، وقد أرانا الله – في عصورنا هذه – عظمة خلقه، وسعة ملكه، ودقة صنعه، وأوفى لنا ما وعدنا؛ قال سبحانه وتعالى – وقبل ثورة العلم التي أظلت الأرض وأعزت البشر وجلبت لهم الراحة بأشكالها –:﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ...﴾[فُصِّلَت: ٥٣]. فقد والله – بينت عظمة الخالق لنا أكبر وأعظم مما تبينت لمن سبقنا من الأمم. وكان واجبنا شكر العالِم المبدع الحافظ الخالق على رحمة أظلت الأرض الواسعة، فهذا الخير العميم الذي تنعم فيه البشرية، وتسرح وتمرح، وتنهض به مرافق الحياة الدنيا يتطلب الشكر لا الفسوق والعصيان والردة، وما يكفر بالله إلا كل مكابر ضال أعمى البصيرة منحرف الذوق، أضله الشيطان فغوى فمن ينظر ما في جسمه من أجهزة من لحم ودم، من عظم وماء وأقنية تسيل فيها الدماء، والدماغ، وما أدراك ما الدماغ، والأعصاب والغدد، تعمل كلها ليل نهار لا بأمر صاحبها ومشيئته، بل هي مطيعة لخالقها الرب العليم القادر؟ فتسير

حسب تنظيمه، وتعمل حسب أمره، وما خلقها له سبحانه وتعالى.

إن من يفكر في عمل القلب والرئتين والكليتين والمعدة وما يفرز فيها والدم وما يحمل في الذهاب والاياب ليطأطىء رأسه منحنياً أمام تلك الخلايا والاجهزة لأمر ربها الخالق القادر ثم يأتي من يرفع رأسه من مستنقع الجهل والغباء قائلاً: إن الله عاجز جاهل عندما حد الحدود وشرع التشريع ونظم المجتمع وهدى السبيل: فأمر بقطع يد السارق وجلد أو رجم الزاني، وقتل المرتد، وحرم الخلوة بالأجنبية، وأوجب لباس الحشمة، كما أوجب حرمة البيوت وإطعام الفقير واحترام اليتيم وأمر بالصلاة والزكاة والحج والصيام، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أقول: ماكان لهذا الجاهل العاجز الضال أن ينعق، بما يقول لو أن في أمه الإسلام حياة. ما كان له أن ينتقد نظام طبق وأعز وأنهض الأمة الإسلام قروناً طويلة. ما كان له أن يتطاول على كتاب الله، وأحكام الله، فيفسد فيها كما يشاء، ويلقي حدود الله ويستبدلها بنظام يدور حسب الهوى والنفس الأمارة بالسوء فيهد نظام الأسرة الشريف، ويبني على أنقاضها نظام الخيانة والزنى واللوط والتفكك والانقسام. ويطلق يد الجشع وجمع المال في يد طبقة من الأمة – والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿....كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ...﴾[الحشر: ٧]. فقد ملك الأغنياء لا المال فقط ولاالكبرياء في الأرض فحسب بل فتحوا باب نفس لا تشبع، وجعلوا من الإنسان كلباً إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث، فتحوا أبواباً لكسب ثروة قد حرمها الله كالربا والاحتكار والغش وشرعوا التشريع وجندوا الجند واخترعوا السلاح الفتاك لحماية ظلمهم وفجورهم وكنوزهم وفسقهم.

أين تقف ما اسميتموها حريات أمام آيات الله فأين تقف حرية التملك "تملك ما تشاء بأي طريق تشاء" أمام معد الجياع وقطرات العرق التي تبلل الأرض وظلم

القوي بماله للضعيف بفقره؟

وكيف يقف فساد الحرية الشخصية وما أنتجته من فساد بنظام الأسرة الشريف، وما تبعه من أمراض المجتمع والأفراد، وحصون الإخلاق التي تهدمت والقيم الرفيعة التي اندثرت. وأين تقف حرية الرأي أمام قول رسول الله محمد ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به" وقول رب العالمين: ﴿...وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ وقول رسول الله محمد ﷺ " ومن بدل دينه فاقتلوه". من من أهل التشريع الوضعي والحكام والقضاة سيقول يوم الحساب لرب العالمين لقد حكمت بالقانون الوضعي لانه أعدل وأقوم مما أرسلت لنا مع رسلك، يقول أن الغالبية من نواب الأمة، كانت تريد نظام الكفر وتبديل الشرع فسرت مع رغباتهم أو يقول لقد اتبعت أهل الكفر والفلسفة والقانون وهم زبدة الأمة، والرأس المدبر والمدير لها، هم النور الذي تهتدي به الشعوب والأمم، فلن أترك ما قاله "مونتسيكيو" في كتابه "روح القوانين حيث يقول عن السود في أفريقيا – وذلك في القرن الثامن عشر الميلادي: "إن لنا حقاً مكتسباً في اتخاذ الزنوج عبيداً وإن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لم يعد أمامها إلا أن تستعبد شعوب أفريقيا لكي تستخدمها في استغلال هذه الأقطار الفسيحة فما هذه الشعوب إلا عناصر سوداء البشرة من قمة الرأس إلى إخمص القدم، ولا يمكن أن الله جلت قدرته وهو ذو الحكم البالغه يضع روحاً طيبة في مثل هذا الجسم الحالك السواد".

المراجع:-

- شلبي ج٦ ص ٤٣٧ – كتاب روح القوانين
- العمري ص٩٦- حاضر العالم الاسلامي
- قضاياه المعاصرة ج١ ص٦٥٩.
- فهذه الوثيقة لهذا المشرع هي من أعظم ما كتبته يد مرجع من أعظم مراجع النظام الوضعي الحديث في عالم اليوم.

وأخذت به الدول والقضاة والحكام وقدمته على نظام الاسلام، نظام خالق النظام والبشر والارض والسماء.

ولا يفوتنا أن نذكر قول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً".

١٣ - التحذير من موالاة أهل الكتاب

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٣].

هذا هو القول الفصل، والأمر الذي لا يرد والوعيد القاسي الشديد، والوعد الحق، والتوجيه المنير، لجماعة المسلمين؛ من خطر محدق، ورحى حرب ضروس متواصلة، لا توقفها السنون ولا القرون، ولا تعتريها فترات نسيان.

والخطاب للذين آمنوا، والأمر من الله، العالم بما كان وما هو كائن، وما سيكون عالم الغيب والشهادة يحذر رب العزة أولياءه من المؤمنين، الذين صغت قلوبهم، ووضحت عقيدتهم؛ يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أصحاب العروة الوثقى التي لا انفصام لها، أداة الخير للناس جميعاً. لا يتبعون هوى النفس، ولا يفرقهم مكان ولا جنس: الصامدون الثابتون في البأساء والضراء وحين البأس؛ منارات الهدى، والنور والمبدد لظلمات الجهل والشرك والفسوق والعصيان عبدوا الله بصدق ويقين، فرعاهم سبحانه وتعالى بعنايته، وحباهم برعايته؛ فحذرهم من خطر ثالوث مجرم مفسد، وبركان ثائر لا تخمد حممه، ولا تطفأ ناره عداء دائم، وكره وحقد وحرب وفساد؛ لا تنسى من يؤجحه تطاول قرون تمضي؛ ولا عصور تأتي قال سبحانه وتعالى – محذراً 'أمة التوحيد:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ... ﴾ [المائدة: ٥١].

الولاء: هو الميل إليهم وحبهم وتمني النصر لهم وطلب النصرة منهم، كولاية اليهود والنصارى هذه الأيام ولا يعني، الدخول في دينهم، فاليهود ليسوا على دين النصارى، وكذلك النصارى ليسوا على دين اليهود، ومع هذا هم في خندق واحد ضد الإسلام؛ رغم ما بينهم من عداء.

ثم يبين سبحانه وتعالى وبكل وضوح مصير من والاهم، ودخل معهم في ذلك الخندق فإنه منهم، وهذا هو حكم الله خالق الخلق، والحاكم العادل، مالك يوم الدين، الذي أنزل القرآن الكريم تبياناً لكل شيء، فيه الأحكام الواجبة الإتباع، وفيه النهي الواجب الترك فهو ينهانا ويحذرنا من موالاة اليهود والنصارى وهو عالم الغيب، القادر الفعال لما يريد، ثم يبين حكمه العادل، بحق تلك الشريحة التي انحرفت عن طريق الإسلام، الصراط المستقيم، وتركت جادة الصواب؛ بخسران الهداية التي هي أعظم هدية يتلقاها أهل الأرض من ربهم وما بعد الهداية إلا الضلال؛ والضلال طريق السقوط في النار، وبئس القرار﴿...إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

إنهم قوم ظالمون؛ وذلك أنهم تركوا الهداية، وما فيها من خير ونجاة واتبعوا شياطين الإنس والجن، فأوردوهم دار البوار.

ويحشر الإنسان يوم القيامة مع من أحب؛ فهذا عبادة بن الصامت، يقول: "إني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، فسيحشر يوم القيامة مع من أحب – إن شاء الله – وأما عبد الله بن أبي فقد قال – في نفس الموقف والمناسبة -: "لكني لا أبرأ من ولاية يهود إني رجل لا بد لي منهم".

وقيل أن من أسباب نزول هذه الآيات الكريمة كما قال ابن جرير الطبري – عليه رحمة الله -: "حدثنا هناد، حدثنا يونس ابن بكير، حدثنا عثمان أبن عبد الرحمن عن الزهري؛ قال: لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من اليهود؛ أسلموا

قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر. فقال مالك بن الصيف: أغـركم أن أصـبتم رهطاً من قريش، لا علم لهم بالقتال؟ أما لو أصررنا العزيمة أن نسـتجمع علـيكم لم يكن لكم يد أن تقاتلونا، فقال عبادة بن الصـامت: يـا رسـول الله إن أوليـائي مـن اليهود كانت شديدة أنفسهم، كثيراً سلاحهم شـديدة شـوكتهم، وإنـي أبـرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، ولا مولى لي إلا الله ورسوله.

فقال عبد الله بن أبي: لكني لا أبرأ من ولاية يهود إني رجل لا بد لي مـنهم، فقال رسول الله ﷺ: " يا أبا الحباب أرأيت الذي نفسـت بـه مـن ولايـة يهـود علـى عبادة بن الصامت؟ فهو لك دونه"فقال: إذن أقبل...".

فكان أن نصر الله رسوله والمسلمين على أعدائهم من اليهود في غـزوات بـني قينقاع والنظير وقريظة ويهود خيبر ثـم كانـت انتكاسـات متتابعـة للنفـاق وأهلـه. أجارنا الله وإياكم من عواقب النفاق وشروره.

كما ألغت هذه الآية الكريمة ما كـان بـين بعـض الأنصـار في الجاهليـة، وبـين بعض اليهود من ولاء، فلا ولاء بين الكفر والإيمـان، فكـل ولاء أو خلـق لا يقـوم على أساس الإسلام فهو باطل. وتحددت الجبهات: فهناك صف الإيمـان الموحـدين يقابله صف الكفر من أهل الكتاب والمشركين ومن والاهـم وقـد كـان ذلـك عـبر التاريخ فقد ثبت تحالف البيزنطيين من الروم مع عبدة النار من المجـوس، والمرتـدين من المسلمين "الباطنية" مع الصليبيين.

والهنود من عبدة الأصنام والبقر مع المستعمرين الكفار من أوروبـا. والـروس مع الصينيين الوثنيين، ثم جاء دور العالم الكافر ضد أمة الإسـلام في هـذا العصـر، فقد اجتمعت أمم الكفر على أمة الإسلام اجتماع الأكلة على قصعتها وقد صـدق سيد قطب رحمه الله – في كتابه في ظلال القرآن حيث قال: ... وسذاجة آية سذاجة وغفلة آية غفلة، أن نظن أن لنا وإياهم – يعني أهل الكتاب – طريقاً واحداً نسـلكه للتمكين للدين! أمام الكفار والملحـدين! فهـم مـع الكفـار والملحـدين، إذا كانـت

المعركة مع المسلمين!!

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان وفي كل زمان، حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد – بوصفنا جميعاً أهل دين: - ناسين تعاليم القرآن كله، وناسين تعاليم التاريخ كله. فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين " هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً " وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة، وكانوا لهم درعاً ورداءا.

وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين شنوا الحرب الصليبية خلال مئتي عام، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم الذين شردوا العرب المسلمين في فلسطين واحلوا اليهود محلهم، متعاونيين في هذا مع الإلحاد والمادية! وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان... في الحبشة والصومال واريترية والجزائر، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية، في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند، وفي كل مكان ثم يظهر بيننا من يظن – في بعد كامل عن تقريرات القرآن الجازمة – أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر. ندفع به المادية والإلحادية عن الدين!

إن هؤلاء لا يقرؤون القرآن. وإذا قرؤه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام، فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن " " ص٧٦٠جـ٤ – ط٧ ١٣٩١هـ١٩٧١م – في ظلال القرآن بقلم سيد قطب- دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبان "

نعم إن الخلط بين سماحة الإسلام وتعامله مع أهل الكتاب صحيحة، وبين ما يحذرنا الله منه ومن عاقبته الوخيمة في هذه الآيات كان من أسباب تهافت بعضهم وبكل حسن نية وسذاجة على التقرب من أهل الكتاب ظناً منه أن هذا يخدم عقيدة الإسلام ودعوة الإسلام.

ولو رجعوا لما حذرت منه هذه الآيات وراجعوا تاريخ الإسلام مع أعداء الإسلام وحروبه ضدهم لظهرت لهم جريمتهم تلك بأبشع صورة وأفظعها!!! وإلا كيف تزامن ظهور ملا حدة الباطنية في بلاد الشام خاصة والعالم الإسلامي عامة مقدمة للحروب الصليبية، وكيف تزامن إيقاف المد الإسلامي الذي وصل القمة في القوة في بلاد الهند مع حركات التبشير المرافقة للاستعمار الغربي ثم كيف جلس اليهود والنصارى في هذه الأيام في خندق واحد في فلسطين ضد الإسلام، وفي شرق أوروبا ثم في الفلبين ووسط آسيا.

وأخيرا نبش الحضارات الوثنية القديمة بعد أن هلكت مع أهلها في مصر والهند وعند الترك والبربر وغيرهم. كل هذا بتحريض من أهل الكتاب وبمساعدة الظالمين المنافقين في بلاد الإسلام؛ وهذا ما حذرنا الله منه حيث يقول سبحانه وتعالى – فيمن ضلوا بولائهم لأهل الكتاب: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ... ﴾ [المائدة: ٥٢].

وفي كلمة "يسارعون" هذه وحرف "الفاء" المعروف بالسرعة كحرف عطف في كلمة "فترى" مايدل على ارتماء هذه الفئة الضالة من المسلمين وبسرعة وبدون تفكير كاف في العاقبة ولا روّية، ولا تقويم للنتائج، واختيار الأحسن ولأنجح والأفضل، بل ألقت بنفسها وبمصير أمتها ودينها طائعة؟ وبكل ذلة وتودد، وفي أشد وأحلك الظروف أمام رأس الكيد والمكر والكره من أهل الكتاب، وعندما توعظ وترشد وتذكر بنتيجة هذا الشذوذ تجيب وبكل خفة وسذاجة بأن مصلحتهم في تلك الموالاة ونسي هؤلاء أن لا عهد لكافر والقرآن والتاريخ يشهدان على ذلك وأن صحبة المنفعة حبلها بالٍ قصير يقول هؤلاء الظلمة – وكما زين لهم شياطين الإنس والجن – ﴿... نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ...﴾ لان طبيعة الأيام أنها دول؛ وقد تدور الدائرة على جماعة المسلمين أو دولتهم – لا سمح الله – فنكون عندئذ قد أنقذنا

أنفسنا وهيبتنا وحافظنا على عزتنا وكرامتنا.

وتأتي سرعة الإجابة، والحجة القوية من عالم الغيب والشهادة، سند المؤمنين؛ تأتي مصحوبة أيضاً بحرف "الفاء" وكلمة "عسى" في كتاب الله تعني النصر المحقق والوعد الحق بذلك، حيث قال الله سبحانه وتعالى: ﴿...فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ...﴾ [المائدة: ٥٢].

وهذه أعظم بشرى للمؤمنين الثابتين المتمسكين بشرع الله، وفي كل عصر ومصر، تجعل المؤمن قوي الثقة بنفسه في مواقفه ضد الكفر سواء كان ذلك باللسان أو القلم أو السلاح، فهذه بشرى ووعد من الله، إن عملنا بأسباب النصر وقمنا بالإعداد الكافي له، فما من شك بالنصر بعد هذه البشرى.

وفاعل "الفتح" هو الله ولن يخلف وعده والفتح قد يكون بنصر المسلمين أو ظهور دين الإسلام، فليس بالضرورة أن يكون هو فتح مكة المكرمة، كما تذكر أسباب نزول هذه الآيات، وقد تكون نزلت بعد فتح مكة كما تقول بعض الروايات.

ولا يربط الأمر هنا بخصوص السبب بل بعموم اللفظ والبشرى حاصلة – إن شاء الله –، والنصر قادم. فكل نصر للمسلمين هو فتح فإرجاع القدس أيام الحروب الصليبية للمسلمين هو فتح أيضاً ودخول أمم الأرض في دين الإسلام هو فتح، والمآذن المشرعة في مدن وقرى أقطار الأرض هو فتح.

﴿...أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ .....﴾ آية من عند الله تفضح سريرة هؤلاء المنافقين، وتكشف حبهم وتعاملهم مع الكفار، وخيانتهم لأمة الإسلام، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا

فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة: ١].

نعم، إن الله يعلم ما نخفي وما نعلن مهما أخفى أهل النفاق والعملاء عن شعوبهم، ومهما قيل في سراديب سفارات الأعداء يعلمه الله، ويعلم ما يحاك من مؤامرات على كتاب الله وأمة الإسلام ويجيب رب العزة على حصيلة هذا كله قائلاً ﴿...وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة: ١].

والضمير في كلمة "منكم" يرجع لخونه ومنافقي أمة الإسلام سواء كان في القديم أو في هذا العصر. فلتتق الله تلك الشريحة الظالمة من الأمة، فلا تضل سواء السبيل؛ فتسير طريق الضلال والكفر والردة. فكفى ما قدموه لأمة الإسلام من ذلٍ وعبودية ودماء ودموع قد بللت أرض فلسطين – الأرض المباركة – بل قل بللت أرض الإسلام جمعاء.

من أجل ماذا؟ وما الثمن؟ وماذا ستقول غداً أمام الملك العادل الذي لا تخف عليه خافية، الرب الخالق العليم الذي يسمع استغاثة بنات فلسطين وكشمير وشرق أوروبا بل قل بنات المسلمين المظلومات؛ يسمعها سبحانه وتعالى بدون حجاب، هو يمهل ولا يهمل؟!! أتقول معتذراً لله عن بيع الأرض المباركة والأقصى الشريف بكأس خمر أو بابتسامة عاهرة فاجرة أو بدريهمات تنافس بها غيرك في بناء قصر ورياش ومزارع.

ورغم ما قدمتموه لهؤلاء الكفار فلن يرضوا عنكم وقد حصل لهم ما أرادوه وما خططوا له من تمكينهم في أرض ضحى من أجلها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، عبر العصور والقرون، وورثها هؤلاء الذين اتخذوا عدو الله وعدوهم أولياء، خانوا الله وأمة الإسلام.

ثم يبين لهم نتيجة عمالتهم لأعداء الله والتودد لهم بقوله تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ فهذا التحذير الصادق من خالق الكون والإنسان، فيه النصح والإرشاد، لو أن في أمة الإسلام من يسمع فينتصح، ويزيل الغشاوة عن بصيرته؛ فيتوب ويرجع يسمع كلام الله الذي هو النور يضيء لنا الطريق، ويوضح لنا سبيل النجاة مما وصلنا إليه من فرقة وذلة وهوان قال الله سبحانه وتعالى – يصف حال هذا الثالوث المجرم، عندما فتح الله على المؤمنين وانتصروا على اليهود والمشركين في جزيرة العرب –﴿...فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

هذه حال من خان الله ورسوله وأمة الإسلام، وسار وراء سراب وعود أعداء الله؛ فندم ولآت ساعة مندم!!!

يقول الله سبحانه وتعالى – فاضحاً وعد المنافقين في المدينة لأوليائهم من اليهود؛ حين قالوا مشجعين بني النضير ليثبتوا أمام حصار جيش الإسلام لهم. ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١ - ١٢].

الولاء يقترن بالأخوة: فالمنافقون هم للكافرين أخوة. ثم إن المنافقين رغم إظهارهم الولاء لأمة الإسلام في الظاهر.

يقولون بالسرّ لليهود ﴿"...وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ فقد خرجوا على دولة الإسلام وانضموا لجبهة الكفر. وكلمة "أبداً" هنا لتأكيد عهد الولاء وتطمين اليهود بذلك.

لقد وعدوا بني النضير بالخروج معهم إن أخرجهم رسول الله ﷺ، ومع هذا وعندما أخرجهم رسول الله ﷺ لم يخرجوا معهم فقد أمتد نفاقهم حتى عم أولياءهم.

وقد أخبر عالم الغيب جل جلاله – عن هذه المعاهدة السرية. كما أخبر عما يجول في نفوس هؤلاء المنافقين من خيانة وإغراء وتوريط لإخوانهم من اليهود ثم تركوهم في تلك المعركة بدون نجدة ولا مساعدة.

هذا ما حصل أيضاً عندما حكم عليهم رسول الله ﷺ بالرحيل، فلم يحرك المنافقون أي ساكن لمساعدة حلفائهم هؤلاء﴿...وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ...﴾ مشيرين لهؤلاء المنافقين الذين عاهدوا الكفار من اليهود بمساعدتهم ونصرتهم ولو وصل الأمر للقتال أو الرحيل معهم ﴿...أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ ... خَٰسِرِينَ ﴾[المائدة: ٥٣] .

فهذا تعريض بالمنافقين وبمن حالفهم من اليهود وكل يمكر للآخر، وكل يخاف المسلمين أكثر من خوفهم من الله.

فرغم الأيمان التي وصفها المطلع على السرائر وعلى تلك المعاهدة السرية وهي أعلى وأعظم أنواع القسم. ومع هذا لم ينفذوا ما تعاهدوا عليه خوفاً وفرقاً من المسلمين، ويتعجب المسلمون من مواقف هؤلاء المنافقين مع حلفائهم من اليهود ثم تختم هذه الآيات البينات بالنتيجة الحتمية لولاء الظالم المنافق، وما يعتري سلوكه من تناقض وتردد – ومن صفاته كثرة الإيمان الكاذبة، والنيّة السيئة والاحتيال والمداهنة.

قال الله سبحانه وتعالى:﴿...حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾[المائدة: ٥٣].

فقد خسروا أخوة المسلمين، والثقة بهم، كما خسروا صحبة الكفار

ومناصرتهم.

فكل ما عملوه من خير لأمة الإسلام أصبح هباء منثورا، حيث فضحوا وعرفت خيانتهم بطعنهم أمة الإسلام من خلف غدراً وخيانة كما خسروا الدنيا بمصاحبتهم أمة الكفر الفاسدة التي أذلتهم ولفظتهم ورمتهم رمي النواة.

ما كان هذا التحذير لعصر دون عصر بل هو مصاحب لكتاب الله الذي أرسل لينير للمؤمنين طريق الخير والهداية لمن أرادها حتى تقوم الساعة.

فهذه الآيات الكريمة مخاطب بها مسلم اليوم ومسلم الغد كما خوطب بها صحابة رسول الله محمد ﷺ.

فالله سبحانه وتعالى ينادي المؤمنين من عليائه محذراً ومنبهاً وواعظاً لهم من خطر محدق بهم لا في أيام نزول القران الكريم على نبيه في عهد صحابته الكرام فحسب، بل هذا التحذير مستمر ما استمر عداء جبهة الكفر الذي لا تطوية الأيام والسنون بل هو باق براكين حقد ومكر وفساد تثور كلما وجدت تنفساً أو ضعفاً عند أمة الإسلام فالحذر الحذر من خطر محدق بأمة التوحيد إذا اجتمعت قوى هذا الثالوث المجرم المفسد فهو يحذرنا من ثالث الأثافي ومن موالاتهم لليهود والنصارى. وقوله سبحانه وتعالى عن جبهة المنافقين: ﴿.. فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ ...﴾ يدل على اتحادهم وتناصرهم وأخوتهم ضد أمة التوحيد وباستمرار إلى يوم القيامة رغم ما ذكره سبحانه وتعالى من عداء بينهم لا تبليه السنون والقرون.

لا بين اليهود والنصارى بل وبين النصارى بعضهم مع بعض، وبين اليهود بعضهم مع بعض والمنافقين أشد عداوة، وأعظم تفرقاً، ورغم هذا يخبرنا سبحانه وتعالى محذراً من اجتماع كلمتهم علينا ومحاربتنا. هذا ما أثبتته – وبكل وضوح – حروبنا معهم في قرون طالت وامتدت ولا تزال متجددة تزيد ولا تنقص، وتشتعل ولا تخمد؛ تشعلها يد أثيمة مجرمة، وحسد ومكر وكيد فهم قد تحالفوا مع عبدة

الأصنام من العرب المشركين، لحرب وحصار مدينة الرسول محمد عليه والصلاة والسلام وخانوا العهود والمواثيق التي أبرموها مع رسول الله محمد ﷺ. فلا عهد ولا ميثاق لكافر ظالم. وقد صدق قائلهم عندما قال: أحالف الشيطان في سبيل النصر.

نعم، لقد حالف راس الإلحاد "روسيا " في عهدها الشيوعي ضد الألمان أبناء دينه النصراني وذلك في الحرب العالمية الثانية من القرن العشرين.

فهذه الآيات الكريمة يمتد تحذيرها لأمة الإسلام ما دام في الأرض كفر وإيمان.

فمن يتتبع خطط المبشرين الذين تسندهم وتساعدهم الدول الاستعمارية القديمة والحديثة – سواء كان استعمارها عسكرياً أو ثقافياً أو اقتصاديا – يذهل من أعمال وفساد وجرائم؛ الأسبان والبرتغال ثم الإنجليز والفرنسيين في أفريقيا وجنوب شرق آسيا والروس في شمال آسيا إلى حدود الصين، يتحالف الجميع مع عبدة الأصنام من البوذيين والهندوك.

وهم الذين أوغروا صدروا أهل الصين والهند ضد المسلمين، ففي الهند كانوا هم السبب الرئيسي في إيقاف المد الإسلامي فيها. وهم الذين شجعوا عبدة الأصنام من العناصر الهندوكية، وأمدوهم بالسلاح والقوة لطرد المسلمين المنقذين الناشرين لدين التوحيد في تلك البلاد التي عشش فيها الشيطان، وأفسد الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي توحيده في العبادة فقد أعلن الحاكم البريطاني اللورد "النبرو" في القرن التاسع عشر الميلادي ما نصه "إن العنصر الإسلامي في الهند عدو بريطانيا اللدود وأن السياسة البريطانية يجب أن تهدف إلى تقريب العناصر الهندوكية إليها، لتساعدهم في القضاء على الخطر الذي يتهدد بريطانيا في هذه البلاد" ص٣٩٧ حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة.

وقد التفت قوى أوروبا حول أفريقيا من الجنوب وعن طريق سيبريا في

شمال الكرة الأرضية هرباً من مواجهة الدولة الإسلامية – في العهد العثماني – في البحر المتوسط وشواطئه وشرق أوروبا وشمال أفريقيا في ذلك الوقت.

وما زالت رحى الحرب دائرة والكيد للمسلمين مستمراً من أعداء الدين، رغم تفتت العالم الإسلامي وما فعلته الحضارة الغربية والاستعمار بالمسلمين من تضليل وردة. وما قامت به دول الكفر من نهب لثروات البلاد الإسلامية واستعمار وإذلال لهم.

وهذا ما حذرنا ربنا – علام الغيوب – به مسبقاً من هذا الثالوث الخطر. فنرى اجتماع تلك القوي من يهود ونصارى ومنافقين على استعبادنا ومص دمائنا.

فإذا كان ابن أبي وحزبه من الموالين لليهود والنصارى قد استطاعوا إرجاع ثلث جيش المدينة صبيحة أشد معركة واجهها رسول الله ﷺ والمسلمين – معركة أحد – في ذلك العصر والوحي ينزل ورسول الله ﷺ يقود أمة ففي هذا العصر البلاء أشد، فقد اجتمعت على أمة الإسلام الأمم الكافرة اجتماع الأكلة على قصعتها وبدل أن يكون رد الفعل من المسلمين يتوجه نحو نحر الأعداء استطاع هذا الثالوث بكيده ومكره وفساده أن يوجه رد الفعل هذا نحو صدر أمة الإسلام وذلك لتشتيت شمل هذه الأمة الماجدة الفاضلة.

فقد عاشت شعوبها في دولة واحدة متماسكة تجمعها أخوة الإسلام عربهم وعجمهم يصلون لقبلة واحدة، ويصومون شهر رمضان ويحجون لبيت الله الحرام.

هذا ولم يبق بين أيدينا الآن إلا شعاع الأمل الذين بشرنا الله به حيث قال سبحانه وتعالى﴿... فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾[المائدة: ٥٢].

فالنصر آت – إن شاء الله – ولا يوخره غير سوء الإعداد وعدم وجود النية الصادقة، وعدم التمسك بالعروة الوثقى، والأخوة الفضلى وعدم تحكيم كتاب الله

وسنة رسول الله محمد ﷺ.

لنذكر كلام أعداء الله من الكفار حيث يقول وزير المستعمرات البريطاني "غلادستون" في مطلع القرن العشرين – وهو يقف أمام برلمان بلاده، وبيده مصحف ويقول محذراً لهم: "مادام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكم المسلمين لذلك لامناص لنا من أن نزيله من الوجود أو نقطع صلة المسلمين به" قال الله سبحانه وتعالى فيمن طلب العزة بولاء الكفار: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

١٤ - الردة

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦].

ويأتي التحذير من خطر الردة التي هي قاصمة الظهر، حيث لا يعادلها خطر على أمة الإسلام، وما كانت ردة العرب في عهد خليفة رسول الله أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – وبعض أهل الأندلس، وبعض أصقاع الهند، وشرق أوروبا إلا إرهاصات الردة الكبرى والمصيبة العظمى في هذا العصر فقد كادت أمم الكفر بأمة الإسلام، على حين غفلة وجهل في تعاليم الدين، فأختلط الأمر على المسلم فأمسى غريباً في وطنه، خائفاً في حماة، جاهلاً بأمور دينه، فلم يعد يفرق بين الكفر والإيمان، وسار هائماً على وجهه في صحراء الجهل، ومستنقع الغباء.

حيث غطت حجب الجاهلية نور اليقين الذي كان ينير له طريق الصلاح والفلاح. فلم يعد يفرق بين الإيمان بالقرآن الكريم والعمل بأحكامه وحدوده، فترك الصلاة وهي عمود الدين، وأكل حق عباد الله في الزكاة، وحج إلى آثار قصور وحصون الظلام المتجبرين في أرض الله، وترك بيت الله والحج إليه وصام عما أحله الله، وأفطر على ما حرمه وأكل أموال الربا معلناً محاربة الله عز وجل قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ .... ﴾ [البقرة: ٢٧٨ – ٢٧٩].

وقد ربط سبحانه وتعالى بين الإيمان وبين ترك الربا فمن منكم يا مسلمون يترك الربا حفاظاً على إيمانه وتقواه واسمعوا حكم الله لمن لم يتعظ بهذه الآيات ويترك الربا ويتوب:﴿ ...فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ....﴾. فما أعظم هذا الوعيد وما أشد هذا التهديد.

روي عن ابن عباس أنه قال: "يقال يوم القيامه؟لآكل الربا خذ سلاحك للحرب " وأنى له السلاح!! وكيف يرفعه في وجه خالق القوة والسلاح؟ فليستشعر من بقي في قلبه ولو ذرة من إيمان هذا الموقف المخيف. ولا يتخذ كتاب الله سخرياً، ويستهزأ بآياته وبالمؤمنين من عباده؛ وليترك أحكام الكفر وليحافظ على حدود الله، وأحكام الشرع، ولا يتبع الشيطان ووسوسته وتزينه، ولا النفس الأمارة بالسوء، فيظن نفسه مسلماً مؤمناً، وهو يغرق في بحر الجهل والضلال، وقد ضُبع بأفكار الكفر؛ فسار دون إمعان فكر، يلهث وراء الحياة الدنيا بزخرفها وقد نسي الموت ويوم الحساب وأبواب الجنة والنار فهو يعيش في جاهلية هذا العصر؛ التي تتناقض مقاييسها مع قيم الإسلام؛ بل هي الكفر عينه قال سبحانه وتعالى – مخاطباً ومحذراً أمة الإسلام﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ...﴾ [المائدة: ٥٤].

فقد عظم الأمر، وعم البلاء، واتسع الجرح، وتضاعف الألم وظهر هول الجريمة، فلم يعد الأمر بتحذير شريحة من المؤمنين خوفاً من وقوعهم في شباك أعداء الله من أهل الكتاب وولايتهم، بل لقد استشرى المرض، واتسع الفتق على الراقع.

فالخطاب الآن لشريحة من الأمة أعماها الجهل بامور دينها، فانتقلت من صف المؤمنين الموحدين إلى صف الكفار، وبكل تحد لأمتهم ولحزبهم ولجماعة المسلمين معلنين الردة، ظانين بالله ورسوله والمؤمنين ظن السوء، فضلوا وانساقوا مع تيار الكفر وزخرف الحياة، يطلبون العزة والنصر والسيادة والغنى من الكفار، ومن جبهتهم وحزبهم فكان رد رب العزة على هذه الشريحة الفاسقة التي ضلت،

فانضمت لصف أعداء الله من أهل الكتاب أن الله سيعوض أمة الإسلام بدلهم بمن هم أفضل وإعظم قيمة عنده منهم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿.... وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

﴿... فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٖ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ...﴾ [المائدة: ٥٦].

وكلمة "قوم" هي جماعة كبيرة وليسوا أفراداً تخطفهم الشياطين فضلوا وارتدوا وطلبوا العزة عند من لا يملكها واما الجماعات البديلة الخيرية فهم مؤمنون مطيعون أعز الله بهم أمة الإسلام العصور الطويلة والقرون العديدة.

روي ان رسول الله ﷺ قال عند نزول هذه الأية الكريمة "هم قوم هذا " وأشار إلى أبي موسى الأشعري وهو من أهل اليمن.

وقيل هم جماعة سلمان الفارسي من بلاد الفرس. وقد أعز الله الإسلام بإقوام غيرهم من الهند والترك والبربر والروم والقبط والزنج. وما زالت أقدامهم تتعارك في أرض الحرم الشريف بمكة المكرمة طوال العام مهللين مكبرين مستجيبين لأمر الله بالحج والطاعة.

يصفهم رب العالمين بقوله ﴿... يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ...﴾ ورباط الحب أمتن وأقوى رباط بين الناس، يتخطى الأوطان والأقوام والجنس والعرق مرفرفاً صاعداً فوق ضباب وغيوم الأرض.

والحب: هو ذلك السهم الذي خلقه الله ليغزو حركاته وسكناته؛ وتتعطل الحواس، فلا تشعر إلا به، وتتجمد الإرادة إلاّ بما يوحيه ذلك المحبوب هذا هو مقياس الحب في هذه الأرض. فقد احبهم الله – لسلوك فاضل وطاعة اتصفوا بها – ومن أحبه الله أوحى لملائكته ومخلوقاته بحبه.

وذلك لأنه أطاع الله واحبه وعرف أن الله هو مالك نواصي العبادة وانه الصمد الراعي لهذا الكون وما فيه.

فأصبح هذا المؤمن أسير ذلك الحب فغدا سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ونوره الذي يهتدي به.

وهذه المنزلة لا تكون إلا لمن صفت نيتهم وعظمت تقواهم وظهرت طاعاتهم لله الخالق المسيطر القادر الرحيم.

وهذا الحب كحب المرء لوالديه وحبهم له وتكريمه لهم بدون مصلحة آنية، وليس لهذا الحب حدود ولا تقف دونه سدود، فمهما مرت به من سحائب بغض وعواصف نكد لا بد من الرجوع لهذا الحب الثابت الذي لا تزحزحه الفتن ولا تنزعه المحن ولا تطغى عليه غبار السنين ولا بعد المسافات قال الله سبحانه وتعالى: ﴿. . .أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ . . .﴾ وهذا الذل يشبه ذل الابن لوالديه؛ فهو يخفض جناحه لهما من الرحمة.

هذا هو عمود ثبات الجماعة المؤمنة؛ فالإيثار والتواضع والحب وجبر الكسر والاحترام والعطف هذه من دعائم ثبات المجتمع المسلم وقوته والتراحم والتالف بينه كمثل الجسم الواحد فلكل عضو أهميته وحسه ولنذكر أن محمداً رسول الله ﷺ قد أرسل جيشاً قوامه ثلاثة آلاف لتأديب أمير من الغساسنة في جنوب الأردن لانه قتل الحارث ابن عمير الأزدي رسوله إلى ملك بصرى وهو يعلم قوة جيش الغساسنة وما يسنده من جيش الروم فكانت غزوة مؤته.

قال الله سبحانه وتعالى – يصف رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ . . . .﴾ [الفتح: ٢٩].

ثم يذكر سبحانه وتعالى – صفة من يخلف المترددين المرتدين من المؤمنين –:

﴿. . .أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ . . .﴾ عيونهم كعين الأسد يتحفز للانقضاض على فريسته بحرارة وقوة وغضب. فهم قد أظهروا العزة والجبروت والشجاعة والثبات أمام الأعداء من الكافرين.

استهانوا بالحياة في سبيل الانتقام ممن أعلنوا العداء لرب العالمين ولأمة الإسلام ولحزب الله – قال الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله محمد ﷺ: " ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذاراه أو شهده، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو أن يذكر بعظيم".

كما ثبت في الصحيح: "ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه" قالوا وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: "يتحمل من البلاء مالا يطيق.

ومن صفاتهم أيضاً أنهم: ﴿...يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ....﴾ يبذلون الجهد والمال والعمل المتواصل ليل نهار لا ظهار القوة أمام عدو الله وعدوهم يعدون العدة، ويطورون السلاح لحماية دين وأرض وعرض لا يحميه كثرة الدعاء فحسب بل تحميه دولة تسندها أمة هداها الله لنوره وجندها لنشر دينه، وتحطيم أسوار وحصونه منعت نور الإسلام من الوصول إلى عباد الله، فهؤلاء الجند هم سيف الله في الأرض، وهم المخلصون الثابتون الحاملون لراية الإسلام خفاقة في أصقاع الأرض.

﴿...وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ...﴾ ﴿لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ كلا الكلمتين نكرة تفيد العموم. فسواء كان المعني تعريضاً بالذين يحاربون مع المسلمين من المنافقين الذين ولاؤهم للأعداء الكفار. هؤلاء يتحاشون إيذاء حلفائهم من هؤلاء الكفار فيفرون من المعركة ليلحق بهم ضعفاء المسلمين أو يصوبون سهامهم وسلاحهم بعيداً عن حلفائهم من الكفار خوفاً من لوم الكفار لهم. أو كان هذا اللوم من الأهل حرصاً على حياتهم وخوفاً عليهم من القتل. فهذا اللوم أو ذاك يدخل ضمن معنى هذه

الآية الكريمة التي تصف المعركة والمحاربين بكل دقة ووضوح، وتكشف أسرار النفوس وما يحصل في الخفاء؛ كيف لا والذي يصف ذلك هو خالق الخلق، السميع البصير، العليم الخبير.

ثم يذكر ثبات وصبر المؤمنين في ساحة الوغي؛ التي تطير فيها جنان الشجاع المؤمن بقوله: ﴿... ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ .

فقد أنعم عليهم بالسير في طريق الخير والصلاح فرضي عنهم وثبتهم في وجهه دعاة التقاعس والفرار من مواجهة الكفار والمفسدين. ﴿....وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فقد عم فضله وغمرت رحمته المؤمنين ففتحوا أعظم الحصون، ودكوا قوي الأسوار، ونشروا الدين في أقطار المعمورة، تسندهم قوى خفية، فكم من فئة قليلة منهم غلبت فئة كثيرة من أعدائهم بعون الله، العالم بكل شيء فهو يعلم أهل الخير والهدى فيثبتهم وينير بصائرهم فيختارون الطيب من السلوك، والمفيد من الأعمال. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ .

لقد حصرت هذه الاية الكريمة ولاية المؤمنين في الولاء لله ولرسوله والذين آمنوا، وكلمة ﴿وَلِيُّكُمُ﴾ تدل على إفراد الولاية في ذات الله وان الرسول والذين آمنوا ولايتهم تابعة لصاحب الولاية الحقيقية، وذلك لانها الأصل وغيرها تابع. قيل إن هذه الآية الكريمة نزلت في الصحابي الجليل: عبادة بن الصامت الذي تنصل من ولاية أهل الكتاب من اليهود واعلن الولاء لله ورسوله والمؤمنين فمن حافظ على الولاء لله ولرسوله والذين آمنوا، فلن يذل ولن يهون فقد اهتدى لطريق الخير فجاهد وناصر ودافع، لا من أجل قوم أو وطن أو مصلحة، فالرسول عليه الصلاة والسلام. وهو قدوتنا؛ قد حارب أهله وعشيرته واهل بلده من أجل هذا الدين ونشره.

وهذا ابراهيم - ﷺ - تبرأ من قومه وخرج من بلده مهاجراً في سبيل الله لنشر دين الله. فأمر الله فوق كل أمر، وطاعته واجبة، فهو رب العواطف والحب والكره، ومن أبرز صفات المؤمن وأجلها وأعظمها قيمة ووسيلة للطاعة هي إقامة الصلاة، وإقامتها تعني المحافظة الدائمة عليها في أوقاتها والشعور بالصلة الدائمة بين العبد وربه وهي التي تنهي عن الفحشاء والمنكر ومن أسباب جلب الرزق والسكينة.

كل هذا من فضله سبحانه وتعالى، إذ علمنا كيف نطيعه والسبيل لنيل رضاه ﴿.... ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥].

الزكاة فرض كما هي الصلاة، وحرمان الأنواع الثمانية من حقهم فيها محرم بالتشديد والوعيد من الله الأمر الناهي. وما قام به خليفة رسول الله محمد ﷺ أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – بمحاربة وقتل ما نعي الزكاة هو تشريع واجب الاتباع ولا يجوز للمسلمين ترك هذا الأمر ولا بشكل من الأشكال، ولا عذر لمتقاعس عن تطبيق هذا الحكم بل يجب محاربة ما نعي الزكاة ومعطي هذا الفرض المقرون بالصلاة ﴿...وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ...﴾ أي طائعون فإيتاء الزكاة طاعة لله وإمتثال لأمره سبحانه وتعالى؛ كما يقومون بجميع أوامر الله ونواهيه بكل خشوع وطاعة وحب لله.

ثم تأتي البشرى بالنصر رغم كل الظروف. وحالات الضعف والتفكك، وذلك إذا تمسكت الأمة بدينها، وأعدت واخذت بأسباب النصر حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦].

فالغلبه لصف المؤمنين ولا بد لهذه البشرى – إن شاء الله – من أن تتحقق، ويهزم جمع الكفار والمنافقين والخونة والمجرمين وينتصر جمع أحباء الله وحزبه، فالنصر بيد الله وهو الذي يداول الأيام بين الناس، وهو الهادي لأمة التوحيد المثبت

لهم بالقول الثابت في الدنيا والآخرة، ذلك المزيل غشاوة الكفر والنفاق ليظهر نور الإيمان وتنطلق تلك القوة الكافية في أمة عرفت الأمم عبر التاريخ سطوتها وثباتها في الشدائد والحروب والله الناصر لعباده المؤمنين.

ورغم هذه البشرى والنتيجة الخيرية والنصر المؤزّر فلا بد من العمل والإعداد وكل ذلك طاعة لأمر الله واجب الطاعة دائماً وأبداً وعدم التواكل وعدم الركون، فما فرض الجهاد إلا ليعرف الطائع من العاصي، وما فرضت العبادات إلا امتحاناً واختباراً لهذا الإنسان أيؤمن أم يكفر؟!!

١٥ - شريحة المستهزئين بدين الله

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ٥٨ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ٥٩ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ٦١ وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٢ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة: ٥٧ - ٦٣].

وقد سبقت هذه الآيات التحذير من جريمة اتباع الهوى وترك الحكم بما أنزل الله. والتحذير من موالاة أهل الكتاب خاصة والكفار عامة.

ثم التحذير من فتنة الردة تلك التي هي قاصمة الظهر؛ فبعد الاستنارة بنور الايمان، نرى ذلك المرتد قد هوى في دياجير الظلمة اتبع هواه فتردى. أقول: بعد هذه التحذيرات المتتالية لامة الإسلام من سندهم، من رب العالمين: جاء دور التنفير وإثارة الحمية في صدر المسلم الغيور؛ ليقف صامداً ثابتاًقوياً في صف الموحدين المؤمنين، مدافعاً شجاعاً وحارساً أميناً، رافع الرأس، معتز بهذا الدين الذي ينقم عليه ويستهزىء به صف الكفر، ويحتقره أقوام وفئات – هي في الحقيقة موضع الحقارة ومستنقع الجهل والغباء والحيرة والشك والتردد- من المنافقين

الجبناء أهل التقية، ومن اهل الكتاب الذين هم إخوة القردة والخنازير قتلة الإنبياء، المحرفين لكتب السماء. ذلك الصف المتناقض عقيدة ونظاماً وفكراًوسلوكاً. كل حزب بما لديهم فرحون.

وما جمعهم في خندق واحد إلا كره المسلمين الموحدين، ومحاربة دين الله القويم المناقض لرغباتهم وهواهم.

روي أن "رفاعة بن زيد" "وسويد بن الحرث" وغيرهما قد نافقوا وظهر للمؤمنين نفاقهم وموالاتهم لاهل الكتاب والمشركين. فحذرنا رب العالمين من ودهم وموالاتهم، ويأمرنا ببغضهم وبغض من شايعهم ونافق مثلهم ومقاطعتهم واحتقارهم وكشف حيلهم ومداهنتهم. قال سبحانه وتعالى – مستنهضاً همم المؤمنين وحميتهم محذراً اياهم من موالاة الكفار. وقد خص أهل الكتاب منهم؛ وذلك لاساليبهم الملتوية في الخداع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

إن أبشع وأكره وأمرّ ما يوجه الإنسان في هذه الحياة هو الإستهزاء والاحتقار والإهمال والتهميش، كيف إذا قرن ذلك باللعب وعدم الجدية والتشكيك وفي أمور العقيدة وما يتعلق بالدين يعظم الموقف ويشتد الألم، وتثور براكين نفس جامحة.

لا نبالغ إذا قلنا: إن من أشد وأعظم مسببات الحروب والخراب في التاريخ: هو اختلاف الآراء والعقائد وإستعباد أهل دين لدين آخر، وإحتقار أهل دين لغيرهم.

يمكن للإنسان أن يتحمل مصائب الجوع والعري والبرد والحر والمرض والتعب بل السجن والضرب؛ لكنه لا يتحمل احتقار عقيدته ودينه مهما كان.

قد نبه سبحانه وتعالى بل وأثار العاطفة الدينية عند المسلم؛ فكشف له عن

شريحة من أهل الكتاب تناصبة العداء، وتضمر لـه الشـر، وتهـزأ بدينـه ومعتقـده، وتنشر بذور الشك عند أهل هذا الدين خاصة اذا كانوا حديثي عهد بالاسـلام ولا تزال رواسب الشك تلوث أفكارهم وتدير عواطفهم وتغري نفوسـهم. وقـد ابـرز سبحانه وتعالى أهل الكتاب عن غيرهم مـن الكفار،محـذراً مـن خطـرهم وكيـدهم وظنهم إن اهل الكتاب على شيء مـن الحكمـة وعلـم الكتـاب، وإنهـم في صـف المؤمنين الموحدين، وحتى لا يحسن المؤمنون الظن بأهل الكتاب هؤلاء، فقد قـرنهم سبحانه وتعالى مع المشركين الكفار؛ مبيناً أن الكفر ملة واحدة، وصف واحـد ضـد المسلمين وإن المسلم التقي هو الذي يحافظ على بيضة الإسلام ويظهـر التحـدي في وجه إعداء الله.

قال سبحانه وتعالى موضحاً أعظم وأنقى صفات المسلم القوي الشجاع:﴿... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ فقد ربط التقوى هاهنا بالإيمان ربطاً قوياً ثابتاً محكماً.

فإذا سار المؤمن طريق الإسلام الواضح المستقيم – كما أمر الله – بقلب عامر بالإيمان فقد إهتدى وصبغ حياتـه بصـبغة الـدين القـويم، واخـذ مكانـه في صـف المؤمنين الأبرار؛ فهابته الاعداء وعرفوه بتقواه، وصدق ايمانه وثباته؛ فدخلت هيبتـه القلوب وحسبوا لـه كـل حسـاب. ثـم يـذكر سـبحانه وتعـالى المسـلمين بإحتقـار إعدائهم؟ لأعظم وأبرز ما عند المسلم من تعاليم وأجل ركن مـن اركـان الاسـلام بعد الشهادتين وهو الاستهزاء بالأذان والصلاة، ذلك الداعي الذي يخرج نداءه من صدر عامر بالايمان لامن جرس مصنوع من معدن، ولا من نار تشعل وتخمـد بعـد لحظات بل من حناجر وقلوب مؤمنة صادقة. هذا الصوت الذي يرفع عاليـاً تـردده شعاب ووديان هذه الأرض الواسعة. في كل لحظة من نهار أو ليـل دوران الأرض حول محورها.

ينادي بالكبرياء لله في الارض، والاعتراف برسوله الكريم ﷺ.

فما يهزأ به صاحب عقل واعتقاد سليم بل هي أعمال وأقوال السفهاء الجهلة من الناس. وروي أن رجلاً نصرانيّاً في مدينة رسول الله – والقرآن ينزل – كـان إذا سمع المؤذن يقول أشهد أن محمداً رسول الله قـال هـذا النصـراني "حـرق الكـاذب" فدخلت خادمته ذات ليلة بنار وهو نائم؛ فتطـاير الشـرار منهـا في البيـت فـاحترق البيت مع صاحبه. وثبت أنه هو الكاذب ولعذاب الأخـرة هـو أعظـم وأشـد " أبـو السعود" هذا وإن ذكر الأذان في هذه الآية الكريمة ليدل على ثبـوت شـرعية الأذان، فيجب العمل به واحترامه وتعظيمه.

وقد كان أيام حروب الردة في عهد خليفة رسـول الله ابـي بكـر الصـديق – أقول كان يوصي قادة جنده: أن انتظروا أهل قرية فإذا سمعتهم الأذان فلا تقتلوهم قال الله سبحانه وتعالى – مثيراً عاطفـة الـدين عنـد المسـلم: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨].

ومن نص هذه الآية الكريمة نفهم حكم المستهزء بكلام الله من ذلكم السـفهاء والجهلة والمنافقين؛ بأنهم يقومون على أمر عظيم وجريمة نكراء كمـا وصـفهم رب العالمين﴿....بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨].

ولا يعني هذا فقدان العقل عندهم، ولو كان ذلك لرفع عنهم القلم وما كـانوا موضع لوم وتوبيخ بل يعني عدم استعمال هذا العقل واستغلاله بما يفيد في الدارين منهم قد يكونون علماء في أمور الدنيا ومعاشهم؛ ولكنهم عن الحـق عمـون جهلـة سفهاء لعدم التفكير فيما ينفعهم ويوصلهم لازالة غشاوة الكفر عن بصائرهم.

فكم في هذا العالم الواسع من علماء في الكيمياء والفلك والطب الذين يشـار إليهم بالبنان ويكتب علمهم بمداد الذهب، ولكن أحدهم لم يسأل نفسه: من اوجـد هذه النسب بين العناصر ليتكون منها مركبات ذات خواص ثابته معروفة محـددة لا تتغير. ومن أوجد تلك الكواكب والنجوم وشحنها بتلك الطاقة المحركة – وكـل في

فلك يسبحون – من وضع فيها تلك الجاذبية العظيمة؛ فهي ليست كتلاً ضخمة منثورة من المادة، في هذا الكون الواسع بل هي قطع في بناء يحكمه نظام دقيق مطيع لخالق عظيم صنع الله: فهذه كلية تُصفي الدم من الأملاح. وتلك رئة تُصفي من الكربون، وقلب في حركة دائبة ليل ونهار.

ودورة دموية لا يوقفها غروب شمس ولا طلوع فجر وحواس تنام بنوم صاحبها، وتستيقظ معه، وغدد تدير ذلك المصنع الدقيق العظيم منها الإرادي ومنها غير الإرادي. وكل مطيع عالم بعلمه وبدقة ونظام لا تأتمر إلا بأمر الله الخالق الصانع العالم القادر.

أقول: ويرى العلماء هذا كله، مما يذهل الناظر المفكر المتدبر، فتمنعهم غشاوة الكفر عن السجود وتقديس ذلك الصانع القادر الخالق مايهزأ بذكر الله وكلمة "الله أكبر" إلاً كل جاهل كافر أعمى البصيرة، مقفل القلب، فهو كالأنعام بل أضل سبيلاً.

هذه الكلمة العظيمة عند كل مسلم يعتز بها في أتون المعارك، والنقع قد أظلها فتنير له ظلمة تلك الساعة المخيفة المرهبة، فيستأنس بهذا الصوت "الله أكبر" تخترق أسماع وقلوب الكفرة والمنافقين فيتولى جمعهم هارباً مرعوباً لا يلوي على شيء.

وتثبت المؤمن فلا يولي الأدبار حين ذاك بل يقدم ولا يحجم.

ثم يخاطب سبحانه وتعالى رسوله الكريم: يعلمه الرد على سفهاء أهل الكتاب، وتعريتهم وفضح سرائرهم ونفوسهم قائلاً: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

ماكانت نقمة أهل الكتاب على المسلمين لفساد أو ظلم أو سير في طريق الشر والفاحشة أو يستنكره العقلاء – عادة – من سلوك بل يبين سبحانه وتعلى سبب هذه النقمة والحقد على المسلمين لأمر لا يتوقعه أصحاب العقول الراجحة وذلك

لعدم سير المسلمين في طريق الفساد والشرك والظلم والفجور والفسوق، فمن كانت هذه جريمتهم وسبب معارضتهم ومعاداتهم فهم– ولاشك – في المنزلة العالية: هم أهل التقوى وأهل المغفرة.

فالمؤمنون هم الذين آمنوا بالله وما أنزل من كتب عليكم وعلى غيركم فجاء بهم أنبياء أمناء صادقون كما آمنا بكل ماحواه ذلك الكتاب المهيمن على تلك الكتب "القرآن الكريم" وعملنا بأمر الله طائعين خاشعين فلخروج أكثر كم عن الطريق المستقيم وعصيانكم المشهور، وفسادكم المعروف – عبر التاريخ – نقمتم علينا وحسدتمونا لتمسكنا بالإيمان والسير طائعين على نهج شرع الله.

وهذه طبيعة أهل الضلال والفسوق الخارجين عن شرائع الله، يظهر من كرههم لأهل الصراط المستقيم؛ وذلك لأنه يشعر بالخسة والذنب، وعادة يقارن بين النور والظلام، والطائع والعاصي، والخط المستقيم والأعوج فهم جبهة الظلام والعصيان والأعوجاج، فلا تواصل ولا اجتماع بين تينك الجبهتين المتباينتين.

ثم يعلم ربنا رسوله محمد ﷺ كما يعلمنا كيف نجيب هؤلاء الذين اتخذوا ديننا هزواً ولعباً الجواب المفعم والمذل المخرس لهم.

قال سبحانه وتعالى في حقهم: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٥٩].

وكما أن المثوبة مختصة بالخير عند الله وهي نتيجة عمل المؤمن يوم القيامة، يقابلها نتيجة الشر عند العاصي والكافر، وشتان بين نقمة هؤلاء الكفار ونتيجتها ونقمة رب العالمين عليهم لفسادهم ومخالفتهم أمر الله وكره المؤمنين به وايذائهم وعداء أوليائه الصالحين الأتقياء.

يستنتج هذا من لعن الله لهم وغضبه عليهم ولعن الله وغضبه ليس كلعن البشر وغضبهم للمزاجية وهوى النفس والظن، بل لأعمالٍ وأقوال وحقد وكيد

وأذى، منه الظاهر فيطلع عليه البشر، ومنه الخفي لا يعلمه إلا الله.

فمن هنا طرد ذلك الملعون من رحمة الله وكان أن حل عليه غضب من الله، وما غضب الله وسخطه بالأمر الهين البسيط الذي يمكن احتماله ومجابهته بل هو عظيم مرهب مخيف، وكيف لا وهو القادر المطلق القدرة.

ثم يذكرهم ببعض مخازيهم وبنتائج فسادم وفيها من التهديد والوعيد فكأنه يقول لهم: فإن عدتم للفساد عدنا للعقاب – ومن تبعهم في ذلك فهو مثلهم – حيث سخط ومسخ بعضهم قردة" وهم أصحاب السبت "وبعضهم خنازير" قيل هم الذين كفروا بعد نزول المائدة التي طلبها بني الله عيسى ابن مريم – ﷺ – حيث طلبها الحواريون منه.

وقد حذرهم رب العالمين من العصيان بعد الاستجابة بنزولها " وأما عبدة الطاغون" وهو كل ما يعبد من دون الله كالعجل الذي عبده بنو إسرائيل؛ ورجال الدين – من الأحبار والرهبان - الذين يحكمون ويحرفون الكلم عن مواضعه.

ومثلهم من يحكم بغير ما أنزل الله متحدّياً رب العالمين، وذلك بتحكيم الهوى والظن دون الشرع من كتاب وسنة.

وذلك ظناً منهم ووسوسة شيطان مارد أنهم أصح حكماً من خالقهم وخالق عقولهم "فالويل لهم من يوم ينظرون حولهم فلا يرون من شرطهم ولا حرسهم ولا بطانتهم ولا جيوشهم، وليس لهم من شفيع وقد تحدون منزل الأحكام العادلة الذي أمرنا جازماً أن نحكم أوامره، وننتهي عما نهانا عنه.

هؤلاء هم عبدة الطاغوت فمكانهم عند الله شر مكان ومصيرهم أسوأ مصير.

ثم يكشف سبحانه وتعالى للرسول محمد ﷺ ولأمته الماجدة، ما يكتمه بعضهم، حيث يقول: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ

أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴾ [المائدة: ٦٠].

فقد أعلنوا الإيمان بحضرتكم في الظاهر ليرضوكم وليأمنوكم وأوهموكم بأنهم قد استمعوا وقنعوا وآمنوا وساروا على نهجكم.

ولكن الله المطلع على السرائر يخبرنا محذراً ومبيناً لنا: أنهم خرجوا من عند رسول الله ﷺ كما دخلوا.

فقد أغلقوا أبواب الرحمة بإغلاقهم لسمعهم فلم تفتح قلوبهم للإيمان ولا لتلك البراهين والأدلة الواضحة على صحة رسالة الإسلام وهدي القرآن الكريم والفاظ التأكيد ظاهرة في هذه الآية الكريمة بتصميمهم على الكفر ونهجه وتمسكهم به وإعراضهم عن دين الله وإظهارهم الإيمان نوع من التقية والغش.

وهذه البلبة قد حصلت من اليهود في عهد رسول الله ﷺ في المدينة، فقد كان بعضهم يظهر إيمانا في الصباح وكفراً في المساء كيداً منه حتى يتبعه غيره ممن دخلوا في الإسلام حديثاً ولم يكتشفوا مكر يهود.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى فاضحاً إيمانهم الذي استعملوه للتورية والتقية حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٢].

فمن يسارع في ارتكاب الآثام والمحارم والاعتداء على الناس الكيد والبغض وتحريك الفتن بينهم، ثم لهفتهم لما حرمه الله من الرشوة والربا، والاحتكار، وهذه الأعمال في مجموعها لتدل على قلوب خالية من الإيمان بالله.

والله هو الذي حرم هذه الإعمال والمفاسد والمنكرات، وجعلها فتنة للعصاة.

ومن يؤمن برب عالم مراقب مسجل سلوك الإنسان لا يقدم على ارتكاب تلك الآثام.

ورؤية الكثير منهم يسارغون في ارتكاب الآثام وعمل تلك الشرور وأكل الحرام له دلالة مخيفة، ونتائج مرعبة.

فالرأي العام عندهم يسيره الشر والكيد كما تسير دور الإعلام والنشر في عالم اليوم عقول يهود: فتقلب الحقائق، وتجعل الظلم مشروعاً والفاحشة مباحة ﴿...لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ثم تأتي آية الوعيد والتحذير لعلماء الأمة الذين وصفوا بأنهم ورثة الانبياء في التبليغ والنهي عن المنكر والأمر بالمعروف.

فقد نبه سبحانه وتعالى إلى واجب الربانيين والأحبار: وهو وعظ الناس وتذكيرهم بأيام الله وغضبه وأمره ونهيه. قال سبحانه وتعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣].

﴿لَوْلَا﴾ هنا تفيد الحض على الشيء لأنها دخلت على الفعل المضارع. فإن صنع الأحبار والربانيين بتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي مهنتهم لهي أعظم جرماً من عمل العامة الجاهلة لهذه الاثام.

قال ابن عباس: "ما في القرآن أشد توبيخاً من هذه الآية.

وقال الضحاك: "ما في القرآن آية أخوف عندي منها إنا لا ننهي".

وروى أبو داود عن جرير قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون أن يغيروا عليه فلا يغيرون إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا، فهذه الآية الكريمة وتلك الأقوال لتدل على عظم جريمة هؤلاء الربانيين والاحبار الذين تقاعسوا عما وكل بهم من عمل: وذلك إما لإرضاء العامة، أو خوفاً من حاكم أو ضياع نوال وربح دنيوي أو جاه ومركز وإكرام زائل. ﴿....لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فقد وصفهم لتقاعسهم وسكوتهم عن قول الحق؛ بإنهم صنعة منكرة.

قد تدربوا عليها، وعملوا بها، فجرمهم أعظم من جرم من عمل من قومهم لجهلهم: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فكلا العملين هو منكر ولكن الفرق بينهما: أن صنع العلماء هؤلاء بخبث وتضليل وانحراف متعمد من تصميم لمخالفة شرع الله.

فهم أهل صنعة في الكيد والتخلص من الإثم بطريق مضللة لا يعيها ويكتشفها ويفضحها إلا المطلع على السرائر. فهم قد تركوا وأهملوا مهنتهم كعلماء قياديين وامتهنوا التحريف والتضليل وصنع المخارج للتخلص والظهور بمظهر الناصح الأمين.

وفي هذه الآيات قد عرى وكشف جميع فئات أهل الكتاب حتى وصل الأمر إلى الطبقة العليا طبقة القدوة – الأحبار والرهبان – الذين يلجأ إليهم الحائر من الأمة يطلب منهم النصح والعظة.

وهم الذين وصفهم لنا وفضح حالهم رب العالمين؛ لتقاعسهم وامتهانهم صنعة التضليل والتخاذل وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لدنيا زائلة وإرضاء الهوى واتباع شياطين الإنس والجن.

وأما علماء المسلمين فقد أمرهم الله بأمر يجعلهم من المفلحين: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

قال رسول الله ﷺ "موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، إقراءوا إن شئتم" فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز " البخاري والترمذي وأبن ماجه.

١٦ - بنو إسرائيل وعبادتهم العجل

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٣٩].

ويلقي رسول الله موسى – عليه الصلاة والسلام – عصاه – بأمر ربه – فتلقف شعوذة سحرة فرعون مصر الذين جمعهم ليكيد رسول الله موسى – عليه الصلاة والسلام – وينتصر بهم. ويقع السحرة سجداً لله خالق الخلق الرب الحقيقي الذي بيده الموت والحياة.

ويشيع خبر انتصار رسول الله موسى – عليه الصلاة والسلام – في أرجاء مصر؛ فيؤمن من آمن ويعاند ويأمل من عاند بنو إسرائيل خيراً وفرجاً مما هم فيه من سعير حكم فرعون الطاغية عليهم. ثم يبلغهم نبيهم موسى – عليه الصلاة والسلام – بالرحيل السري ليلاً حتى لا يقف فرعون بجنده امام هذه الهجرة للبلاد المباركة.

ويسير بنو إسرائيل مسرعين خائفين وجلين من طاغية زمانه فرعون الجبار وجيشه العظيم الذي سامهم سوء العذاب.

ويعلم فرعون برحيل القوم، فيستشيط غضباً، ويستنفر جيشه اللجب مسرعاً خلفهم، يريد إذلالهم وقتلهم ويتراءى الجمعان، وتبلغ قلوب بني إسرائيل الحناجر خوفاً وفَرَقاً من فرعون وجيشه.

ويستغيثون برسول الله المنقذ – بعون الله – فيجيبهم الجواب الشافي وبكل اطمئنان وإيمان بالنصر والهداية: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ ثم يأمره رب العزة بضرب البحر بعصاه؛ فينفلق ذلك البحر؛ وتفتح فيه طريق يبس فيمر بنو إسرائيل.

ويلحق فرعون وجيشه سائرين على خطاهم، فيطبق ذلك البحر على جيش

فرعون، فيهلك ويموت بعد أن شرب حسرة هلاك جيشة العظيم بقوة الرب الحقيقي القادر الجبار لا رب الشعوذة والكذب والحيل.

ويشاهد بنو إسرائيل كل هذا الانتقام بأم أعينهم وهم في تمام وعيهم، يشاهدون قوة الرب الحقيقي وفتكه المخيف المرهب بأعظم جيوش العالم في ذلك الزمان ورغم كل هذه الآيات المعجزات الدالة على رسالة رسول الله موسى – عليه الصلاة والسلام – وعلى صدق نبوته. وعلى عظمة رب العالمين العزيز القدير.

وعندما يصل بنو إسرائيل حدود بلاد الشام المباركة، يمرون بقوم يعبدون الأصنام من دون الله وذلك لجهلهم وكفرهم، فيطلب بنو إسرائيل من رسول الله موسى – ﷺ – أن يجعل لهم صنماً يعبدونه من دون الله.

وكأن رسول الله موسى – ﷺ، هو الذي يصنع الدين، فينفذ رغبات المنحرفين الجاهلين من بني إسرائيل.

فيجيبهم – عليه السلام – بأنهم قوم يجهلون، فالرب المعبود لا يصنع باليد وحسب الرغبة والهوى فهذا عجل، وذاك وجه جميل وثالث رأس أسد وهكذا، نعم، إنهم قوم يجهلون، فما من جهل أعظم من هذا الطلب الغريب العجيب. فهم يجهلون قيمة النعمة التي انعمها الله عليهم إذ نجاهم من فرعون وحكمه وتعسفه والذل الذي كانوا فيه.

إنهم يجهلون قيمة المنزلة العالية التي أكرمهم بها الرب الحقيقي، وما كان ذلك إلا لأنهم مؤمنون موحدون ناصرون لدين الله.

ولكن وسوسة الشيطان وتزينه والنفس الشريرة وحب العناد والفساد، وتحكيم الهوى قد قادهم لهذا الطلب الشاذ الظالم.

فعندما تركهم رسول الله موسى – ﷺ – بإمرة أخيه هارون – عليه السلام. استغلوا

تلك الفترة الصغيرة – حيث ذهب موسى – عليه السلام – لملاقاة ربه واستلام ألواح التوراة – فأغرى بعضهم بعضاً، واستمعوا لرأي ورغبة فساقهم كالسامري حين أغواهم، وصنع لهم عجلاً الهاً. وقال لهم هذا هو الله موسى الذي ذهب للقائه فأخطأ الطريق إليه.

صنع لهم عجلاً وأتقن صنعه بحيث أن تياراً من الهواء يدخله فيحدث صوتاً. فخر القوم سجداً وعكفوا عليه عابدين مقدسين هذا الصنم، رغم نهي نبي الله هارون – عليه السلام – لهم وتحذيره من مغبة عملهم هذا.

وقد بلّغ رب العالمين موسى – عليه السلام – بما فتن به قومه الذين تركهم وطلب منهم السير على أثره، وأسرع لمقابلة ربه حيث أبلغه الله سبحانه وتعالى بردة قومه: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾[طه: ٨٥].

فقد قادتهم النفس الأمارة بالسوء وزين لهم الشيطان هذا المنكر بل أعلى أنواع المنكرات والجرائم، فأقدموا على عبادة الأصنام عن إصرار وروية وحب للفساد ورغبة في الردة والشرك.

وضربوا بجواب رسول الله موسى – عليه السلام – عرض الحائط – وذلك عندما عرضوا عليه تلك الفكرة الجهنمية بعبادة العجل – حيث أجابهم بكل جد وتقريع: ﴿ ....إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٣٩].

فقد وصفهم بالجهل كما وصف من أعجبوا بصنيعهم بأنهم هالكون ومعبودهم زائل فاسد.

ثم يتابع موسى – عليه السلام – قوله لهم: ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٠].

أتطلبون مني الكفر وعبادة الأصنام والردة والله فضلكم على الناس – في ذلك الزمن – وتقابلونه بالكفر بدل الشكر. ورغم هذه العبارات الجارحة، والتوضيح الجلي والهدي النير، يستغلون غيابه – عليه السلام – فيقومون بصنع عجل بأيديهم يعبدونه ويقدسونه رغم نهي نبي الله هارون - عليه السلام- لهم وقد وصفه رب العزة – تعالى عن التشبيه – وهو يوبخهم على فعلتهم تلك – حيث قال: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه: ٨٩].

هذا هو القول الفصل في الأصنام، فهي لا تملك لهم ولا لنفسها ضراً ولا نفعاً. وهذا هو هدي السماء وجواب إبراهيم – عليه السلام – عندما سئل عن تكسير أصنام قومه قال: "اسألوهم إن كانوا ينطقون".

هذا إن كان هناك عقول تعي، أو آذان تصغي، أو فكر منير يهتدي به، أما إن كان القوم كالأنعام بل أضل سبيلاً، فقد صدقت فيهم "أم أنس بن مالك" رضي الله عنها – عندما قالت لأبي طلحة وقد جاء يخطبها بعد موت زوجها. وكان لا يزال من عبدة الأصنام – ألا تستحي أن تعبد خشبة نجرها عبد حبشي؟ ولكنه استعمل عقله وصفاء ذهنه فآمن واستنار بنور الإسلام، وترك عبادة الأصنام وكان مهرها إسلامه.

وعندما ألقى موسى – عليه السلام- بعجلهم هذا في البحر، ما كان يدافع عن نفسه فكيف به يدافع عن غيره ممن أغواهم الشيطان فعبدوه وقدسوه!؟

نسير في وصف هذا الموقف من فساد بني إسرائيل في أعلى واعز أيامهم ورسولهم من أولى العزم يسنده هارون أخوه – عليهما السلام – وقد نصرهم رب العالمين وشرفهم ورفع منزلتهم نعم، لقد نصرهم على أقوى قوة في عالم ذلك الوقت على فرعون ذي الأوتاد وعلى جيشه صاحب الانتصارات والعدد والعدة.

ولكن كان شكرهم لله المعز أن أخلدوا إلى الأرض سجداً أمام صنم صنعته

أيديهم. ونبي الله هارون يصرخ فيهم منذراً وموضحاً لهم فساد عملهم هذا بل ونتيجة جرمهم العظيم.

فبدلاً من شكر الله تعالى على أن نجاهم من فرعون وحكمه، وأكرمهم بالخروج من الذل، فكان عليهم التمسك بدين التوحيد دين العزة والرفعة والاستنارة بذلك النور الإلهي.

نراهم يقلدون الجهلة الضالين من خلق الله، فيصنعون صنماً يعبدونه من دون الله متذللين مستسلمين له. في وقت يتلقى فيه رسولهم تعاليم رب العالمين؛ ليرفعهم من حضيض تحكيم الهوى والنفس الأمارة بالسوء إلى علياء الهدي والنور والنظام والشرع القيم، رسالة السماء لإنقاذ أهل الأرض وأخوه نبي الله هارون أميرهم ووليهم في غيابه يحرسهم ويحافظ عليهم ويهديهم سواء السبيل طريق الفلاح والخير.

ذلك وهم مستقبلون البلاد المباركة، مستبشرين بدخولها ما أشد فساد تلك الفئة من بني إسرائيل، وما أنتن نفوسهم، وما أجهل عقولهم؛ فليس بغريب عليهم – بعد ذلك – عندما طلبوا تغيير أعلى أنواع الطعام من المن والسلوى بأدنى أنواعه من ثوم وبصل وعدس، هذه نفوسهم المريضة، ومزاجهم الشاذ، وطباعهم البشعة، وحماقتهم النادرة.

وليس بغريب عليهم – قبل ذلك – وهم في أشد أيام اضطهادهم في مصر؛ أن يصفهم رب العالمين بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٍ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ ... ﴾ [يونس: ٨٣].

الله أكبر!! كيف بهم – وقد شاهدوا المعجزات بأعينهم – يسألون رسولهم قائلين: ﴿ .... قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾

[الأعراف: ١٣٨].

هل تصنع الآلهة بأمر نبي أو فرد أو مخلوق؟ وأين ذهب الإيمان بوجود خالق قادر؟ نعم، لقد ظهرت التقية والوسيلة في دينهم من ذلك الوقت، فهم الآن يؤمنون بالواسطة بين العبد وربه، سواء كانت رجال الدين عندهم أو المنحوتات والصور والقبور.

فنحمد الله على نعمة الإسلام الذي جنبنا هذا الأسلوب، وحارب التزلف ووساطة الأصنام، والعظماء، ورجال الدين، وجعل العبادة مباشرة بينه وبين عبده.

كما حارب جميع أنواع الشرك وجعل الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين.

نحمد الله تعالى أن حفظ صحابة رسول الله محمد ﷺ، وأنار تاريخهم المجيد، تلك الفئة من الناس الذين نصروا ونشروا دين الإسلام بكل وعي ووضوح، واستفادة من عظات القرآن الكريم ومن حكمة رسول الله محمد ﷺ أهل النفوس العالية،والأفكار النيرة والثبات المعروف لهم في البأساء والضراء وحين البأس.

أولئك المطيعون لأمر الله، الأمناء على شرعه وكتابه الكريم الذين نقلوا لنا الحكمة صافية نقية بكل حرص وبناهة وفقه حتى وصلتنا بيضاء ناصعة لم يشبها شائبة.

ولم تفسدها العقول المتناقضة، ولا النفوس المريضة الضالة المضلة. فاستنارة المعمورة بفقههم وعلمهم وتقواهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

ويجيب رسول الله موسى عليه السلام تلك الفئة من بني إسرائيل بقوله ﴿...إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾. فقد نعتهم بالجهل الذي هو مرض الأمم العضال فما من أمة يعمها الجهل إلا وتهوي للحضيض.

وبعد أن وصفهم بالجهل والغباء لطلبهم الشاذ، بين لهم – عليه السلام – لعل فيهم

من يصحو من غفلته فيذكر فضل الله عليهم بإنقاذهم من قبضة فرعون الجبار وبفتح الطريق أمامهم للعودة للبلاد المقدسة وبدل من شكر الله المنقذ الناصر لهم يطلبون عبادة صنم مصنوع مخلوق.هذا وهم ينعمون بالحرية بعد أن هلك فرعون وجيشه وهم يرفلون في حلل النصر والنجاة.

بعد الذل والصغار، والقتل والاستعباد.

هذا وهم يستقبلون أعظم لقاء في تاريخ البشرية بين رب الكون ونبيهم موسى – عليه السلام.

هذا وهم ينتظرون أوامر الله ونواهيه، في كتاب مبارك "التوراة" فيه النجاة من النار ومن عذاب الملك الجبار لمن أطاع وعمل بما فيه.

ويذكرهم نبي الله موسى – عليه السلام – بنعم الله عليهم ورحمته بهم، وتقديره لهم. حيث أهلك عدوهم الذي قد أذلهم وقتل ذكورهم واستبقى نسائهم. وكم في ذلك من بلاء عظيم وذل وحسرة.

ثم تستمر نلك الآيات النيرة العظة تذكر أمة الإسلام بما فعلته الأمم السالفة وخاصة بني إسرائيل الذين يتبجحون متكبرين مرددين: نحن أبناء الله وأحباؤه.

وقد فضحهم سبحانه وتعالى وكشف ما كانوا يخفون عن الأمم عبر التاريخ من سوآتهم وجرائمهم.

ويسأل رب العزة رسوله موسى – عليه السلام – قائلاً: ﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٨٣].

فرد رسول الله موسى – عليه السلام – قائلاً ﴿ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴾ [طه: ٨٤].

فأجابه سبحانه وتعالى: ﴿...فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥].

هذا لفسادهم وجهلهم ورغبتهم الجامحة في عبادة الأصنام تلك الرغبة التي لازمتهم وسارت معهم بل وسيطرة على نفوسهم وعقولهم فكان الجزاء ابتلائهم بعبادة العجل وإطاعتهم السامري الذي ضل وأضلهم.

ويرجع موسى – عليه السلام – يحمل النور والهداية والسكينة في كتاب الله التوراة ومع هذا وعندما شاهد ما فيه قومه من الضلال والسجود لصنم العجل جسد له خوار، ألقى ألواح التوراة، وأخذ في تأنيب ولوم أخيه هارون.

قال الله سبحانه وتعالى في وصف ذلك الموقف: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾[الأعراف: ١٤٨].

أما قوله﴿ جَسَدًا ﴾ فقد يكون ما يشبه التمثال ولا حياة فيه ولا روح. وقوله " له خوار" فقد يكون ذلك بمرور تيار من الهواء؛ فيعطي ذلك صوت كصوت العجل.

ثم ينبه رب العزة ما في عبادتهم لهذا الصنم من ضلال وضعف؛ فهوا ليس بقادر على كلامهم ولا نصحهم ثم وصفهم سبحانه وتعالى بالظلم لأنهم وجهوا التقديس والخشية والشكر لغير صاحبه الحقيقي الخالق القادر.

قال الله سبحانه وتعالى يصف أعذارهم الواهية: ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ [طه: ٨٧].

فهم يذكرون احتيال بعضهم على أهل مصر، وأخذهم زينة نسائهم – كما

تذكر بعض الروايات – فجمعها السامري وصنع منها ذلك العجل المعبود. وكان عذرهم هذا أقبح من ذنبهم فحتى إلاههم الذي اختاروه وصنعوه وعبدوه كان من مال حرام. وقال الله سبحانه وتعالى يصف ذلك الصنم: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨].

فكان القائل ليس السامري فقط بل جمع من بنى إسرائيل وكلمة: ﴿فَنَسِيَ﴾ " موجهة لموسى – عليه السلام – أي أنه نسي الموعد أو المكان وهذا قول السامري، وأهتدى له ذلك الضال المضل، الكاذب المرتد.

قال سبحانه وتعالى – مبيناً بطلان معبودهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

يبين سبحانه وتعالى أن هذا الصنم وكل ما يعبد من دون الله لا يضر ولا ينفع، وهو يخدم ولا يخدم، يصنع ولا يصنع.

وهذه عظة وتذكير لعبدة الأصنام جميعهم وخاصة قريش.

وقد نسي عبدة الأصنام سواء كانوا من قريش أو من بني إسرائيل حديث نبي الله إبراهيم – عليه السلام – مع أصنام قومه وتكسيرها ونبذ عيادتها وإبراهيم عليه السلام هو قدوة قريش وبني إسرائيل كل يفتخر بالنسب إليه.

ورغم عظة أميرهم النبي هارون – عليه السلام – وموقفه من هؤلاء المرتدين حين ذاك وتذكيرهم بأيام الله: وأن الشرك ظلم عظيم. وأن هذه الفتنة في غياب رسول الله موسى – عليه السلام – تسبب غضب الرب، وكان أمرهم بطاعة الله، ونبذ عبادة هذا الصنم.

وكان جوابهم له: ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١].

فهم مصممون على الشرك، متمسكون بالفتنة والردة. فكان جوابه لرسول الله موسى ﴿...وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴾ [طه: ٩٦].

فقد اعترف بأنه اتبع هواه فغوى. وأما جواب نبي الله هارون – عليه السلام – الذي ابتلى في إمارته تلك بقوم بهت يسوقهم الشيطان للفتنة والشرك سوقاً. فكان جوابه لموسى – عليهما السلام – ﴿.... إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴾ [طه: ٩٤].

والمدقق في هذا الموقف، وتلك الردة والفتنة: يرى أنها كانت مقدمة حكم الشتات وعدم اجتماع الرأي والكلمة عند بني إسرائيل حتى حين جمعتهم العودة من مصر يوم أن أصبحوا أحراراً من حكم فرعون ولو اطلعنا على الغيب ووصلنا نهاية المطاف.

حيث قال موسى – عليه السلام – مخاطباً ربه ملتجئاً إليه من ظلم وفساد قومه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٥].

فالتفرق صفة لازمتهم ولم تلازم شعباً في الأرض وإلى اليوم والفساد نعت من نعوتهم، حتى في ريعان عزتهم وسكنهم؛ فقد انقسمت دولتهم ثم انتهت وانقسامهم في الرأي أشد وأعظم كل حزب بما لديهم فرحون. فقد جاء الحق، وزهق الباطل؛ فحرق ونسف ذلك الصنم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴾ [طه: ٩٨].

فقد حصرت الألوهية في الله وحده الذي وسع علمه كل شيء فهو الإله الحق

لا شريك له.والمتتبع لهذه المواقف الشاذة المتناقضة، يرجعها لا للعناد والتكبر والصفات الخلقية فحسب؛ بل للذل والحرمان والخوف، والتمسك بالتقيه والمداهنة والكذب.

فهذه الأمور مجتمعة أثمرت ذلك السلوك من مكر وكيد ونفاق وكذب وتدليس وكلها ترجع للاضطهاد والذل والتعصب.

وكان الشك والقنوط من حبل النجاة مما هم فيه من ذل. قد سيطر عليهم، فما آمن منهم إلا القليل، ولم يتعودوا على حمل السلاح، وأخذ الحق بالقوة، والدفاع عن النفس، فكانت طريق الذل والجبن والخنوع هي سبيلهم، ومن هنا ما إن خرجوا من سجن مصر الكبير وشعروا بالحرية: أخذوا بالتخطيط فكان أن أساؤوا لليد التي أنقذتهم، وبدل أن يشكروا الله ارتدوا وأشركوا وعبدوا العجل.

وهذه الحقائق قد كشفتها تلك الآيات الكريمة لتكون لنا عظة وتحذيراً مما وقع فيه غيرنا، لتجنب الشرك والردة، والإيمان ببعض الأحكام ورفض غيرها. وتحكيم الهوى.

يحذرنا الله من السقوط في وادي الفساد الذي أذل غيرنا. فلا فكر التلمود وحيل رجال الدين اليهود، ولا وسوسة الشيطان الرجيم تثني المؤمن المستقيم الفقيه الواعي عن السير على نور كتاب الله الذي حفظه الله من التغيير والتحريف والتبديل عبر العصور ونختم هذا الموضوع العظة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿....فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ....﴾ [فُصِّلَت: ١٧].

١٧ - صرف الناس باللهو عن الإسلام

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان: ٦ - ٧]

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨].

في كل زمان ومكان يتصدى حزب الشيطان بكفاره ومنافقيه لدعوة التوحيد، وبكل الوسائل والطرق؛ وذلك ليطفئوا نور الله.

فهذا النضر بن الحارث يستعمل كل ما يقدر عليه من طرق شيطانية لإلهاء الناس عن دعوة الإسلام التي ظهرت وبدأت تنتشر هالتها في مكة لتمتد إلى الجزيرة ثم إلى العالم كله، فيتصدى لها بكل الطرق الخبيثة الملهية، فكان يجلب أدوات الطرب والغناء والقينات وصاحبات الرايات إلى مكة المكرمة، وجوار بيت الله الحرام يتسلط ويفتن، من يعلم أنه اقترب من المسلمين أو تعاون معهم، أو أراد الدخول في دين الله، الدين الجديد الذي أطل على العالم بنوره، فاستنارت مكة وما حولها به، وتناقلت أخباره الركبان، وصار حديث وفود الحجيج، فكان يسلط تلك الفاتنات من الغانيات عليه، وصاحبات الرايات، وبائعات الفجور من زنا وقمار وشرب الخمور.

لم يكتف بهذه الوسائل الخبيثة، وما يكتنفها من فساد، بل كان يجلب أيضاً الكتب الملهية، من الحيرة وبلاد فارس وبصرى الشام، تحوي قصص الفرس والهنود والترك والروم ثم يعقد المجالس التي تقرأ فيها هذه الكتب المترجمة، وفيها من وسائل الترغيب ما فيها للسامع، فهي أداة ناجحة لجلب الدهماء والسفهاء وتجمع العامة للاستماع وحضور تلك المجالس والسهرات الصاخبة؛ فتكون أداة لعب ولهو، تهفو

لها نفوس هؤلاء الناس وتعرض عن الإسلام ودعوته، وآياته المنيرة.

كان – لعنه الله – يدفع المال الوفير لشـراء أولئـك الغانيـات وأدوات الغنـاء، وكتب الفتنة واللهو؛ ليصد الناس عن التفكير في آيـات الله، والتفكـر في مخلوقاتـه، وإتباع سبل الراشدين المهتدين.

قال الله سبحانه وتعالى بعد وصـف المفلحـين المحسـنين الـذين اتبعـوا سـبيل الرشاد: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان: ٦].

ففي هذا المجرم الخبيث الضال المضل وأمثاله في كل زمان ومكان نزلـت هـذه الآيات المنيرة. وما يخططه الكفار والمنافقون المعاندون لأمة الإسلام في هذا الزمان؛ وبعد أن تطورت وسائل الإلهاء واللعب حتى اقتحمت البيـوت، وغـزت الحصـون المشيدة، وخفايا الحجرات، استعصى هذا المـرض الفتـاك، وعـم خطـره، وصـعبت الوقاية منه، وسواء تمثل ذلـك بمـا أطلقـوا عليـه – زوراً وبهتانـا – فنـاً، كـالرقص والغناء والرسم، لإضـاعة الوقـت المحسـوب عنـد رب العـالمين ذلـك الـذي يجب استغلاله تفكراً في مخلوقات الله والاستدلال بها على عظمة الخالق سبحانه وتعالى، ثم التفكر لفهم كتاب الله وما نزل من الآيات وسنة رسول الطاهرة، والعمـل بهـا، ونشر الدعوة الإسلامية، وحماية بيضـة الإسـلام، والتـدريب علـى حمـل السـلاح، وصنعه وتطويره، لصد الأعداء عن أرض الإسلام ولنذكر عندما حولوه إلى مـدافع قدك الأسوار والحصون، حتى فتحت عاصمة أوروبا الشـرقية "القسـطنطينية" تلـك المدينة الحصينة ببحارها ومضائقها وتلالها قروناً طويلة.

وقد قال فيها وفي فتحها رسول الله محمد ﷺ "لتفتح القسطنطينية فلنعم الأمـير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش" رواه أحمد والحاكم.

ومنها اندفعت جيوش الإسلام عزباً لفتح قارة أوروبا حتى وصلوا عاصـمتها

العظيمة الكبيرة "فينا" ثم جعلت من البحار: الأبيض المتوسط والأسود والأحمر وقزوين والعربي وما تحويه هذه البحار من جزر وشواطيء إسلامية، تستظل بظل دولة الإسلام، وتستنير بتعاليمه، وتدخل شعوبها في دين الله أفواجاً.

وبقيت هذه السيطرة بضع قرون – ولكن الأيام دول –فقد طورت أوروبا سلاحها فتقدمت بعلومها واندفعت لحكم العالم بالنشاط والعلم لا باللهو واللعب الذي صدرته إلى البلاد المفتوحة المستعمرة ومنه العالم الإسلامي صدرته بفساده وضرره، فتقبله هذه العالم بجهل وغباء اتصف به عندما ترك دينه القويم وشريعة ربه المنيرة الهادية.

وقد حددت هذه الآية الكريمة الهدف عند هذا المجرم المفسد فيما أقدم عليه؛ ليضل الناس، وهو لا يعلم نتيجة جرمه البشع يوم الحساب، وعظم ما أقدم عليه بصده عباد الله عن دين الله الحنيف، فهو يعمل ما يعمل "بغير علم ويتخذها هزواً" فهو يهزأ بالدين وبرسول الله،ولا يفرق بين كلام الله المنجي من النار، وبين قصص وخرفات الفرس والروم وعبدة الأصنام.

يستغل جهل الناس، وتحكيمهم للهوى، والسير وراء نفس أمارة بالسوء، وتزيين شياطين الإنس والجن لهم، ويحاول إفساد الصحيح بخلطه جرثومة الفساد معه.

ثم يوضح رب العزة المطلع على السرائر، وما تخفي الصدور، أن هذا وأمثاله. ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان: ٧].

وذلك لتكبره ورعونته، لا يسمع لداعي الحق، ولا يريد أن يفكر حتى ولو لأدنى تفكير في هذا الدين الجديد. وتأتي الآية الكريمة بأبلغ أنواع الإعراض

والانحراف: ".. كأن في أذنيه وقرا " كـأن ثقـلاً معلقـاً بأذنيـه، يحجـب عنـه السـمع، فيصاب بالصمم.

ثم إن كلمة "بشره" توحي بالاستهزاء والاحتقار له، لان البشـرى تكـون عـادة بالخير والفرح، ولكنها أتت هنـا لوضـاعة مـن ذكـرت فيـه، كقـول الله في الكـافر المعاند "ذق إنك أنت العزيز" والعذاب المهين والألـيم هـو نتيجـة عملـه وفسـاده في الدنيا، وأما جزاءه الدنيوي فكان بقتله ورميه في قليب بدر بعـد تلـك المعركـة الـتي أطاحت بكبرياء المجرمين المتعجرفين من قريش الذين أوقفوا أنفسهم للصد عن دين الله، وقاوموا هذه الدعوة بالنفس والنفيس.

وإن أخبار القرآن الكريم عن هذا المجرم وأمثاله من الأشـقياء الـذين ذكـرهم القرآن الكريم بأنهم من أهل النار، وكان أن ماتوا كفاراً أشقياء، وهذا مـن إعجـاز القرآن الكريم الذي ذكر أنهم من أهل النار فقد قـال في الاخـنس بـن شـريق ".... يحسب أن ماله أخلده كلا لينبذن في الحطمـة..." الحطمـة: هـي النـار وقـال في أبـي جهل: " إن شجرة الزقوم طعام الأثيم..." وفي الوليد بن المغيرة: "ذرني ومن خلقـت وحيدا...." " سأرهقه صعوداً " وفي أبي لهب ".... سيصلى نـاراً ذات لهـب " وجميعهم حرموا خير التوبة، وخير الإسلام، فماتوا كفاراً عصاة ولم تكتب لهـم التوبـة الـتي نال خيرها باقي أهل مكة يوم الفتح، فدخلوا في دين الله ورحمته.

وإن كان "النضر" يجهل نتيجة فعله، وما قام به من فساد، وصد عـن سـبيل الله، وأن نتيجة عمله ستكون النار يوم القيامة، مع ما ناله من ذل الدنيا. فكـم مـن أمـة محمد ﷺ في هذا العصر.

يقوم ببناء دور اللهو والخمارات وتصوير الأفلام الخليعة ويروج لها تلك التي أقل أضرارها ضياع وقت الناس، ناهيك عن فساد أضرارها بإثارة الغرائز الجنسية، ونشر الرذيلة والفاحشة، والتهوين من نشر المنكـرات والعصـيان لأمـر الله، ليقـوم أهل الجهل، والعامة من الناس بالتقاليد والوقوع في شراك إبليس اللعين، نعم يقدم

هذا المسلم على جرمه هذا وهو يعلم ويتصور نتيجته، وحكم الشرع فيـه، ويـؤمن بيوم الحساب الذي لا مفر منه.

والنار التي أعدت لكل ظالم، وهي ليست ببعيدة عن أهل الفساد. ومـا كتبـت هذه الآيات ووضعت في كتاب الله إلا للعظة وتوضيح الطريق، وكشف مـا ينتظـر الإنسان من مصيره، والعاقل من اتعظ، والجاهل من تمرد على أمر الله، وتمني الجنة، ولنذكر أن سجدة واحدة خـالف فيهـا إبلـيس ربـه جعلتـه مثـال الشـقاء والتمـرد واللعن.

فيا من اؤتمنتم على كتاب الله، ونشر تعاليمه وتطبيقها يا مـن إمتـدحكم رب العزة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [لقمان: ٨ - ٩].

تذكر وأنت تجلس على أريكتك تنظر إلى تلـك الشاشـة تنقـل لـك مـا يزيـغ بصرك ويطمس بصيرتك: مناظر من أقطـار المعمـورة فيهـا اللـهو والفسـاد، تنقلـه إلى المجتمع، وتمر الساعات تلو الساعات وأنت لاه، مكب علـى هـذا الصـنم ناسـياً متناسياً ذكر الله، تسبح في مستنقع فساد، جعلك تنسـى مـا خلقـت لـه مـن عبـادة الله وحــده. قــال الله ســبحانه وتعــالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ثم تنسى أهمية الوقت عند المسلم والسؤال يوم القيامة عن عمره فيمـا أفنـاه. إن هذه الشاشة لو استغلت لنشر دين الله وتوضيح الحلال من الحـرام – كمـا أمـر الله – ولنشر العلم النافع والمعرفة والاختراعات، وتطوير الألة واستعمالها في الخير والصلاح، لكن نفعها عظيماً وخيرها عميماً. وذلك لإنهـاض أمـة كبـت، وزادهـا الاسترخاء وتعثر القيام ضعفاً على ضعف.

ثم الانتكاسات المتتالية والإحباط المتعمد تلك التي خطط لها أعداء الأمة، ليبقى سوقاً مربحاً وبقرة حلوباً لأرباب المال والصناعات من يهود الدين ومن يهود الولاء.

ومن الصليبيين ونذكر في هذا السياق موقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – حيث وجد في المسجد مسلماً يتعبد ضحاً، فنهره ثم علمه طريق الفلاح لأمة الإسلام، فللعبادة وقتها وللعمل وطلب الرزق وقته.

فكيف لو وجده جالساً وحوله الدف والقيان أو وجده مستلقياً أمام تلك الشاشة التي لا تنتهي من عرض منظر إلا وتبدأ بعرض الآخر جاهزة للنشر بدون توقف، ليلها ونهارها.

وكيف برسول الله محمد ﷺ عندما ذكر أمامه: من يصوم النهار ويقوم الليل فقال ومن يطعمه قالوا كلنا. قال كلكم خير منه. فالعمل والنشاط والبناء والزرع والتعلم والدفاع عن البلد وحمل السلاح والرباط في الثغور، هي من الأمور الواجبة لدعم الأمة، وحماية الدولة، ونشر الدين.

هذا وقد ذم الرسول محمد ﷺ بل وحذر من شريحة ستظهر في أمة الإسلام تمسخ قردة وخنازير وذلك أنها تنام على صوت القيان.

قال رسول الله ﷺ: "ليشربن أناس من أمتي الخمور يسمونها بغير اسمها يعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير" ابن ماجة.

١٨- إبنا آدم – A – وأول جريمة قتل حدثت

قال الله سبحانه وتعالى – مخاطباً رسوله: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧ – ٣١].

ما كان علم الغيب حكراً على ديانة دون أخرى، ولا على نبي دون آخر. فما دام مصدر الغيب هو رب العالمين وهو مرسل الكتب والرسل والمعجزات، وأخبار الأمم السالفة، وعلم ما وراء الطبيعة هو الرب نفسه، المحيط الوحيد بعلم الكون والمخلوقات.

فللقرآن الكريم والمسلمين ورسول الله محمد ﷺ نصيب في ذلك. كما أخذت الديانات الأخرى نصيبها من ذلك ولكن الفرق هو بين معلومات اختلط فيها الصواب والخطأ والحذف والزيادة، وتحكيم الهوى والرغبة والحكام ورجال الدين: وعلم تعهد الله بحفظه من التغيير والتبديل فحفظت بيضاء ناصعة بين كتاب معجز إلى أن تقوم الساعة.

إنه الحق والقصص الصحيح ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ .... ﴾ [المائدة: ٢٧].

ذكرت هذه الآيات الكريمة في سياق إخباره سبحانه وتعالى عن مكر وكيد

وعصيان اليهود لأنبيائهم، وفسادهم المعروف في الأرض والخطاب موجه لرسول الله محمد ﷺ، ليخبر اليهود والناس خبر هذه القصة كما حدثت حقاً وصدقاً بدون تحريف ولا تزوير.

وقد تكون هذه القصة من أسرار كتب اليهود وقد كشفها القرآن الكريم لتكون من الآيات الدالة على صدق رسالة محمد ﷺ الذي كان أميا ولم يطلع على كتب تاريخ البشرية، ولم يقرأ التوراة فجيء بقصة أول حادث عصيان وفساد في الأرض من بني آدم.

تلك القصة العظة لمن أراد الصلاح في الدارين وفيها العلم لمن استنار عقله؛فاهتدى،وسار طريق الحق وتبين هذه الآيات الكريمة أن مصدر المعرفة عند الإنسان يرجع لأمرين: إما أوامر ونواه للوالد الأول "آدم – عليه السلام" كنبي معلم لذريته؛ لتطبق في حياتهم، وتضبط سلوكهم، وفيها سعادتهم وراحتهم في الدنيا والآخرة.

نستنتج هذه التعاليم التي لا بد أنها كانت معروفة لديهم لاحتكام الأخوين المختلفين إلى تعاليم تقريب القرابين لله وبطريقة واضحة معروفة متفق عليها: فمن قبل قربانه فهو على حق ومن لم يقبل قربانه، ولم تأكله نار – بامر الله – فهو على باطل. كما نفهم من رد الأخ المظلوم على أخيه الظالم الذي يهدده بالقتل؛ لأن الله لم يقبل قربانه فحسد أخاه الذي قبل قربانه وكاد له؛ حيث أجاب المظلوم على هذا التهديد: أن الله يتقبل ممن يتقيه ذلك العامل بأمر الله والمنتهي عما نهى عنه. وكذلك من قوله إني أخاف الله رب العالمين.

ثم وصفه للظلم، ومصير الظالم، وذكر النار مصير الآثم، وحمله الإثم إن قتله، فهذه العبارات من ابن آدم من صلبه مباشرة تدل بشكل واضح على أن هناك تعاليم علمها آدم لأبنائه عن ربه واما المرجع الثاني للعلم والمعرفة – كما ذكرته هذه الآيات الكريمة – فهي الملاحظة،وتقليد ما يحيط به من أعمال مخلوقات الله،

ومنها الحيوانات، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿... لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ ...﴾ [المائدة: ٣١].

تدل على هذا المرجع الهام الخصب لابن آدم بالتعلم مما حوله من المخلوقات ومنها الغراب. فالشكر لله الذي هدانا لما فيه مصلحتنا وخيرنا وتدبير معاشنا.

نتعلم حتى من الحشرات، كالنمل والنحل وما يعيش في مجموعات: الجد والعمل والتعاون والنظام وطاعة أمر القائد، والمحافظة عليها.

كما نتعلم بالملاحظات: كيف نصنع الطائرة والسفينة والغواصة من الطيور والأسماك. وكيف نبني بيوتنا ونصنع آنيتنا، وما نحتاجه في حياتنا الدنيا.

ويقف ذلك العاصي لأمر ربه مهدداً متوعداً أخاه ذلك التقي الورع الذي استجاب لأمر الله واستعمل لغة التفاهم والعقلانية والعظة أمام هذا الموقف. ولكن أخاه المعتدي نسي الأخوة والسند وتحكيم شرع الله، وساقه الشيطان للشر والمعصية والتمرد على شرع الله؛ فيقول كلمته التي دفعتها حمم الحسد والمكر والفساد ﴿لَأَقۡتُلَنَّكَۖ﴾ فأجابه ذلك التقي: ﴿...إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ثم يتابع قوله مبيناً وموضحاً موقفه من هذا الإعتداء بدون مبرر فيقول: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

كيف تقتلني وما لي ذنب فيما حصل، فالله القادر هو الذي تقبل مني وحرمك، لأنه هو المطلع على السرائر الذي لا تخفى عليه خافية في السماء و لا في الأرض ثم يذكر أخاه بهذه الجرأة على الله وعلى شرعه فيقول لن أمد يدي لأقتلك حتى ولو مددت انت يدك إليّ لتقتلني، لأني أخاف الله ولا أقدم على جريمة القتل.

ورغم هذا الوعظ والتذكير بعظم هذه الجريمة: وان القتل محرم وعقابه النار.

فقد عميت بصيرته، وحركته نوازع الشر، واستجاب لشيطان مارد، زين له قتل أخيه. ثم يتابع ذلك التقي جوابه فيقول: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

ورغم كل هذا التحذير فقد غدر بأخيه التقي فقتله. فخسر سنده في هذه الدنيا، وعضده في العمل والعيش والحياة، والسكن والأنس، وخسر جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، وذلك لارتكابه هذه الجريمة الشنيعة، وغدا لعنة الأجيال، وصار الغدر، وسن سنه عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى أن تقوم الساعة. قال رسول الله محمد ﷺ عنه: "لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل " رواه أحمد.

قال الله سبحانه وتعالى – يصف ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠].

ونظر إلى هذا الذي كان سنده وخليله ورفيق دربه في هذه الأرض الموحشة، فاحتار فيما فعل، وفي جريمته النكراء تلك، وماذا سيفعل بأخيه الذي أصبح جثة هامدة؟!!! أيتركه لوحوش البرية وجوارح الطير تلتهم لحمه وهو ينظر كما تفعل ببعض؟

فحمله على ظهره، واجتمعت جوارح الطير وسباع الارض لتأكل لحم أمير الأرض وخليفتها، ذلك الإنسان الذي أعزه الله، فأمر الملائكة بالسجود له ويقف محتاراً ينظر يمنة ويسره يبحث عن حل لما ابتلى به، فيرى غراباً يبحث بين تراب الأرض بمنقاره ومخالبه، فينتبه لهذا العمل، ثم يصرخ بالويل والهلاك وقد وجد الحل فيما يشبه تلك الحفرة التي حفرها ذلك الغراب.

وعجباً لهذا الظالم القاتل، يدعو بالويل والهلاك على نفسه لا لقتله أخيه،

ولكن لأنه شعر بعجزه امام ذلك الغراب الذكي الذي علمه كيف يدفن أخاه فقلده ودفن أخاه.

قال الله سبحانه وتعالى – يصف هذا الموقف:﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

فندمه ليس على جريمته العظيمة النكراء ولو كان ذلك لكانت توبة منه وهذا يخالف الواقع ولكن ندمه على عدم معرفته كيف يدفن أخاه حيث هداه حيوان إلى ذلك إن هذا الذي اقدم على قتل اخيه سنده وانيسه في وقت كان أبناء آدم – عليه السلام – قلة في الارض الواسعةالموحشة، وصراع مع وحوشها وسباعها المفترسة، وطبيعتها القاسية، وكانه قتل الناس جميعاً هذا الذي لم يسمع لدوافع الخير والفلاح بل سمع لنوازع الشر والكيد والحسد؛ فأقدم على قتل من لو بقي على قيد الحياة، لكانت ذريته تعد بالمليارات من البشر: أبناء واحفاد ونسل، ولكن عمروا الارض مع الباقين من أبناء آدم – عليه السلام – هذه المقارنة التي ذكرتها تلك الآيات القيمة المباركة بين ذلك التقي المتمسك بدينه وعقيدته وتحكيم شرع الله وبين من حكم الهوى والنفس الأمارة بالسوء، واختيار طريق الضلال والجريمة، يتحكم في سلوكه الكيد والمكر والحسد والرعونة، فكانت عاقبته النار وساءت مصيراً.

إنه درس لكل فرد منا امام كل رغبة او عمل او سلوك: فمن ربطه بأوامر الله ونواهيه نجا وربح الدارين.

ومن حكم الهوى وسار وراء نفس جامحة ليس لطمعها حد ولا قيد، وأعرض عن حكم الله، فخاض في محارمه لايهتم لعاقبة عمل فالنار هي مثواه، وساءت مستقراً ومقاماً.

ما كان هذا القصص الحق ليكتب ويسطر في كتاب الله الكريم يتلوه المؤمنون

ليل نهار للتسلية واللهو بل هو للعبرة والعظة. والتذكير بأيام الله تذكير الجماعة والأفراد، وذكر لكل متجبر متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

ونذكر من أعرض عن تعاليم الله وعن شرعه ان الله لم يخلق الإنسان سدى، وان الرغبة الشريرة والنفس المريضة، والهوى الضال المضل يجب كبح جماحها ولجمها حتى لا تطغى فتفسد الأرض ما كان هذا المظلوم القتيل المتمسك بتعاليم السماء، وطاعته لربه العليم الخبير إلا نموذج الصبر أمام تعسف من لا يتقي الله.

ومع هذا لا يعني سرد هذه القصة الذلة والتسليم للطغاة، وقد أعزنا الإسلام بتعاليم القرآن الكريم الذي فرض الجهاد ودفع الضر، والدفاع عن النفس بل وقتل المعتدي الظالم والكافر ومن لا يسمع النصح والوعظ فيردعه السلاح إن لم يردعه اللسان، ومن قتل دون نفسه أو أهله أو عرضه أو ماله فهو شهيد وللمعتدي النار فقد سمح لنا رب العزة دولة وأفراداً بالدفاع ودفع العدو ما استطعنا بل ووعدنا بالنصر إن قمنا بالإعداد والإخذ باسباب النصر. قال الله سبحانه وتعالى – واعداً بالنصر –:﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [الحج: ٦٠].

ثم قوله سبحانه وتعالى – وقد أطلق يد المظلوم ليأخذ حقه إن أراد –: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

حدد لنا وبكل وضوح وبيان موقفنا من الكفار الظالمين منهم والمعتدين فأمرنا بالجهاد ودفع الظالم، وتحطيم الحواجز المادية التي تحول دون دعوة الإسلام والوصول على الناس اجمعين كما بين لنا موقفنا من المسلمين في الفتن الداخلية. فقال رسول الله محمد ﷺ: "إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي والماشي خير من الساعي قال أفرايت إن دخل علي بيتي فبسط يده إلي ليقتلني فقال " كن كابن آدم" رواه الترميذي وأحمد.

١٩ - المسلمون هم ورثة دين ابراهيم – عليه السلام –

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٥ - ١٤١].

قال رسول الله محمد ﷺ: "إن لكل نبي ولاية من النبيين وإن ولي منهم وخليل ربي عز وجل ابراهيم عليه السلام " الترمذي

قال الله سبحانه وتعالى – على لسان ابراهيم – عليه السلام – حيث دعا لأهل مكة المكرمة بالأمن والرزق -: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

" قال ومن كفر " القائل هو الله سبحانه وتعالى حيث استدرك دعـاء إبـراهيم – عليه السلام – لأهل مكة المكرمة – من آمن منهم – مبيناً سبحانه وتعالى أنه تكفل بـرزق المؤمن والكافر معاً، ولكن الكافر ينال جزاء كفره يوم القيامة. سيعذب بالنار وهي أسوأ مصير ومآب. وأما آية الإمامة والقيادة – حيث دعا إبـراهيم – عليه السلام – لذريتـه – بعد أن كرمه الله بها – فقد أستثنى رب العزة الظالمين من ذرية إبـراهيم – عليه السلام – فلا شرف إمامة لهم من ذلك العهد.

قال الله سـبحانه وتعـالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وأم ما ابتلاه ربه به فهو الأوامر والنواهي، حيث صبر وثبت عليها وطبقها في كل أحواله وظروفه وهذا هو التمام الذي ذكرته الآيـة – والعلـم عنـد الله – وأمـا قوله سبحانه وتعالى: " إني جاعلك للناس إماماً "

فهذه دليل على أن دعوة إبراهيم – عليه السلام – كانت للنـاس عامـة ولـيس لقـوم فقط، وذلك كدعوة الإسلام التي حمل ثقلها رسول الله محمد ﷺ ويستمر

إبراهيم – عليه السلام – بالدعاء وجلـب الخـير لأهـل الحـرام وللنـاس عامـة حتـى الأجيال اللاحقة. قال الله سبحانه وتعالى:﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٨].

فقد جمع الخير كله في دعائه هذا فقد دعا لنفسه وابنه والأجيـال اللاحقـة مـن ذريتهما ليكونوا أمة مسلمة ثم طلب من الله أن يرينـا منـا سـكنا – وهـي مناسـك الحج للمسلمين – والـدعاء لإسماعيـل – عليه السلام – وذريتـه وقـد أرسـل رب العـزة جبريل – عليه السلام – وحج بهم فعرفوا مناسكهم. والشكر لله الذي أرانا كيف نعبده حتى يرضى عنا، ولا نضل فنشقى.

ثم يتابع الدعاء حيث قال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ....﴾ فهذه بشرى للعرب – أبناء إسماعيل – عليه السلام – ببعثه رسول الله محمد ﷺ. لم يذكر رسلاً بل رسولاً وهذا ينطبق على فخذ إسماعيل بن إبراهيم – عليهما السلام – ولا ينطبق على فخذ إسحاق – عليه السلام – كما تذكر الآية أن هذا الرسول سيكون منهم لا من شعب آخر.

قال أبو إمامة قلت: يا رسول الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال: " دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام" مسند الإمام أحمد.

"نور أضاء الشام" هي وصول هذا الدين لها ثم ثباته فيها إلى أن تقوم الساعة – إن شاء الله – فقد طلب من ربه في دعائه هذا أن يرسل إليهم رسولاً يعلمهم أمور دينهم. "التزكية" هي الإخلاص في طاعة الله. "الحكمة" ما بين رسول الله من سنن، لتجنب الشر وعمل الخير. هذا وقد كانت أبرز ما يوصي به الأنبياء والرسل هو الإسلام والانقياد لله.

وعدم الشرك والابتعاد عما يعبد به من دون الله. ولحرصهم على الإسلام والتمسك به كانوا يوصون أبنائهم أن تستمر عبادتهم الخاصة لله إلى ساعة الموت.

قال الله سبحانه وتعالى: في رده على أهل الكتاب – عندما قصروا الهداية بإتباع دينهم: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥].

"الحنيف" هو الذي يؤمن برسل الله كلهم وما جاءوا به مع الإخلاص والاستقامة والثبات على دين الله قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ

أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

فقد وضحت هذه الآية الكريمة ما يجب عليهم من الإيمان: الإيمان بالله والقرآن والكتب السماوية ورسل الله وعدم التفرقة بين هؤلاء الرسل فكلهم. قالوا: سمعنا وأطعنا؛ وصبروا وتحملوا حتى بلغوا الدين لخلق الله. وما أختاره الله فهو الخير. ونحن مستسلمون لأمر الله، عاملون بما أمر وفرض.

وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿... وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ "الأسباط" هم أنبياء من بني إسرائيل أو بطون من بني إسرائيل.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ......﴾ [البقرة: ١٣٧] فقد حدد هنا الهداية بما ذكره في الآية السابقة.

وأبطل قول أهل الكتاب وتحديدهم للهداية، وذلك بقولهم ﴿... كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ...﴾ [البقرة: ١٣٥].

وإن تولوا بعد قيام الحجة عليهم ﴿...فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ..﴾ ﴿...فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ...﴾ فقد تعهد رب العزة بنصر المسلمين عليهم، وذلك لأنه يسمع قولهم يعلم مكرهم وكيدهم ونيتهم.

قال سبحانه وتعالى – يصف دين التوحيد، فهو لون مختلف عن غيره ومميز عمن سواه. ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾. ﴿...وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ...﴾ كل محاسب على عمله.

فلا تجادل في الله بل نحن مخلصون له العبادة ثابتون على عقيدة الإسلام. فهي دين التوحيد الذي أخذت به الأنبياء والرسل.﴿....وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ....﴾[البقرة: ١٤٠].

الشهادة التي كتمها أهل الكتاب هي أن الدين هو الإسلام وأن محمدا رسول الله وأن أنبياء بني إسرائيل ومن سبقهم: هم حملة راية التوحيد ومحاربة الشرك، وأنهم براء من ورغبات رجال الدين وهواهم.

﴿....وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ في هذه الآية تهديد ووعيد لهم، وان الله مطلع على السرائر وما تخفي القلوب.

وان انتسابكم لإبراهيم وذريته لا يفيدكم شيئاً ما دمتم تتمرغون في مستنقع الفساد والضلال، وتحتالون على أمر الله ونهيه.﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[البقرة: ١٤١].

فهي أمة أفادها عملها لانسبها. فإبراهيم – عليه السلام – لم ينقذ أباه من النار. كما لم ينقذ نوح – عليه السلام– ابنه منها قال رسول الله ﷺ"من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه"

روي أن من أسباب نزول هذه الآيات الكريمة اجتماع نصارى من نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ؛ فتنازعوا عنده قالت الأحبار ما كان إبراهيم إلا يهودياً وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانياً فكانت هذه الآيات البينات رداً عليهما وفضحاً لأمر لم يقدراه وجهلاً ظاهراً، وافتراء واضحاً فقد تنازعا في أمر بين واضح وضوح الشمس. فالفرع – عادة – يُنسب للأصل ولا يُنسب الأصل للفرع. فنُسب الإسلام لدين إبراهيم – عليه السلام – لأنه الأصل. وأما اليهودية والنصرانية فقد جاءتا متأخرتين قروناً طويلة عن إبراهيم – عليه السلام– فلا يجوز أن ينسب هولها: فنقول إن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً.

وهذه القاعدة هي من البديهيات التي لا ينكرها أحد، إلا مكابراً يرى النهار الأبلج ليلاً دامساً.

وقال الله سبحانه وتعالى: ينكر عليهما حجاجهم في إبراهيم -عليه السلام- ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٥].

لذلك كانت نهاية هذه الآية الكريمة ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ رداً قوياً، وحجة دامغة على افترائهما على الله وعلى كتبه ورسله وذلك لأن دعواهما منافية للعقل مناهضة لبدهياته.

وهذه الفضيحة في تلك الآيات الكريمة تدفع رجال الدين – اليهود منهم والنصارى – بالكذب والهراء وتغيير الحقائق وتجعل الشك يلف ما بين أيديهم من كتب وتعاليم لا يوثق بها وما هي إلا تأليف رجال كتبوها – في عصور متأخرة عن نزول التوراة والإنجيل – حسب هواهم وهوى الحكام في عصورهم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

ومن هنا ظهر التناقض بين تلك الروايات قديمها وحديثها، وانقسم اليهود والنصارى إلى فرق متعددة ومذاهب شتى، وجماعات متناحرة متخاصمة كل يتهم الأخر بالتزوير والكذب، وبالتالي فهم جميعاً مزورون كاذبون وتناقضت عندهم الأسس والمقاييس؛ فلا مجال لتوقف الجدل والتنازع وكيل الاتهامات:

"وأغرينا بينهم العداوة والبغضاء" وقد بعدت الشقة، واتسع الفتق على الراقع

﴿... وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ...﴾ قال الله سبحانه وتعالى – منكراً على أهل الكتاب حججهم الكاذبة وكلامهم فيما لا يعلمون، ويأمرهم برد العلم لله: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٦].

ويستنكر المطلع على خفاياهم وأسرارهم وكيدهم الذي خلقهم فيقول لهم: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ ....﴾ [آل عمران: ٦٦].

اختلفتم فيما هو ظاهر بين في كتبكم وتاريخكم وأنبيائكم سواء في أمر عيسى بين مريم – عليه السلام – أو في غيره.

اختلفتم في أحداث عصركم؛ فكيف بكم تحاجون في أحداث مضت منذ قرون؟ فيما لا علم لكم فيه من دين وتعاليم إبراهيم – عليه السلام – ثم تختم هذه الآية الكريمة والحجة الدامغة عليهم﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فقد حكم عليهم بالجهل فيما يخوضون فيه. وكان الأولى بهم أن يوحدوا آراءهم فى أمور عاصروها.

قال الله سبحانه وتعالى: – مجيباً وموضحاً دين إبراهيم – عليه السلام – ﴿... مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

لا ينسب الأصل للفرع ولا القديم للجديد.

فإبراهيم لم يكن يهودياً حيث ظهرت الديانة اليهودية بعده بقرون ولم يكن نصرانياً لأن هذا الدين ظهر بعد الديانة اليهودية أيضاً بقرون. هذا تفنيد دعواهم الكاذبة وهذا هو الرد الحقيقي الصادق على ما ادعوه ثم يعرّف سبحانه وتعالى، لفض نزاعهم، دين إبراهيم – عليه السلام – فيقول ﴿... وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا

....﴾ "حنيفاً" ميله إلى الإيمان متجانفاً معرضاً عن الشرك ﴿...وَمَاكَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ...﴾ تعريضاً بمن أشرك من أصحاب الكتب وهم كثر. وإبراهيم ودينه الحنيف بريءْ منهم ومن شركهم ومن دينهم المحرف الذي لعبت فيه أقلام وأهواء شريرة مضلة.

كما يبين لمشركي مكة والعرب أنهم ليسوا على دين إبراهيم – عليه السلام –.

ثم تختم هذه الآيات الكريمة بحكم الله العادل البين الذي شرف الله به أمة الإسلام وأكرمها حتى وصلت مالم تصله أمة قبلها، ولن تصله أمة بعدها.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨].

هذا هو المجد والرفعة، هذا هو الشرف والتكريم، هذا هو الوسام الوضاء على صدر أمة الإسلام وممن؟ من خالق الكون والإنسان والحياة، من خالق الهداية والنور، والحب والجمال والعفة وما سواها، هذه هي أمة الإسلام الماجدة، فلتفخر الشعوب بوسام الحقيقة، وسام العزة، تتقلده شعوب يرفع في ربوعها ذكر الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الله أكبر من فوق مآذن زرعت من على مساجد تلك الأمصار.

والله يعز من يشاء، ويذل من يشاء بيده الخير، وهو على كل شيء قدير. فالشكر لله الذي أعز أمة الإسلام بقوله سبحانه وتعالى: ﴿....وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ نعم، نحن أولى الناس بخليل الله؛ إبراهيم – عليه السلام – الذي وفي كل ما أمر به، ونجح في الابتلاءات كلها.

فالرحيل أولى بكم أيها اليهود؛ نحن أولى بإبراهيم عليه السلام، نحن أولى لأننا اتبعنا نهجه وسلوكه في إكرام الضيف، ومضافته مفتوحة على مر العصور تشهد ومنذ

الفتح الإسلامي. لمدينتة الطاهرة الخليل وإلى اليوم حتى في السنين العجاف. إن سدنة الحرم الإبراهيمي الشريف بالخليل هم الذين يقول الله فيهم مادحاً ومكرماً لهم: ﴿...وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ ...﴾ فرسول الله محمد ﷺ والذين آمنوا معه واتبعوا دين التوحيد هم ورثة بني الله إبراهيم – عليه السلام – هم الذين حافظوا على مقدسات ومساجد الأنبياء والصالحين عبر التاريخ: فالمسجد الحرام والمحافظة عليه وخدمة الحجاج إليه من مشارق الأرض إلى مغاربها مقدسين ركعاً سجداً متمسكين بتعاليم ونسك الدين الحنيف. وخدمة هؤلاء هي في ذاتها عبادة. فليرحل قتلة الأنبياء كما رحل من قبلهم الصليبيون الخنازير الذين دنسوا المسجد الأقصى برجسهم وحولوه خاناً لخيولهم. ومن وصف بتحريف كلام الله وتغييره حسب الهوى؛ لا يؤتمن على حرم إبراهيم الخليل – عليه السلام – ولا على الأقصى الشريف. فما دامت أمة الإسلام تسير على منهاج الله ودين التوحيد. ماداموا موحدين أتقياء مؤمنين، فهم ظاهرون – بقوة الله وتوفيقه – على أعدائهم، وما داموا متمسكين بالعروة الوثقى الشريفة الغراء فهم ورثة التوحيد في الأرض آمنوا بكل الرسل – وبدون تفريق أو تعصب – وبالكتب التي أنزلت من رب العزة. لا فرق عندهم بين أهل الإيمان والتوحيد مهما اختلفت وتباعدت الأوطان أو الأصول. فلا فرق بين آسيا بنت مزاحم، ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد – رضي الله عنهن – يجتمع من أبناء آدم عامة مؤمنين موحدين بحرم الله في كل عام. والحج ركن من أركان الإسلام الذي أعز أهله أقول: يجتمعون في حرم الله لا تفرقهم ألوان ولا أصول ولا أوطان.

ويكشف سبحانه وتعالى سريرة أهل الكتاب وما يضمرون من كيد وفساد وكره للمسلمين فيقول. سبحانه وتعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩].

﴿لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ﴾ أي يردونكم للكفر بعد إذ أنتم مسلمون فيحل عليكم غضب الله فتهلكون. هذا التحذير لأمة الإسلام من رب العالمين هو إكرام وتثبيت لها وخوف عليها من كيد أهل الكتاب، فالشكر لله دائماً سند المؤمن وهادي السبيل، ويرد رب العزة على كيدهم ومكرهم المعروف بقوله ﴿... وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾.

هذا من فضل الله علينا ورحمته بنا، يبشرنا بنتيجة فسادهم هذا؛ وإن ما يحفرونه للمؤمنين سيكون قبوراً لهم جزاءً وفاقا. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ [محمد: ١١].

ثم ياتي دور التوبيخ، وفضح المخططات المضلة؛ فيذكرهم، سبحانه وتعالى، بكفرهم بنبوة محمد ﷺ رغم نعته الصادق المدون عندهم في كتبهم.

ويذكرهم بفسادهم العظيم المعروف فيقول سبحانه وتعالى لهم:﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧١].

فيكشف سريرتهم وما يكتمونه؛ كما ويفضح مؤامراتهم وكذبهم، وإخفاءهم حقيقة صفات رسول الله محمد ﷺ. فيقول: ﴿...وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾.

أي تعرفون هذا وتنكرونه مع سابق إصرار ووعي وعلم ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾ [البقرة: ٧٧].

نستنتج من كل هذا الوعظ والتكريم والنصرة أن أمة الإسلام ليس لها حصن يحميها إلا التمسك بشرع الله وتطبيقه والتمسك بدين التوحيد، والله ولي التوفيق.

٢٠ - شريحة الفسق والتحذير منها

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحُجُرات: ٦ - ٧].

الخطاب موجة للمؤمنين حرصاً على سلامتهم وسلامة الثقة بهم وبمعاملاتهم مع الغير.

والتحذير في هذه الآيات البينات لا يخص فرداً من الأمة أو فئة محدودة بل هو تحذير للدولة ورجالها والمجتمع وفئاته المختلفة. وذلك لان الأصل في كلام وأخبار الفاسق هو الكذب كما أن الأصل في كلام المؤمن هو الصدق لأن المؤمن يصدق ويصدق، يتقي الله فيما يصدر عنه من عمل أو قول، ويؤمن أن حصاد الألسن هو الذي يكب الناس على وجوههم في النار يوم القيامة.

وكلمة ﴿فَاسِقُۢ﴾ في هذه الآية الكريمة نكرة تفيد العموم، وتعني الكاذب فالحذر مطلوب ممن يثبت فسوقه، ولا ثقة بكاذب، فسلوكه وتصرفه محاط بالشك، " قيل: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

وسبب ذلك أن النبي ﷺ بعث الوليد بن عقبة مصدّقاً "العامل الذي يجبي الزكاة" إلى بني المصُطلق، فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم، وفي رواية: لإحنة كانت بينه وبينهم -، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام، فبعث نبي الله ﷺ خالد بن الوليد وأمره أن يتثبت ولا يعجل، فانطلق خالد حتى أتاهم ليلاً، فبعث عيونه فلما جاءوا أخبروا خالداً أنهم متمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم

وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه، فعاد إلى النبي ﷺ فأخبره، فنزلت هذه الآية. والمهم ليس خصوص السبب بل عموم التحذير والآية تحذر المؤمنين من سرعة الفعل ووجوب التأكد من نية الفاعل وغايته، عند السماع بما يؤذينا، وذلك حتى لا نقع في المحذور فنندم، وقد وصف رب العالمين التسرع – في هذه الآية – بالجهل. ومن هنا كان أمراء الجيوش الإسلامية ينذرون الأعداء قبل مهاجمتهم، ويخيرونهم بين الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب كما كانوا إذا هاجموا المرتدين ينتظرون حلول صلاة الصبح فإن سمعوا الآذان في ديار الأعداء، توقفوا عن مهاجمة القوم.

وقد نبه رب العالمين المجتمع المسلم: أن يرجع أخبار الدولة مع أعدائهم من نصر أو هزيمة إلى أولي الأمر قبل إشاعة ونشر هذه الإخبار، وذلك لأن للدولة طرقها الخاصة في معرفة صدق أو كذب هذه الأخبار.

وذلك حتى لا يستغل المرجفون والمنافقون وعيون الأعداء نشر الإخبار للإيقاع بين المسلمين أو تثبيط العزائم وإرباك الجيوش فالتثبيت مطلوب، وخاصة في الحروب وللدول ورجال الحكم طرقهم الواعية وأساليبهم الناجحة في التأكد من هذه الأخبار والإشاعات.

قال الله سبحانه وتعالى:﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣].

فلو لا فضل الله ورحمته بأمة الإسلام لكانت الأكثرية منهم تتبع الشيطان في هذه الأمور التي تفسد المجتمع بل قد تثير براكين الحقد، فتطيح بأقوى المجتمعات وأعظمها ترابط فنحمد الله عز وجل ونشكره إذ حذرنا خطورة هذا الأمر وذلك

السلوك. ثم تذكر هذه الآيات تكريم رب العالمين لرسول اله محمد ﷺ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحجُرات: ٧ – ٨].

يحذرنا رب العالمين من الكذب حتى لا يفضحنا الوحي المرسل ممن يعلم السر وأخفى عز وجل عن طريق رسول الله محمد ﷺ. فلو أطاع رسول الله محمد ﷺ هذا الكاذب وسارع في الانتقام من هذه القبيلة المظلومة المسلمة لحصل في حقهم الخطأ والعنت والإثم في ظلمهم وعقوبتهم وهم أبرياء.

وينتقل حديث هذه الآية من الوعظ والتحذير إلى مقارنة بين سلوك من زين لهم رب العالمين الأيمان فأحبوا الله ورسوله والمؤمنين وكرهوا الكذب وما نبت منه كالكفر والفسوق والعصيان "الفسوق" الخروج عن طاعة الله "الكفر" تغطية الحقيقة بتوجيه الشكر لغير المنعم.

ثم تنقلنا الآيات الكريمة من الخطاب إلى الخير فيذكر سبحانه وتعالى فضله ونعمته على هؤلاء الذين هداهم للسير في الطريق الصحيح فهم الراشدون.

٢١ - سبأ وكفران النعمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ١٥ - ٢١].

لم تكن مكة المكرمة في العهد الجاهلي هي مجمع الحجيج من أقطار جزيرة العرب فحسب؛ بل كانت أيضا أهم مركز تجاري في تلك الجزيرة، تأتيها الخيرات، وترزق النعم، وتهفو إليها قلوب الخلق، وذلك استجابة لدعاء سيدنا إبراهيم الخليل -عليه السلام- فكانت تنافس حواضر الشام واليمن في رغد العيش، وبحبوحة الحياة، والخير العميم، و المال الوفير؛ تجارتهم آمنة؛ تسير عبر طرق ومفاوز الجزيرة بكل نشاط و قوة وتقدير؛ فمن له أن يعتدي على سدنة بيت الله الحرام؟ فيعرض نفسه لغضب الآلهة الممثلة بالأصنام المحيطة بالكعبة المشرفة، المكرمة عند العرب.

فيذكرهم رب العالمين في كتابه العزيز بهذه النعم التي تخيم في أرض الحرم الشريف؛ فيطلب منهم - سبحانه و تعالى- التقوى والشكر؛ و يضرب لهم الأمثال،

لعلهم يتقون، فيدخلون في دين الإسلام الذي أسفر صبحه، وبزغ نوره في أرض الحرم الشريف.

فيضرب مثلا للشاكرين الموحدين بآل داود؛ حيث أسبغ عليهم نعمه، وآتاهم ملكا عظيما، لا ينبغي لأحد بعدهم.

حيث قال سبحانه و تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ: ١٠ - ١١].

ثم يذكر - سبحانه و تعالى- نعمه و فضله على نبي الله سليمان -عليه السلام- حيث يقول: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٢ - ١٣].

ففي هذه الآيات الكريمة تبيان وتفصيل لنعم أغدقها الله على آل داود؛ وذلك لشكرهم وتقواهم وتمسكهم بشرع الله ونشره وتطبيقه عمليا في الحياة، وحكمهم بما أنزل الله.

وفي المقابل تذكر هذه الآيات الكريمة -كعظة لمن يتعظ و تحذير من غضب الله- قصة سبأ و بطرهم و عنادهم و كفرهم النعم، و تخليهم عن الشكر، وسيرهم طريق الضلال. حيث قال - سبحانه و تعالى-: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ ينقلنا هذا النص إلى مدينة في اليمن السعيد؛ يرويها سد مأرب المشهور في التاريخ، والعهد الجاهلي؛ حيث بنى أهل تلك المدينة اليمنية ذلك

السد بين جبلين – وآثاره باقية إلى اليوم - يجمع مياه الأمطار التي تهطل –بفضل الله– على تلك البلاد وذلك في موسمين من العام في الصيف و الشتاء. فكان من ذكاء وفطنة أهل تلك الديار وهدي الله لهم، وقوتهم وثرائهم أن أقاموا ذلك السد العظيم، وحافظوا عليه، وزرعوا جانبي ذلك الوادي الذي وصفه رب العزة بالجنة، وأنه آية من الجمال والخصب؛ تلك الروضة المخضرة على يمين ذلك الوادي وعلى شماله؛ حيث أنها تسقى من ماء ذلك السد. ولخيرها العميم، اعتبرت آية من آيات الله. تدل على كمال قدرته، وبديع صنعه؛ وزادها رونقا و جمالا، خلوها من الهوام والحشرات المؤذية.

وقد أفاضت الآيات هذه في وصفها؛ حيث طلب رب العالمين من سبأ هذه الشكر على هذه النعمة العظيمة؛ وقد جمع لهم خير الدنيا والآخرة و ذلك بقوله – سبحانه وتعالى–: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ: ١٥].

ونستدل من هذه الآية الكريمة أنهم كانوا مؤمنين موحدين؛ فأعزهم الله وكسا بلدهم تلك بحلة طيبة من الخير والجمال؛ بحسن أشجارها الوارفة، وزروعها اليانعة، وثمارها الزاكية. ورغد العيش فيها، وراحة البال، و سكن النفس. كل هذا الخير من فضل الله و هديه وتطبيق شرعه.

لكنهم بطروا وأعرضوا، و أزلهم الشيطان بمكره المعروف، وغوايته المعهودة؛ فانقلبت حالهم. قال سبحانه و تعالى في أمرهم هذا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فكان جزاؤهم الفقر بعد الغنى، والحاجة بعد الكفاية، والتفرقة بعد الاجتماع، والذل بعد العزة؛ حيث أرسل عليهم رب العزة المذل المنتقم الجبار سيلا قويا هدم سدهم هذا؛ ففاض ماؤه؛ فدمر أشجارهم و مزارعهم بل و بيوتهم وحضارتهم

تلك المشهورة عبر التاريخ.

وتحولت تلك الجنة الخضـراء، الملتفـة الأشـجار الوارفـة الظـلال إلى صـحراء بلقع: نباتها مُرّ الطعم، كثير الشوك، قليل الفائدة. قد أفاضت هذه الآيـات الكريمـة في وصف تبدل حال تانك الجنتين. قال سبحانه و تعـالى: ﴿ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَىۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴾.

و«الخمط» كل نبات مر له شوك، وهو قليل الفائدة.

وقد بينت هذه الآيات الكريمة سـبب تحـول تلـك النعمـة عـنهم، واسـتبدالها بالشقاء والتعب والفقر، حيث قال سبحانه وتعـالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾.

فكـان هـذا جـزاء كفـرهم و«البـاء» هنـا سـببية: أي بسـبب كفـرهم، وعـدم شكرهم، وزيادة بطرهم. وقد بينت هذه الآيات الكريمة: الخط العريض في الجـزاء؛ فلا يكون هذا الجزاء السيئ إلا للكفور.

والكفور: هو شديد الكفر المستمر في عصيانه، المتمسك بكفره، المحروم التوبة، المقفل القلب أمـام نـور الإيمـان؛ فهـو يجـازى بمثـل عملـه. لم تخـط هـذه العظـات والقصص في كتاب الله الكريم للتسلية واللهو و التاريخ؛ بل هـي للتفكـر والتـدبر والعبر.

وما ذكرت الأمم السابقة، وما أصابها من بلاء وتـدمير وعنـت وكـرب، ومـا حصل لها عنـدما بطـرت معيشـتها، وأدارت ظهرهـا لأوامـر الله، وسـارت طريـق الضلال كما زين لها الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، فوقعـت في سـيء أعمالهـا، وعظيم ضلالها و فسوقها وفجورها؛ فكان الجزاء العادل: إما التدمير الكامل لتلـك القرى وأهلها، وإما الشتات وتغيير الحال، وذلك من العزة إلى الذل، ومن الوحـدة

إلى التفرقة: فيا من أعطيتم الخير الجزيل، والمال الوفير، والصحة في الأبدان، والراحة في الأجسام؛ تذكروا وجوب الشكر على هذه النعم، وتلك الخيرات، وتذكروا أسباب زوالها، و انقلاب الحال على الأفراد والجماعات والأمم والدول.

فأين تطبيق ركن الزكاة يا أمة الإسلام؟ و أين من يجمعه، ويفرقه على أصحاب الأصناف الثمانية؟ وهل نسخ هذا الركن من كتاب الله؟ وهو تشريع أمر الله به، وطبقه المسلمون عبر التاريخ كركن من أركان الإسلام، وحارب خليفة رسول الله من منعه من العرب، بعد موت رسول الله (ﷺ)، حتى لانت رقابهم، ودفعوا الزكاة، وهم راضون.

كيف بكم و أنتم واقفون بين يدي الملك الجبار يوم القيامة؟ وهو سائلكم عن حق الفقراء في أموالكم؟ كيف بكم وهو سائلكم عن أكلكم الربا؟ وهل نسخت تلك الآيات المتعلقة به؟ ومن نسخها؟ وهل من كتاب أنزل بعد القرآن الكريم؟ وهل من رسول بعث بعد محمد (ﷺ)؟

كيف بكم وأنتم تسألون عن تلك القصور وما حوت و الجنائن والمتاجر بل والسيارات و الطائرات. وكيف جمع ذلك المال؟ وكيف صرف؟

كيف بكم وأنتم تسألون عن ثروة الأمة، ومالها و خيراتها بل وحماية أرضها؟؟ وعن الجهاد في سبيل الله، والإعداد له، ونشر دين الله في الأرض، وحماية بيضة الإسلام، وثغور بلاد المسلمين، وتطبيق حدود الله، وشرعه.

وعن أعمالكم الحقير منها والعظيم، قال سبحانه وتعالى مبينا دقة العدل يوم القيامة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

أين الشكر الذي أمر الله به؟ واعتادت أمة الإسلام عليه، منذ أن استخلفهم الله في الأرض؟ أين طاعة الله و العمل بما أمر؟؟ بل و أين هو المال الحلال؛ ذلك

الذي جمع بالوسائل الشرعية التي أمر الله بها؟؟؟

وجاءت الآيات ببعض الأمثلة على بليغ كفرهم وعصيانهم و فسوقهم ومقابلتهم الراحة بالتعب، والنعيم بالجحيم، والخير بالشر. حيث وصف سبحانه وتعالى، الطريق التجاري بينهم وبين بلاد الشام المباركة، أماكن راحة لهم، وطريق أمن، وقرى متواصلة، يحملون تجارتهم وما وصل إليهم من بلاد الهند شرقا وأفريقيا جنوبا؟ لنقله وبيعه في أسواق بلاد الشام، ومنها للغرب و الشمال. قال سبحانه و تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ [سبأ: ١٨].

قال سبحانه و تعالى مبينا مقدار بطرهم، و عظيم جهلهم، حيث طلبوا من الله: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ...﴾ [سبأ: ١٩].

و لكثرة معاصيهم، و شدة فسقهم، عاقبهم الله بالتفرقة، حيث قال سبحانه و تعالى في عقابهم: ﴿...فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ: ١٩].

فهذا الجزاء من نوع ذلك الطلب حتى قيل فيهم مثلا مشهورا: «تفرقوا أيدي سبأ» فسكن بعضهم شرق الجزيرة وآخرون بلاد الشام.

فقد تمنوا التعب على الراحة، والشقاء على السعادة فتغيرت حالهم بعد الأمن والاطمئنان و الراحة؛ ساروا في طريق المفاوز والبراري والصحاري، وحملوا الزاد والماء؛وذلك جزاء بطرهم وطغيانهم.

تضرب هذه المواعظ و الآيات البينات لمن ينتفع بها من البشر؛ فيشكر الله على نعمه و رحمته و فضله، و يثبت على دينه، ويسير على حكم الله فيه قال

سبحانه و تعالى: ﴿...إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[سبأ: ١٩].

قال سبحانه و تعالى مبينا سرعة استجابتهم للشيطان و إتباعهم له – رغم ضعف كيده– و ذلك لفسقهم و ضعف إيمانهم، اتبعوه:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[سبأ: ٢٠].

وظن إبليس هو: غوايتهم و غواية أبناء آدم عامة، ولكنهم اتبعوه بكل يسر وسرعة، فصدق ظنه فيهم، وبدون تعب منه ولا مشقة فهم جاهزون للغواية والفساد، والخروج عن الخط المستقيم؛ فبأدنى وسوسة وتزيين منه لهم اتبعوه، فهلكوا، وتفرق شملهم، وتعست حياتهم، وسبل عيشهم؛ وما كان له عليهم من سلطة ولا قهر، وما كان هذا الابتلاء إلا بالوسوسة والتزيين فقط، فما حمل لهم سوطا، ولا سلاحا لإجبارهم على طاعة أمره.

وما سلم من سبأ إلا بعض من هدى الله، فثبتوا على دينهم، وتمسكوا بالعروة الوثقى، رغم أنف الشيطان، ومن خالفهم من حزبه.

وقد نفى – سبحانه وتعالى– قوة إبليس و سلطانه على المؤمنين. فقد بقيت فئة من أهل سبأ متمسكة بدينها وتقواها؛ رغم أنف إبليس اللعين وكيده، ورغم تزيينه و إغوائه. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ...﴾[سبأ: ٢١] أي من حجة يضلهم بها.

وقد بين سبحانه و تعالى، الحكمة من إغوائهم، وذلك ليبتليهم فيعلم الطائع من العاصي؛ وليكون حجة على ذلك العاصي. قال سبحانه وتعالى: ﴿...إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[سبأ: ٢١].

فهو يعلم كل حركة وسكنة فلا يغيب عنه علم شيء وسيجازيهم يوم القيامة بما كسبوا. وقد كشف لنا رب العالمين عن موقف إبليس يوم القيامة؛ وما سيقوله

وأتباعه، فمن زين لهم وغواهم. يوم حساب ولا عمل، يوم عذاب ولا توبة: حيث يجتمع أهل النار بها، ويبدأ العتاب و المجادلة لما أوصلهم لما هم فيه من العذاب، كل يريد أن يثبت الجرم على الآخر المتبع على المتبع والحاكم على المحكوم، والعامة على الخاصة. فيقف إبليس اللعين على منبر من النار، ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فما أنا اليوم بقادر على نجدتكم، مهما استنجدتم بي، ولا أنتم بقادرين على نجدتي، فكلانا في جهنم يتلوى و يتعذب.

فكانت طاعتكم لي وترككم أمر الله هي غواية مني وسوء إدراك منكم. وقد كفرت بإشراككم إياي مع الله – سبحانه و تعالى – في الطاعة، و العبادة. كما يصف نفسه وأنفسهم بالظلم. والظالم له عذاب أليم.هذه الآيات تتحدث عن شرائح من خلق الله لا يخلو منها زمان، منذ آدم - عليه السلام - إلى أن تقوم الساعة؛ فهي تتحدث عمن يصابون بمرض البطر والرعونة والاستهتار بأمر الله؛ ومن يفتنون بكثرة الخير والرزق والمال و الحكم والسلطان، فما يقابلون ذلك بالشكر والعرفان، بل بالكفر و النكران، حتى يحق عليهم العذاب والدمار.

وكثير هم في تاريخ البشرية منذ آدم – عليه السلام – إلا أن تقوم الساعة. فهذا القصص ما هو إلا رحمة وتحذير و عظة من الله لأمة محمد (ﷺ)؛ حاملة و حارسة وناشرة دعوة التوحيد، و كتاب الله في هذه الأرض.

فكم من أمة في هذه الأرض بطرت معيشتها؛ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف والذل والصغار. هذه الآيات الكريمة والعظات القيمة هي تحذير لأهل مكة والعرب خاصة – في ذلك الوقت – و للمسلمين عامة في كل وقت حتى تقوم الساعة.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾

[الرعد: ١١].

فإتباع الشيطان يغير النعمة، وموالاة الكفار والمنافقين ومهادنتهم والتزلف لهم أيضا تغير بل وتجلب النقمة، وتذل العزيز، وتشتت الشمل، وتوجب العذاب والهلاك، وتحول النعمة إلى نقمة والخير إلى شر ورغد العيش إلى الفاقة و الحاجة. ولنا في سبأ العظة والتذكير لمن صدق وآمن وعمل عملا صالحا واتقى.

قال رسول الله (ﷺ): «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج، ثم تلا (ﷺ): ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ .. ﴾ [الأنعام: ٤٤]» رواه أحمد و الطبراني.

قال رسول الله محمد (ﷺ): «سيصيب أمتي داء الأمم: الأشر والبطر والتكاثر والتشاحن في الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكون البغي» رواه الحاكم.

٢٢- أصحاب الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١ - ٥].

لم تتجاسر دولة الروم - وفي أوج اتساعها، وقمة عظمتها وريعان سطوتها — بجيوشها الجرارة وأساطيلها التي كانت تمخر عباب بحار العالم المعروف في ذلك الوقت، أقول إنها لم تغامر؛ فتغوص في رمال جزيرة العرب، وأوديتها الوعرة، وهضابها العالية، وحرها الملتهب.

بل أرسلت لابن دينها وحليفها، ملك الحبشة ليقطع البحر الأحمر؛ وينتقم ممن قام بحرق نصارى نجران؛ وذلك لثباتهم على دينهم — «أصحاب الأخدود الذين مدح صبرهم القرآن الكريم» — وبقي الجيش الحبشي بقيادة أبرهة الأشرم: يصول ويجول، ويذل ويستعبد عرب اليمن وبلاد عسير بلا منازع ولا مقاوم.

لم يكتف هذا الوالي بما حققه من انتصارات و ما ملكه من بلاد؛ بل وقع في الخطأ الذي وقع فيه سلفه «يوسف ذو نواس اليهودي وصاحب الأخدود» فأراد هذا الحبشي أن يجبر العرب على ترك تقديس البيت الحرام، مهوى قلوبهم ومجمع وفودهم، ومكان نسكهم المتوارث منذ نبي الله إسماعيل وأبيه إبراهيم الخليل عليهما السلام.

فقام هذا القائد الحبشي ببناء كنيسة مهيبة؛ وأراد تحويل العرب عن بيت الله الحرام، وما فيه من آثار إبراهيم وابنه إسماعيل — عليهما السلام — ولكنه قوبل بالإعراض والاستنكار والنفور من تلك الفكرة وما تبعها من تزيين وترغيب بل وإجبار؛ فالدين لا يفرض بالقوة والتهديد والوعيد على البشر؛ بل يكون بالإقناع

والمودة والبرهان الساطع والقوي؛ فيستنير القلب، وتسكن النفس؛ فتحتضنه الأمم، وتضحي من أجله الشعوب.

ويقوم بعض العرب؛ بإهانة هذه الكنيسة بتلطيخها بالدنس؛ فتثور ثـائرة هـذا القائد الجبار المتعصب، فيقسـم أن يـدمر الكعبـة المشـرفة، قبلـة العـرب، ومهـوى قلوبهم، وبؤرة التقديس عندهم.

ثم يسوق عشرات الآلاف من الجند تصـحبهم الفيلـة ويتقـدمهم فيـل عظـيم مشهور، وجيوش من العمـال تسـوي لهـا طريقـا عـبر حـرات الحجـاز وفجاجهـا وأوديتها؛ آثارها باقية إلى اليوم بـين الطـائف و نجـران، حتـى يصـل ذلـك الجـيش العظيم مشارف الحرم في أرض تهامة من الحجـاز، رغـم مقاومـة بعـض الأعـراب لذلك الجيش أثناء سيره.

لم يكن للعرب دولة تجمعهم ولا رابطة قوية توحدهم، ولا جيش منظم يطيـع أمر قائد واحد لهم. فطريق هذا البيت المقدس مفتوح أمام الأعداء على مصـراعيه؛ إلا من قريش سدنة هذا البيت المقدس؛ ولكن أنـا لهـا الوقـوف أمـام هـذا الجـيش اللجب، والفيلة العظيمة الـتي تتقدمه،وهيبـة دولـة الأحبـاش ومـن يسـاندهم مـن الروم.

فخرج أهل مكة تاركين بيت الله لله يحميه وكما خاطب كبيرهم عبـد المطلـب ذلك القائد الحبشي قائلا: أنا رب إبلـي، وللبيـت رب يحميـه، وقـد حمـاه سـبحانه وتعالى، لا بالجيوش الجرارة، ولا بالعدد و العدة، ولا باجتماع أهل الحـرم لنصـرته والدفاع عنه، وتثبيتهم وقهر عدوهم؛ بل حماه ببعض جنده الطـائعين دومـا لأمـره، السائرين حسب وحيه؛ فقد رفـض ذلـك الفيـل العظـيم الطـائع، الـذي اسـتقدم، ليرهب أهل الحرم، وسويت له الطرق، هذا المقدم على ذلك الجيش الكبير.

لقد رفض أمر سائسه، وكانت عادته الطاعة؛ ولكن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ فليتعظ أبناء آدم من موقف هذا الحيوان الأعجم؛ فهو يطيع أمر خالقه ولا يعصيه. والويل كل الويل لمن يعص خالقه؛ فقد أطاع هذا الفيل المعلم المدرب أمر ربه مخالفا أمر سائسه، فرفض التوجه نحو بيت الله الحرام هدفه القادم من أجله؛ بل أعرض و بشدة، و بكل إصرار وإذا أدير اتجاهه نحو الوراء يسير بخطى مسرعة قوية متحدي الضرب والتنفير، والأصوات العالية، والأسواط المؤلمة. قد يكون هذا الحيوان الأعجم شاهد من قدرة الله ما لم يشاهده ذلك القائد، وهذا الجيش.

يطيع أمرا خفّيا لمدبر هذا الكون، خالق الحيوان والنبات والجماد والإنسان. ذلك الذي أمر الجذر أن يتجه نحو الأسفل والساق نحو الأعلى في النبات. ذلك الذي جمع بين الذكر والأنثى عند الحيوان والإنسان؛ ليخلق خلية يتناسل منها الأحياء، وتأتي الذراري.

ذلك الذي خلق الشحنات السالبة والموجبة في الذرات لتهدأ ثائرتها و تسكن، ويسكن بسكونها الكون.و يقف ذلك القائد ومستشاريه وجيشه في حيرة من أمرهم، لم توقفهم سيوف قريش، ولا رماح الأعراب من حول الحرم، بل أمام عناد وحران هذا الحيوان المدلل الذي جُلب لترهيب أهل الحرم، فيرفض التوجه نحو أرض الحرم.

وما هي إلا لحظات حتى استجاب رب العزة لدعاء سدنة هذا البيت الشريف، ودافع عنه، وحماه؛ فقد ظهرت من جهة البحر غيمة؛ ولكنها ليست كباقي الغيوم. إنها تسير مسرعة، فتنقض على ذلك الجيش انقضاض نسر على فريسته؛ بحجارة من سجيل – كتلك التي أمطرت على قوم لوط- فجعلت ذلك الجيش، طريح الأرض كعروق القش وقد داسته الحيوانات في يوم سموم، فأصبح تبنا تذروه الرياح. دقائق معدودة، وقد انتهى الأمر، كأمر جيش فرعون، وقد أطبق

عليه البحر، وكأهل سدوم، وقد أمطروا مطر السوء، وكعـاد وثمـود وأهـل مـدين وأمثالهم عبر التاريخ.

هذا هو انتقام الرب، يا جبابرة الأرض، أيها المتكبرون المتعجرفـون الظـالمون؛ بهذا دفع العدو عن بيت الله الحرام، يوم لم يكن للمؤمنين دولـة تحمـي المقدسـات، ولا أمة قوية مسلمة تدفع عنه الجيوش المعتديـة، ولا كيـد الكائـدين، يـوم لم يكـن للعرب كتاب مقدس يـنير لهـم طريـق الصـلاح، ويجمعهـم، ويوحـد كلمـتهم؛ لا كشعب عربي فحسب، بل كأمة مسلمة تجمع المؤمنين من أبناء آدم -عليه السلام- في دولة واحدة، ويتوجهون في صلاتهم لقبلة واحدة، و تصهرهم في بوتقة واحدة، تجمعهـم رابطة الإسلام المتينة، وينير كتاب الله لهم السبيل؛ فيسلكوه، وبكـل شـجاعة وقـوة وتفاؤل.

إنها أمة الإسلام التي حمت المقدسات عبر العصور بل وزرعت مآذن المسـاجد في أصقاع المعمورة عامة. ووقفت أمام حصون جبابرة الأرض من الكفـار تـدفعهم عن أرض الإسلام؛ بل وتحطم تلك الحصون المانعـة مـن وصـول شـعاع الإسـلام لتلك الشعوب، فآمنت، وتمسكت مع باقي شعوب الإسلام بالعروة الوثقى. وكـان النصر حليف أمة الإسلام برجال صدقوا مـا عاهـدوا الله عليـه، رايـاتهم مرفوعـة بسواعد فولاذية مشهورة؛ فحفظوا المقدسات، وحرروا مسجد الله من دنس الكفار المعتدين، وحفظوا للدولة الإسلامية ثغورها: خلفاء وعلماء وقـادة مؤمنـون، وأمـة متمسكة بعروة الإسلام القوية، و بحبله المتين: الضعيف قوي فيهم حتى يؤخذ الحق له، والقوي ضعيف حتى يؤخذ الحق منـه. مـا كانـت هـذه الطيـور المحملـة بتلـك الحصباء تحمل جراثيم الحصبة -كما يتخيل البعض في هذه الأيام- ولو كـان ذلـك لأصاب أهل الحرم والحجاز عامة، بل و طريق اليمن التي سـلكتها تلـك الجيـوش، ولما اختص ذلك الوباء ذلك الجيش المعتدي فقـط؛ فـدمرهم جميعـا، كمـا تـواترت الأخبار، وتناقلت الرواة والمتحدثون والمؤرخون. ولكنها الخوارق وقدرة الله، الذي

يقول للشيء كن فيكون؛ فسخر جندا من الحيوان، لدفع و هلاك الأعداء عن بيته العتيق؛ يوم العجز عن الدفع من سكانه ومن الموحدين في الأرض. قال سبحانه وتعالى مخاطبا رسوله الكريم، ومنبها قريشا إلى فضله عليهم، إذ حماهم من جيش أبرهة الأشرم المعتدي؛ كما حمى بيته محج العرب ودرة تاجهم، ومهوى قلوبهم، وسكن نفوسهم.

كما بين للأجيال القادمة فعله بأعداء الدين، ومن يعتدي على حرمات المساجد؛ فيقول سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ الرؤيا أبلغ وأصدق من السمع والأخبار، فقصة أصحاب الفيل كانت قريبة العهد من مبعث الرسول (ﷺ)؛ حتى أن مولده (ﷺ)، كان في ذلك العام. وحادثة أصحاب الفيل هذه ثابتة يقول رسول الله محمد (ﷺ) يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء دون مكة وأرض الحرم.

فقالوا: أخلأت القصواء – أي حزنت– فقال رسول الله (ﷺ): «ما خلأت القصواء وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل...» أخرجه البخاري.

وفي الصحيحين أن رسول الله (ﷺ) قال يوم فتح مكة: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ألا فليبلغ الشاهد الغائب» رواه مسلم.

وقد أسند سبحانه وتعالى فعل إهلاك المعتدين لنفسه سبحانه وتعالى وذلك لتعظيم هذا البيت، وتبيان مقدار قوته وانتقامه من المتجبرين في هذه الأرض.

وقد رفع ذكر هذا الفيل لرفضه دخول أرض الحرم، وعناده ورجوعه؛ وذلك بفضل الله، حتى يوقف هذا الحيوان الغريب عن جزيرة العرب هجوم ذلك الجيش المعتدي حتى وصلت طير الأبابيل؛ فأهلكت ذلك الجيش بأمر ربها.

كما أن كلمة ﴿رَبُّكَ﴾ فيها الاستئناس لرسول الله (ﷺ) وأن ربك يا محمد هو نفسه الذي رد كيد ذلك الجيش ودمره تدميرا تاما، وقريش تنظر وتشهد هذا التدمير والهلاك، وما لأصنام قريش فضل في حماية بيت الله الحرام. وما تدمير قريش إن بقيت على عنادها وكفرها بعزيز على الله القادر. وفي هذا عظة و تنبيه لقريش ليشكروا الله الذي حمى قبلتهم، ويدينوا بدين الإسلام، دين باني هذا البيت المقدس الشريف، الدين الحنيف، الموحى به من قبل حامي بيتهم العتيق.

قال سبحانه و تعالى في وصف تشتيت قوة الأعداء وتدميرهم: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي أفشل كيدهم ودمر جيشهم، وحمى بيته الحرام، ورفع ذكره وقدسيته، فزاد احترامه، وتقديسه عند العرب، كما زاد احترام العرب لسدنته.فكان يجب على قريش شكر الله والدخول في دين الإسلام الذي أعز العرب عامة وقريشا خاصة. كما وقد نسب لنفسه رد هذا الكيد وإبطاله وتفريقه لقوة الأعداء؛ فقد ضل كيدهم، وطاش سهمهم ولم يصب الهدف.

قال سبحانه و تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ اجتمعت عليهم تلك الطيور – بأمر من ربها- تحصبهم بحجارة من سجيل: حجارة فيها قدرة القتل واختراق الجسم رغم صغرها «قيل إن حجمها كحبة الحمص الصغيرة».

ونذكر هنا ملاحظة على من يقول أن الذي تفشى في ذلك الجيش هو مرض الحصبة: أن الله قد ذكر أنها حجارة و ليست جراثيم والله خير شاهد و معين.

قال سبحانه وتعالى يصف نتيجة هذه المعركة وذلك التدمير: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ فتفتت أوصالهم كالتبن الذي أكلته الدواب، ثم راثته، ثم داسته بأرجلها فغدا قطعا خفيفة تذروها الرياح وحرف الفاء في كلمة ﴿ فَجَعَلَهُمْ ﴾ تفيد السرعة في تحويلهم إلى ما يشبه الروث المفتت، وهذا يعارض من قال أنه أرسل

إليهم جرثومة مرض، ولكن هذه الجراثيم تأخذ مدة حتى تفتك بالجيش و الآية الكريمة تذكر سرعة الفتك و التحويل بما يشبه التبن تذروه الرياح.

هذه الحصباء الصغيرة الفتاكة، والتي تحملها تلك الطيور، تشبه الحجارة التي أمطرت بها قرى قوم لوط مسومة عند ربك للمسرفين، فهي من الخوارق، توافق هجومها مع حرن ذلك الفيل عن التوجه للبيت الحرام، ووصول الجيش حدود أرض الحرم، بعد تلك المسيرة الطويلة لذلك الجيش، وهروب أهل مكة منها للجبال. فالأمر يدخل على أمر خارق لطبيعة الأشياء، ولا مجال للتأويل أو التقريب؛ فالمرض الجرثومي لا يخترق لحم البشر وينخر عظمه في ساعته؛ ليجعله رميما تذروه الرياح، ولا من طبيعته الفتك ببعض البشر كجيش أبرهة الأشرم هذا، و يترك متجانبا أهل الحجاز، وسكان تلك الديار.

وكأن هذه الخارقة هي من أرهاصات النبوة، خاصة وقد حدثت في ذلك العام الذي ولد فيه رسول الله. هذا هو جزاء الظالمين المتكبرين المتجبرين في أرض الله. وهذا هو رد الله على من تحداه وأراد هدم أول بيت للعبادة في هذه الأرض. اللهم احم المسجد الأقصى من كيد الكائدين، يا من أنزلت وربطت في كتابك العزيز بين البيت الحرام والمسجد الأقصى.

حيث قلت: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١].

اللهم أنقذ الأرض المباركة من الأسر يا رب العالمين واهدي أمة محمد ﷺ للحكم بما أنزلت، وردهم لدينهم ردا جميلا. اللهم أرفع علم الجهاد، واهد أمة الإسلام للجهاد في سبيلك، يا الله، أنقذ الأرض المباركة من يد الأعداء!.

اللهم ساعد وأيد أمة الإسلام لحماية والمحافظة على بيوت الله من كيد الكفار المعتدين ومن شايعهم وسار على دربهم من المنافقين والخونة المرتدين الظالمين. انه

الله القادر، الذي أمر تلك الطيور وحملـها الحصـباء المسـومة، فانتصـر علـى ذلـك الجيش العظيم، ورد كيـده لا بقعقعـة السـلاح، ولا بقـوة الحديـد، كـلا ولا بقلـل المنجنيقات، بل هي طيور وليسـت أسـود تحمـل حصـباء صـغيرة لا صـخوراً ولا جبالا، تلقي بها علـى جـيش مـدجج بالسـلاح، يلـبس الـدروع، ويـتعمم الحديـد فتخترق ذلك كله، فتفتت العظام حتى تصل الأفئدة، فتطرح الجندي القـوي أرضـا بلا حراك.هذا هو التحدي يا كفار قريش وليس بتعذيب ضعفاء المسلمين في هجير مكة الحار، وتعذيبهم، وما جريمتهم إلا أنهم مسلمون موحدون.

فتذكروا سندهم وسند نبيهم، ومقدرته وصولته، إن أراد الانتقام، فهو الفعـال لما يريد المطلع على كيدهم وكيد الشـيطان سـندكم ولـيكم. وتـذكروا أن الله هـو الخالق المميت.

ما كانت هذه الآيات والعظات خاصة بوقت أو زمن ثم تنقضي بل هي ذكـرا للذاكرين، لمن ألقى السمع وهو شهيد إن حماية بيوت الله والمسجد الأقصى اليـوم، هي من أعظم واجبات أمـة الإسـلام؛ سـواء مـن كـان مـنهم صـاحب أمـر وقـوة ومقدرة، أو كان من حملة السـلاح وقيـادة الجيـوش، أو كـان مـن عامـة الشـعب؛ فحمايتها وحماية أرض الإسلام في أي مكان هي فـرض عـين علـى كـل مسـلم في الأرض؛ والتضحية واجبة مادام هناك شبر من أرض الإسلام لم ترجعه الأمـة مـن أيدي الأعداء.

وقيل: (كل منكم على ثغرة من ثغر الإسلام فـلا يـؤتينّ مـن قبلـه). وكيـف والأسير هو ثالث الحرمين وأولى القبلتين هو المهـدد، والأرض المباركـة مـن حولـه أسيرة مثله، فأين أمة الإسلام، حاملة راية الجهاد عبر العصور؟ والجهاد هـو سـنام الإسلام. كيف بها تقف صاغرة مستسلمة؟ والأقصى في خطر: وأي خطر؟؟؟

وأي خيانة أعظم من ترك الجهـاد؟ وأي خيانـة أشـد مـن التفـريط بـالأرض المباركة؛ التي ائتمننا الله عليها؟ وما ذا سيكون جواب أمة الإسلام يوم الحساب عن

ضياع هذا المسجد وغيره من بيوت الإسلام التي أبيحت حرمتها؟ هل سنقول: كنا في قلة ونحن اليوم سبع سكان المعمورة، أو نقول كنا في فقر ومصارف العالم مترعة بأموالنا، أو نقول أننا لا نعلم بما حدث والأخبار تنقل لنا بالصوت والصورة وبسرعة وسهولة، والأسرى منا تملأ سجون الأعداء، وضعفنا الظاهر للبعيد والقريب، ونفير أعدائنا أقوى وأشد؟؟

وحكم الجهاد في كتاب الله – الخالي من التغيير والتبديل والتحريف- ظاهرة بينه؛ فلا عذر لمعتذر. ومن حيث السياق فقد سبقت هذه السورة بالتهديد والوعيد بالاخنس بن شريق الذي كان يتعمد الإساءة لجماعة المسلمين في مكة، ويهاجم رسول الله محمد ﷺ، ويهزأ بالإسلام ورسوله.ثم تليت هذه السورة بسورة قريش وفضل الله عليهم باجتماع كلمتهم، وعظيم هيبتهم وتنظيم تجارتهم، والأمن المخيم عليهم وعلى تجارتهم، واحترام العرب من مشرق الجزيرة لمغاربها لهم؛ لكونهم سدنة الكعبة المشرفة...توقيرهم حاصل من الجميع.

فيطلب منهم رب العالمين إخلاص العبادة لرب هذا البيت المبارك الذي تنقل إليه الأرزاق، ويكتنفه الأمن؛ وما عليهم إلاّ الشكر، وإخلاص العبادة لله. فسورة الفيل هذه هي تذكير لقريش بنعم الله الذي حفظ لهم هذا البيت من اعتداء المتجبرين. وما كان لأحد من فضل في حمايته من جيش الأحباش إلا الله الواحد الأحد، المعز المذل. فقد استسلمت قريش وتركت البيت لله، فحماه ودافع عنه.

٢٣- قوم لوط -عليه السلام-

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾ [هود: ٧٧ - ٨٣].

((وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ {٧٧} وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ {٧٨} قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ {٧٩} قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ {٨٠} قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ {٨١}فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ {٨٢} مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)) {هود٧٧/ ٨١}.

وكبرت تلك النخلة وحملت قطوفا كثيرة، وأزهرت تلك القطوف، وانتظرنا الثمر. ولكن لا ثمر. ماهذا أيها الخبير؟ فأجاب أنكم لم تلقحوها؛ فقلنا: نعم!! وهل في النبات ذكر وأنثى؟ فأجاب نعم.

وجمعنا آلاف البيوض، ووضعناها في آلة التفقيس، وشغلنا تلك الآلة الدقيقة الصنع، المضمونة الناتج. ولكن البيض فسد، ولم يفقس. فسألنا الخبير. فأجاب: وهل بيضكم هذا الذي جمعتموه قد لقحته الذكور لا. فقال: وفي الحيوان ذكور وإناث ،فأجبناه هكذا خلقت. والانسان وطبيعة التناسل عنده.

وما وضعه الله في جسمه وطبيعته وحواسه ودماغه وغدده من أجهزة تتعلق بهذا النسل، وفي الذكور والاناث منذ تكوين الخلية الاولى الناتجة عن البويضة واللقاح، ومن صنع تلك البويضة وذلك اللقاح، وما رافق هذا الحفل العظيم من تجهيزات وافرازات منها المحسوس الظاهر، ومنها الخفي الدقيق؛ وما رافق ذلك من تغييرات في الجسم والأعضاء والغدد. ثم تهيئة مكان اللقاح ، ومساعدة تلك الخلية الأولى على العيش والحركة والأنقسام الى ملايين الخلايا، ثم صدور الأمر الالهي أن يتكون منها ذكر أو أنثى، وحفظ هذا الجنين وتغذيته وتهيئته ذلك الجسم المسبقة لأرضاعه واحتضانه والحنو عليه والشفقة والرحمة به، وينمو ويكبر، يرعاه ذلك الاصل ويخدمه ويحرصه، كما يحرص على أعضاء جسمه ، ويفتديه بالغالي والرخيص، ويتأثر بفراقه ويحزن لفراقه أو مرضه، أنها تلك الأم الني خلقت لهذا وما يحويه جسمها من عواطف وانفعالات وحب وحرص وخوف. هل خلق الله كل هذا سدى ولهوا وعبثا؟

وذلك الذكر الأب، وما وضع في جسمه من أجهزة وأعضاء وغدد تتعلق يهذا الطفل وأستمرار حياته ووجوده، والسهر على راحته، وجلب النفع له، ودفع الضرر عنه، وحبه ورحمته وتميزه عن غيره في كل أمر. هل خلق الله كل هذا عبثاً

ولهواً وسداً؟ فلقتان أثنتان داخل حبة واحدة ، تحتضنان هذا الجنين لاستمرار النسل في هذه الأرض.

وما ذا عن اللواط؟ وأين مكانه بين هذه الملايين من الخلايا التي خلقها الله لتخدم نسل البشر في الذكر والأنثى أليس تعطيلها واهمالها واستبدالها بذلك الشذوذ بالاشباع جريمة بحد ذاتها، وحماية القانون الوضعي لها أعظم وأشد جرماً؟.

ما كان قلب قرى قوم لوط – بأمر الله – الا جزاء وفاقا لقلبهم طبيعة البشر وقانون الحياة، وما قدره الله من محافظة على النسل، واستمرار الحياة على هذه الارض الكريمة. ثم الثأر لتلك الخلايا والاعضاء والغرائز في جسم تلك الانثى التي أهملت وانحرف ذلك الذكر عن الطريق السوي وطبيعة الحياة البشرية فهو في مستنقع الامراض الفتاكة، والعقد المهلكة، طمعا في أشباع غريزة علمه ربه، الرحيم به، كيف تشبع؛ فانحرف.

كما زين له الشيطان في مهلكه في الدنيا والآخرة وذلك في سيره طريق الهوى والنفس الأمارة بالسوء. لم نشاهد ذلك الحيوان الأعجم، والذي نعتبر أنفسنا أرقى منه شذ في علاقته الجنسية وترك أنثاه، ولم نشاهده قد انحرف كهذا الأنسان الراقي الذي أكرمه الله بالعقل المميز والكتب النبوية والرسل، لهدايته، وأمر ملائكته بالسجود له وسخر ما في الأرض له؛ يأكل ويشرب ويلبس ويسكن ويتنفس الهواء، ويستغل الطاقة، وينعم في خيرات لا تحصى. وسن له الزواج، وجعله سَكَناً ورحمة به؛ فكان عليه الطاعة لخالقه، والشكر الدائم؛ ليزداد خيرا لخيره فرضى الله مَطْلَب والسعي له واجب.

ان كانت أمراض الشذوذ الجنسي قد أزعجت البشر، وعجز الطب، وهو في أرقى أيامه وأزهى عصوره، عن معالجة الساقطين في مستنقع تلك الرذيلة؛ فليتذكروا تلك الخلايا في اجسامهم ذكورا واناثا التي عُطلت، بل ودمرت؛ وأمرضت الاجسام التي تسكنها، والعقول التي تدير تلك الاجسام، والعواطف

المؤثرة في السلوك، والارق، واختلاف توازن المجتمع والانتحار والهوس وأمراض الاكتئاب، والجرائم العظيمة. فكان مرض ضعف المناعة في ذلك الجسم الذي شذ صاحبه وشرب عصارة الامراض، بدل الماء الزلال، فكان جزاؤه ما ابتلي به من سقم وفضح واحتقار.

ولينتظر العالم ما حذرنا الله منه في هذه القصص العظات التي تذكرنا بمهلك الأمم السافلة وقلب الأرض ومن عليها، كما قلبت مدائن لوط؛ وذلك لتحديهم أمر الله، واحتقارهم أنبياءهم، وولوغهم في الفواحش، وما زينه الشيطان لهم.

الزنى جريمة؛ وقد وضع لها الشارع سبحانه وتعالى عقوبة هي الجلد، وزنى الثيب أشد وأنكى؛ وذلك محافظة على النسل وصونا لكرامة الانسان وحفظا لثوابت الأسُر منذ آدم – عليه السلام –. ثم رابطة الذكر مع أُنثاه وما يشدها من حب وسكن خدمة لذلك الجنين الغالي الحبيب. وفي الآيات التالية ما ينذر بخطر السير في طريق الشذوذ الجنسي وخطر اعطاء تلك الفاحشة المدمرة للفرد والاسرة والمجتمع الصفة الشرعية في دساتير وأنظمة دول تسكن هذه الارض التي أكرمنا الله بسكناها، وسخر ما فيها لنا نعمة وفضلاً منه سبحانه وتعالى. وحكم الشرع الإسلامي في فاحشة اللواط هو الرمي من مكان مرتفع ثم الرجم حتى الموت وهذا ما طبقه المسلمون عبر العصور على من أقدم على أرتكاب هذه الفاحشة الخطيرة.

الشيطان عدو الانسان تسانده النفس الامارة بالسوء والهوى الجامح؛ فانحراف الفطرة والشذوذ الجنسي والمغالاة في ارتكاب الفواحش؛ كانت هي سبب هلاك قوم لوط، وتدمير قراهم ، وجعلهم المثل السيء عبر التاريخ.

فهم أول من ارتكب جريمة اللواط لم يسبقهم إلى هذا الشذوذ أحد من العالمين. قال سبحانه وتعالى على لسان نبيه لوط: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

وقد قابلوا نبيهم لوط عليه السلام بالعناد والإسراف في تلك الفاحشة ثم طلبوا منه الرحيل عن بلدهم مادام يريد الطُهر، ولا يجاريهم بما هم فيه من الشذوذ وما دام مُصرّاً عن نهيهم على تلك الفاحشة المحببة لهم التي أصبحت سجية من سجاياهم، وعادة من عاداتهم ومفخرة من مفاخرهم، قال سبحانه وتعالى يخبر عن قولهم هذا: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

فهذا هو قلب الحقائق والقيم؛ فالطاهر يؤدي به الطهره الى الطرد، والرحيل من مجتمع الحرية الشخصية المطلقة ومجتمع تحكيم الهوى، والنفس الأمارة بالسوء. ومن عنادهم واسرافهم في الفاحشة والكفر، قولهم لنبيهم لوط عليه السلام: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

هذا التحدي لله – الفعال لما يريد- أوصلهم الى التدمير الشامل؛ وهذا هو جزاء المتكبيرين المتعاندين، فحق عليهم العذاب في حياتهم الدنيا ولعذاب الاخرة أشد وأنكى.

لقد وصل بهم الاسراف في تلك الفاحشة والشذوذ، وانحراف الفطرة حدا جعلهم أحط من الحيوان منزلة: فذكر الحيوان مع أنثى لم يقدم على هذا العمل الشاذ كما هو ملاحظ – بل سارت تلك الحيوانات العجماء على الفطرة وابتعدت عن تلك الفاحشة.

أما قوم لوط هؤلاء فقد تجاوزوا الحد واتبعوا الشيطان وتزيينه. وفطرة الانسان السليمة ونفسه العالية تنفران من هذه الفاحشة. وقد صدق خليفة المسلمين الوليد بن عبد الملك الاموي حين قال بهذه المناسبة "لولا أن الله عز وجل

قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكرا يعلوا ذكرا".

فقد حكّم هذا الخليفة؛ الفطرة السليمة، والنفس الطاهرة. هذه اخلاق المسلمين، وهذه نفوسهم تربؤ عن الفاحشة وتتمسك بالطهر وهذا هو رأيهم العادل الراقي في أرتكاب الفواحش وتمسكهم بالطهارة والعفة التي شحذت نفوسهم، وأصبحت سجية من سجاياهم أنها النفسية الموافقة للفطرة، المتفقة مع العقلية النيرة.

ونسير مع أحداث هذه القصة بل الفاجعة المدمرة كما وردت في كتاب الله الكريم: فقد غادرت الملائكة ضيافة أبراهيم الخليل بعد ان أفهموه مصير قوم لوط وهو يجادلهم في ذلك؛ بحلمه المعروف، فكان جواب الملائكة المكرمين، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴾ [هود: ٧٦].

يطالبه هؤلاء الملائكة الكرام بالتوقف عن المجادلة في أمر قوم لوط، حيث ذكروا له أن الأمر قد صدر وانتهى ولا راد لحكم الله ولا عذابه هذا جزاء من يتحدى الله ورسوله فكيف، وقد قاموا بعمل يغضب الله ويدمر النسل ويغير طبيعة الانسان. ويفاجأ نبي الله لوط – عليه السلام – بهؤلاء الملائكة- بصورة بشر- بهيأة جمال فائق فاتن فيتذكر فسوق قومه وخطورته على أضيافه، ويصف سبحانه وتعالى ما حدث له من كرب وضيق وخوف حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴾[هود: ٧٧].

أي يوم شديد الكرب وذلك لتوقعه ما سيحدث من قومه، لاضيق بأضيافه وهو المعروف بكرمه وجوده، ولكن شفقة وخوف من موقف أهل قريته وخلقهم، وقبح استقبالهم الأضياف. وما توقعه – عليه السلام قد حدث – ونترك هذه الآية تصف لنا ذلك المشهد والموقف العصيب.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ [هود: ٧٨].

وقد كان ديدنهم عمل الفاحشة، وأنها أصبحت عادة متأصلة فيهم ، والفساد قد وصل عندهم درجة الاسراف. ويقف – عليه السلام – حائرا أمام بيته يدفع سيل الرجال الذين قدموا مسرعين من كل حدب الى بيته يسابق بعضهم بعضاً، يريدون افتراس هؤلاء الأضياف الكرام. وبعد أخذ ورد؛ يعرض فكرة لعل فيها الخلاص من شرهم، فيطلب منهم الرجوع للفطرة السليمة وذلك أن يتزوجوا بناته بدل ذلك الشذوذ "أي الاناث من أمته ولا تعني البنات من صلبه" فهن أطهر لهم وأنقى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ ﴾ يذكرهم بتقوى الله الواجب الطاعة الخالق الذكر والانثى لعمارة هذه الارض: ثم يثير في نفوسهم عاطفة وجوب اكرام الضيف واحترامهم.

ولكنه، وقد يئس – كما يظهر منه – وعرف مقدار تمسكهم بتلك الرذيلة ووقاحتهم المعروفة وأن لا فائدة من لغة العقل؛ وقد غطت سحب هوى النفس الأمارة بالسوء منافذ النور والعقلانية.

وبخهم قائلا: ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾[هود: ٧٨] رجل عنده مروءة الرجال، وغيرة الاحرار؛ فيدفعكم عن الوقوع بجرم اللواط؟!!

ولكنهم أجابوا وبكل وقاحة واستهتار، أن ليس لهم في بناته تعلق ولا مصلحة: ﴿ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ . والملاحظ في عبارة وإنك لتعلم ما نريد مقدار ما في هذه الفاحشة من ثقل وإجرام وخزي رغم

ما هم فيه من الاسراف في ارتكاب هذا الاثم وما يريدون الاقدام عليه من عمل فاحش.

ولكن الفطرة قد منعتهم من التصريح علنا بما يريدونه ومقارنة بزناة هذا العصر واللوطيين منهم؛ وقد وصلت وقاحتهم أن قد سنوا القوانين المبيحة لتلك الفاحشة فلطخوا؛ حتى الورق الأبيض ودنسوه بتلك القوانين التي تشجع على الرذيلة وتحمي أهلها من العقوبة. وجاهروا بزواج الذكور بعضهم من بعض. فماذا بعد هذا الى ان تدمر الأرض وتقع الجبال هدا، أو أن يبتلى الله الارض ومن عليها بأشد وأخطر الأمراض كما هو حاصل الآن.

ولما زادت شدة قوم لوط عليه ودفعهم له، وتصميمهم على أرتكاب تلك الفاحشة، قال متفجعا متحسرا: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي عشيرة أو رجال يدفعون هذا الشر فقد كان ﷺ غريبا عنهم، قد هاجر مع نبي الله إبراهيم عليهم السلام من أرض العراق.

ونذكر هنا تعليق رسول الله على هذا القول، وتلك الحسرة "يرحم الله لوطا لقد كان يأوي الى ركن شديد، ما بعث الله بعده نبيّاً إلاّ في ثروة من قومه" رواه الترمذي. والثروة هي المنعة والحامية من القوم.

أين هي القوة اليوم لدفع سيل الفساد الطامي عن البشرية؟ وقد حمت الدساتير والقوانين الوضعية هذا الفساد والمنكر، عند الدول الكبرى في هذه الأرض؛ باسم الحرية الشخصية والتحرر من قيود الدين؛ وما هو الاتحكيم للهوى، والنفس الدنيئة، وارضاء الشيطان وحزبه. وزج بمن يخالف هذه القوانين الشاذة الفاسدة في غياهب السجون، أو تعليقه على أعواد المشانق ظلما وعدوانا. فما ننتظر الا فاجعة كفاجعة قوم لوط، والله الرحيم الحامي لنا من هذا المصير الأسود.

ان بنات المسلمين الثابتين على دينهم اليوم؛ قد ضاقت عليهن الأرض بما رحبت من حيرة واذلال وكرب عظيم: في اللباس والزواج والاختلاط؛ ولا سند لهن، ولا من يدفع فساد التحرر عنهن؛ فقد حرمت بعضهن من تكميل دراستها، كما حرمت بعضهن من العمل وهن يستغثن الله أن ينزل غيث رحمته؛ وأن يهيئ لهن من يدفع عنهن شر تلك القوانين الفاسدة الجائرة المفسدة.

وأن يفرج كربهن كما فرج كرب قوم لوط وأهله – عليه السلام- حين خرج أحد الملائكة فضرب ذلك الجمع بطرف جناحه، فطمس أعينهم وأذهلهم؛ فخرجوا طالبين النجاة. فمن لنا اليوم من يطمس تلك العيون الجاحظة الوقحة: أعين المفسدين المضبوعين بثقافة الكفر، المحللين ما حرم الله، المنادين بحرية الزنا، المشجعين الزناة وأهل اللواط المدنسين أرض الله الطاهرة، المشجعين الفحشاء. قال سبحانه وتعالى في وصف طمس أعينهم وهروبهم حيث لا يلون على شيء: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧].

وجاء فرج الله، عند كشف هؤلاء الملائكة الكرام عن أنفسهم وعن مهمتهم، وأن العذاب قادم. كما طمأنوه على نفسه وأهله، الا امرأته؛ فقد هلكت مع صف المفسدين من قومها. وذكر هذه الزوجة وأهلاكها مع قومها العصاة – رغم أنها زوج النبي – يدل على وجود جبهتين، فمن ينضم لجبهة الكفر والشيطان فلا مقام له بيننا، فالأمر أمر مبادئ وعقائد، وليس هو الأمر علاقة زوج وزوجة أو أبن وأبيه أو نسب أو رحم. وعندما رأى الملائكة استعجال هذا النبي عذاب قومه، قالوا له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١] وكان هلاك قومه في ذلك الصباح.

وتوضح هذه الآيات ذلك الموقف، وتطمين الملائكة لنبي الله لوط – عليه السلام –: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ

مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [هود: ٨١ - ٨٢].

فكان هلاكهم وتدميرهم بقلب قراهم وتدميرها؛ وذلك جزاء المغالين في الفساد، وكما قلبوا الحقائق قلبت قراهم، وأصبحوا عظة لكل عاص لأمر الله. وقد أمطروا حجارة مرسلة لتعذيب العصاة المتمردين على نظام الله وحكمه الذي أختار. وهي الحجارة المعلمة – المتتابعة من السماء. وتلك الحجارة ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣].

هذا تنبيه وتحذير لقريش ولكل أمة تعمل عمل قوم لوط، أو تتحدى أمر الله. كما ذكرت قريش بقرى هؤلاء الظلمة، وأن تجار قريش يمرون بتلك القرى ويشاهدون دمارها.

وطبعا كانت قصة هؤلاء معروفة عند الناس في ذلك العصر لقربها من قريش زمانا ومكانا.

روى عن رسول الله ﷺ، أنه قال: (سيكون في آخر أمتي قوم يكتفي رجالهم بالرجال ونساؤهم بالنساء، فاذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قوم لوط أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل) ثم تلا رسول الله: ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣].

فليتذكر أهل الحل و العقد والحكم و التشريع من أمة الاسلام: هذا الحديث المعجز المخيف، وهم يرون دولهم تلعق ما تبصقه أمة الكفر من تشريع وضع حسب الهوى، وضع لأمة غير أمة الاسلام، وذوق غير ذوق المسلمين، وحياة غير حياتنا، ويطلب من أمتنا ببرد قدمها لتدخل في حذاء غيرها، وأنى لها ذلك، والتاريخ يشهد

رجوع أمتنا لدينها رغم المغريات ورغم كيد الكائدين، فهي أمة متفرعة الجذور، كبيرة الأرومة.

فمن يغلق أبواب الفساد قبل أن تقلب بنا الأرض، ونرجم بحجارة مـن سـجيل، كما رجم قوم لوط هؤلاء، والله القادر المنتقم الجبار، الفعـال لمـا يريـد؛ خاصـة وقـد قطعنا شوطا كبيرا في طريق الفساد والحكم بأحكـام الكفـر، وتقليـد الكفـار باللبـاس والأخـلاق و السـلوك؛ ولـيعلم هـؤلاء أن الأمـراض الأجتماعيـة تنتقـل بالعـدوى كالأمراض الجسمية. وفي القرآن الكريم من النذر والعظات والتحذير مـن الوقـوع في شراك النفس الأمارة بالسوء ومن تحكيم الهوى واطاعة الشيطان عدو الانسـان، ومـن تلك العظات قصص دمار الأمم المخالفة والمنحرفة عن الدين القويم.

لقد وصل علم الطب القمة في عالم اليوم، ولكنه عجز عن مـرض المناعـة الـذي من أسبابه المعروفة اللواط. هذا هو أنتقام الله الخالق المنظم، ممن غلبـت عليـه شـهوته وهواه فانحرف عن طريق الصواب، وعاكس الفطرة.

فما أمر الله ملائكته بقلب مدائن لوط الا لغضبه عليهم وغضب القـادر الفعـال لما يريد عظيم صعب، وتدميره شامل، لا راد لقضائه، هذا عـذابهم في الـدنيا، فكيـف بعذابهم في الآخرة؟ وعذاب من شرع القوانين الوضـعية الفاسـدة الظالمـة تلـك الـتي تساند الرذيلة، وتنصرها على الفضيلة.

قال رسول الله ﷺ: (كيف أنتم اذا وقعت فـيكم خمـس، وأعـوذ بـالله أن تكـون فيكم أو تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم قط يعمـل بهـا فـيهم علانيـة الا ظهـر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، وما منع قوم الزكاة الا منعوا القطر من السماء، لولا البهائم لم يمطروا، وما بخس قوم المكيال و الميزان الا أخـذوا بالسـنين وشدة المؤنة وجور السلطان، ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله الا سلط الله علـيهم عدوهم فاستنفد بعض ما في أيديهم، وما عطلوا كتاب الله وسنة نبـيهم الا جعـل الله بأسهم بينهم) رواه أحمد وابن ماجه.

٢٤- قوم شعيب -عليه السلام-

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود: ٨٤ - ٩٥].

الفساد في الأرض من المنكرات التي حرمها الله سبحانه وتعالى؛ بين خطرها على المجتمع والفرد، كما بين الشارع أن المصلحة عند المؤمن هي تحكيم الشرع، لا في تحكيم الهوى؛ فالشارع سبحانه وتعالى، هو خالق النفس والبشر والعلاقات والمجتمع، يعرف ما يضر وما ينفع، لا بعقل البشر المحدود؛ بل هو الخالق المدبر الحكيم المحيط بعلمه بكل شيء.

ومن الفساد الأنحراف عن طريق الصلاح الذي رسمه رب العالمين لخلقه وبينته رسله وربط أعمال وأقوال و سلوك العباد بما أمر الله به، والابتعاد عما نهى عنه، سبحانه وتعالى على لسان أنبيائه – عليهم السلام -: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ ففي هذا الطلب من الأنبياء لأقوامهم من لين ظاهر وحب وهداية لهم، و الحرص الشديد على مصلحة العباد والمحافظة على سيرهم في الطريق المستقيم الموصل لأبواب الجنة. فمن الفساد الذي حرمه الشرع: أكل مال الغير والغش والتدليس والتطفيف في الكيل والوزن واللعب في تلك المقاييس المتعارف عليها.

ثم تعكير صفو الأمن بقطع الطرق على التجار، ونهب تجارتهم، وسرقتهم وقتلهم؛ بدون شفقة ولا رحمة وذلك لعدم تصور مراقبة الله، وعدم الايمان بتسجيل أعمال الانسان وأقواله، وتناسي أن الظلم هو ظلمات يوم القيامة. وعلى رأس هذا الفساد الشرك، ومنع الناس من الوصول الى دعاة التوحيد؛ ولهذا كان الجهاد في الأسلام: هو تحطيم الحواجز المادية التي تقف أمام دعوة التوحيد ووصولها لعباد الله كما أمر الله- سبحانه وتعالى -.كانت مدين مدينة تجارية؛ تقع بين جزيرة العرب وبلاد الشام المباركة ومصر؛ تلك الأماكن التي تصل الشرق مع الغرب، وتصل آسيا مع أفريقيا. وقد أغنى الله تلك الواحة بعد الفقر، وكثر أهلها بعد القلة وبدل الشكر والمعاملة الحسنة لما يمر بها من تجار، شريان الحياة لتلك المدينة،

ومصدر الخير لها، زين لهم الشيطان طرق الفساد والبطر؛ فأضلهم وأعمى بصائرهم؛ وفتح لهم أبواب الاغراء و الغواية في نهب التجارة، وقطع الطريق، واذلال الغرباء، والاحتيال على الناس في الكيل والوزن، ثم الاستهزاء بالمؤمنين الذين يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويصلحون ولا يفسدون.

فقد سار هؤلاء المفسدون في طريق الغواية و الشرك بالله ومقاومة دعاة التوحيد وأهل الصلاح والخير، وخاصة، نبيهم شعيب – عليه السلام –. ورغم بلاغة نبيهم هذا – فهو خطيب الأنبياء – وثباته وصبره، وعدم يأسه واستعماله طرق الترغيب والترهيب في وعظهم، فقد جمد المجتمع أمامه، وتحجرت القلوب وفسدت النفوس، وتعطل الشرع القويم، وسيطر الهوى والجشع.

وضاقت نفوس الملأ منهم من دعوة الأصلاح؛ فأغلقوا الأبواب أمام نور الخير والفلاح، بل أخذوا في مقاومة الدعاة. ووصل الأمر في طغيانهم أن هددوا نبي الله هذا – عليه السلام – بالرجم أو باخراجه من تلك المدينة، تلك التي فتنها المال والشيطان والتكبر، فكفرت بنعم الله؛ حتى وصلت من الفساد ما يوجب العقاب، فدمرت بصيحة قوية شديدة – بأمر الله – أهلكت هؤلاء الكفار المعاندين البطرين المفسدين، وأبقت المؤمنين العاملين الصالحين. الغش واحتقار الناس وسرقة أموالهم والاحتيال عليهم يوصل لعدم الثقة والكره والشك والحذر المؤدي لعدم الأمان، وهذه الامور تعتبر في حد ذاتها ظلما، توجب العقوبة من رب العالمين، وسبيلا للدمار وتغير الحال في التجارة وتغيير طرقها؛ وسببه الجشع، وطلب الربح السريع، ولو بالطرق الفاسدة.

من حكمةالله – سبحانه وتعالى–، ورحمته بعباده،أن يبعث للبشر رسلا لهم، ومن المقربين المعروفين بالصلاح بينهم، فهذا شعيب – عليه السلام – بعث لمدين ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾وقد بدأ دعوته لقومه: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ

إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ فقد سار في دعوته على منهج من سبقه من الرسل و الأنبياء، فيذكر لقومه أن الله هو مستحق العبادة الواحد الأحد، الخالق القادر فأطيعوه، وتذللوا له. هذه الدعوة هي القاسم المشترك بين أنبياء الله؛ فتوحيد الله، ووجوب طاعته، والثبات على عبادته، هي من أصول العقيدة.

والملاحظ استعماله اللين، واثارة العاطفة الدينية والأخوة، والتنبيه بأصل الدين، ثم يذكرهم بأعظم مفاسدهم وطغيانهم بعد الشرك بالله؛ كالتطفيف في الكيل والوزن، وقطع الطريق على التجار والأحتيال و الغش. ثم يذكرهم بنعم الله عليهم، وما هم فيه من ثراء ورفاه، وبما أنعم الله عليهم بسكناهم هذه الواحة الخيرة، والمحطة التجارية المشهورة.

قال سبحانه وتعالى محذرا من التطفيف في الكيل والوزن: ﴿....وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ . فقد استعمل سبحانه وتعالى لغة التحذير من زوال تلك النعم الكثيرة الوفيرة، وذلك لعدم الشكر، وللفساد الذي هم فيه؛ الذي هو أعظم نذير شؤم لزوال النعمة، كما حذرهم من سخط الله، ونقمته عليهم، فهو إن غضب فعذابه مدمر، محيط بهم، فلا مفر ولا ملجأ منه إلاّ إليه – سبحانه وتعالى -. ويستمر – عليه السلام – بوعظه وتحذيره بأسلوب بلاغي معروف: فيبدأ كلامه، باثارة العاطفة وتذكيرهم بحنان الأخ، والتحبب اليهم حيث قال عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [هود: ٨٥] فقد أكد هذا الوعظ مرة أخرى؛ لفسادهم الظاهر وتمسكهم به؛ وقد ربط رب العزة التطفيف في الكيل والميزان بالويل، وهو من أقسى أنواع الوعيد، حيث قال سبحانه وتعالى ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ [المطفِّفين: ١ – ٢].

وقد فسرت الآية هذا العمل المشين وبينته بالتفصيل.

ومن عظم هذه الجريمة: فقد سميت سورة في القرآن الكريم بهذا الأسم. ثم زيادة في التهديد والوعيد، قُرنت بيوم الحساب المخيف المرهب. ثم يكشف سبحانه وتعالى، عن بعض حيلهم وفسادهم حيث يقول: ﴿...وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ...﴾ لا تختلفوا بألفاظكم السيئة وحيلكم الملتوية، فتقلبوا الحقائق، وتزيفوا الوضيع، وتطعنوا في الصحيح، وترفعوا قيمة الرخيص، وتحكموا مصلحتكم وتظلموا غيركم. فهذه هي أخلاق المفسدين في الأرض، وهذا هو ديدنهم عبر العصور. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾. وكان من طباعهم وفسادهم نهب وسلب من يمر بهم من غرباء وتجار، فيقطعون الطريق ويسلبون الأبرياء، متحدين أوامر الله.

ويستمر في وعظه، لعل تلك القلوب القاسية تلين، وتنقشع غيوم الغشاوة عن تلك البصائر العمياء. حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ما تأخذونه من ربح الحلال هو أبرك لكم وأفضل، ولا يقدر هذا ويعرف قيمته الا من آمن وعمل بما أمر الله.

ثم يبين لهم أنه واعظ وليس محاسب حيث يقول لهم: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾. فلا أحفظكم من ازالة نعم الله عنكم بكثرة معاصيكم ولا أستطيع مراقبة بيعكم، وكشف حيلكم وخداعكم؛ بل الله هو العالم الكاشف. قال رسول الله ﷺ، (ما أظهر قوم البخس في المكيال والميزان الا ابتلاهم الله بالقحط والغلاء) ابن ماجه.

وكان هلاكهم في جوابهم على هذا الوعظ والنصح، قال سبحانه وتعالى، يخبرنا عن جوابهم هذا: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ

ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾. ففي هذا الجواب قلبا للحقيقة حيث اعتبروا صلاته وعبادته لربه عق الأباء والأجداد بتركه طريقتهم في عبادة الأصنام، وماتوارثوه من ضلالات، وما أعتادوا من عقائد وأنظمة وساروا عليه مقلدين جهل الآباء والأجداد؛ وبدون تفكير ولا روية. ثم احتجوا على تدخله – عليه السلام – في حرية معاملاتهم التجارية، من بخس الناس أشيائهم، الى التطفيف والربا والاحتكار والغش، والتحايل في المعاملات التجارية، وما يتبعها من الكسب الحرام. فهم يعتبرون أن كل ما اتفق عليه المتبايعان جائز مهما احتوى من تدليس وخديعة وفساد.

وهذا ما نحن فيه اليوم من اطلاق العنان للحرية الاقتصادية: (تملك ما تشاء بأي طريقة تشاء) فالربا والاحتكار والاحتيال والتدليس والغش – على ما فيها من فساد وضرر – مشروعة في النظم الوضعية الظالمة الفاسدة؛ رغم تحريمها من رب العالمين. وقد ضمنت هذه الآية مقدار وقاحتهم واستهزائهم بتسفيه أحلامهم، وما كان يعبد آباؤنا، ثم تدخله في الحرية الاقتصادية و التعامل التجاري، كأنهم يقولون لا تدخل للدين في هذه المعاملات، وأن الدين هو أدعية وصلوات فقط بين الانسان وربه ولا دخل له في الحياة.

ثم يذكرهم – عليه السلام – برسالته ، وأنه مختار من رب العالمين؛ ومهمته التبليغ والنصح، وأنه يطبق ما يقوله على نفسه قبل غيره.

قال تعالى، على لسان شعيب – عليه السلام –: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾ فيبين لهم أن فضل الله عليه كبير؛ فهو صاحب ثروة، ولكنه يكسبها بالحلال وبدون اللجوء للتطفيف والخداع والكذب والغش. فان كنت انهاكم عن هذه الأخلاق السيئة في البيع والشراء، فانني قد طبقتها على نفسي، فلا أقترب من الحرام، وليس

من باب المنافسة التجارية بيني وبينكم، أو لأخدعكم لأقول مالا أفعل. صح عن رسول الله محمد ﷺ، فمن يأمر بالمعروف، ولا يفعله، وينهي عن المنكر ويفعله: "يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه – أي تخريج أمعاؤه من بطنه – فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟

ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف فلا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه مسلم. ثم يستأنف كلامه: ﴿...إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فيبين – عليه السلام – أن ليس له هدف غير الاصلاح بالعدل في هذه الدنيا والعبادة والتمسك بأمر الله، وماعليه الا العظة والنصح والهادي هو الله، والتوفيق بيده؛ فهو مقلب القلوب، الهادي الى سواء السبيل، عليه توكلت بعد السعي، والأخذ بالأسباب؛ فالمرجع اليه في عوني في الدنيا ورضاه في آخرتي. وكما هي طبيعة البشر، فهي أحيانا تنفر ممن يعظها تكبرا وغلظة وأنانية، وتعتل بعلل، وتتبع وسوسة الشيطان؛ بأن هذا الواعظ لا يريد وجه الله بل يريد ربحا ماديّا أو سلطة أو كبرياء.

قال سبحانه وتعالى ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، فهو – عليه السلام – يحذر قومه من هذا الظن السيء، ثم يذكرهم بأيام الله التي أصابت من سبقهم من الأمم، وخص قوم لوط لقربهم في السكن أو الفساد أو الاجرام الموجب للعقوبة.

فالويل والدمار لكل عاص متكبر لا يستمع لوعظ ولا ينتهي عن فساد. وينهي قوله هذا بفتح كوى الرحمة والخير أمامهم، وازاحة فكرة القنوط عن أذهانهم حيث يقول: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾.

فهذه العظة التي ترقص لذكرها القلوب المستنيرة، وتتأمل خيرها النفوس المكروبة، فيها الأمل والرجاء. رب رحيم ودود، فافرح وأملأ الارض سرور وبهجة يا ابن آدم، واستعجل التوبة والاستغفار، وارجع عن غيك، واتبع سبيل المحسنين، فالله يحب توبة عبده، فيهديه سواء السبيل، ويدفع عنه الشر والبلاء.

ويأتي الجواب بعد هذه العظة الخيرية؛ بأن الاسماع مغلقة، والقلوب مختومة، والجهل مغط الحقيقة بغيوم كثيفة، وبحر لجي شديد الظلام، وذلك بقولهم لخطيب الأنبياء – عليه السلام – ذلك الواعظ البليغ والنبي الكريم؛ بأنهم لا يفقهون له قولا، ولا يفهمون له حديثا، ولولا رهطه واحترامهم لطرد أو رجم. قال سبحانه وتعالى، يخبرنا عن هذا: ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ . فما أنت علينا بممتنع، وما لك بمقدرة أو قوة تدفعنا عنك، وهذه هي عادة البشر الأقوياء، فشلوا في الأقناع لجؤوا الى العنف والقتل والطرد والحبس، كفرعون ونمرود وابى جهل، وأمثالهم في هذا العصر كثر، والعياذ بالله!!!.

فيجيبهم جواب رسول من الله؛ يعتبر القوة بيد الله، والسند هو الله الخالد المدبر والواجب الشكر على نعمائه؛ فلجهلهم وغبائهم: اعتبروا جماعته ورهطه هم المانع لهم من ايذائه ورجمه واحترامهم واجب – حسب وجهة نظر كفار مدين – فذكرهم نبيهم شعيب – عليه السلام – أن احترام الخالق وشكره واجب؛ وذلك لأن الرزق و الخير و الحياة بيد الله.

والملاحظ أنه – عليه السلام – يستغل كل لفظة ورأي عندهم ليرجعهم الى أصل الدين، والى التذكير بالله، والخوف منه، وهم لضيق نظرهم وبلادة حسهم، لا يعتبرون الا الحياة الدنيا ومقاييسها الوضيعية، فهو يندب عليهم حالهم وغبائهم؛ حيث أحترموا وقدروا العشيرة ، ولم يحترموا خالق العشيرة، وأهملوا القوي الخالق

الدائم، ونظروا واهتموا لقوة العبد المخلوق الفاني. قال سبحانه وتعالى، في قول نبيهم فيهم: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ وقد ذكرهم بأنه متمسك بهذا الرب الخالق المحيط و العالم بأعمالهم، يسجلها عليهم ويجازيهم يوم القيامة بما هم أهل له.

و"ظهريا" بمعنى أهملوه كما أهملوا أوامره ونواهيه. وأمام هذه القلوب المتحجرة، والغشاوة التي غطت الحقيقة، والتكبر الذي أعمى البصائر، شعر – عليه السلام – أن لا جدوى من الوعظ والتذكير، لجأ الى التهديد والوعيد، حيث قال – عليه السلام –: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴾ ورغم هذا الوعيد فقد استمروا في طغيانهم وكفرهم وفسادهم، وما أختاروا لأنفسهم من السير في طريق الضلال، الذي سيؤدي الى غضب الله.

وأما نبيهم شعيب – عليه السلام – فهو ثابت الرأي و الموقف فيمسك بدينه رغم الصعاب، ويلتف حوله جماعة المؤمنين الصابرين الذين استنارت قلوبهم بنور الايمان ، لا يهمهم من خذلهم.

ينتظر هؤلاء الكفار عذاب الله في الدنيا، وعقابهم المحيط لهم في الآخرة، كما ينتظر المؤمنين هؤلاء فرج الله الذي يفرق بين الصادق و الكاذب، و الطريق المستقيم من المعوج.

وقد جاء الفرج من الله بعذاب ودمار أحاط بكفار تلك المدينة. قال سبحانه وتعالى ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا ...﴾ فكانت البشرى بنجاة المؤمنين ونبيهم قبل اعلان هلاك الكفار؟

وذلك برحمته وتكريمه لهؤلاء الذين احتقرهم مجتمعهم، ولكنهم عند الله

لايمانهم وتقواهم مكرمون، ومن أكرمه الله فهو عزيز. والظالم هالك في الدنيا والآخرة، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ فأماتهم الله القادر الجبار، وفي لحظات قليل قيل في ذلك: أن رأوا ظلا في أرض فتجمعوا فيها فكان ظل اعصار وبرق ورعد وصواعق فأحرقتهم، فهلكوا جميعا ولا راد ولا مجير من عذاب الله المنتقم الجبار؛ فليتعظ الجبابرة البطرون المتسلطون من هذا القصص الحق، والذي ماسطر في كتاب الله الا للتحذير والتبصير والعظة. قال سيحانه وتعالى في وصف مصارعهم، وما تركوه من خيرات وراءهم:

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ...﴾. وأخذ نبيهم – عليه السلام – ومن معه من المؤمنين الذين نجوا بتقواهم؛ ينظرون الى مصارع الظالمين الكفار، وكأنهم لم يعمروا تلك المدينة، ولم يبنوا حضارة، ولم يمتلكوا مالا وجاها وقوة؛ فقد خسروا الدارين لكفرهم النعمة، وتركهم أوامر الله وراء ظهورهم، وتكبرهم وظلمهم وصلفهم.قال سبحانه وتعالى: ﴿...أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ فقد بعدوا من رحمة الله، كما بعدت ثمود. ويرجع لنفسه – عليه السلام – وهو ينظر الى مصارع الظالمين من قومه. فيقول: كيف أحزن على هؤلاء الكفار الذين أغلقوا أبواب الخير عن أنفسهم بأيديهم، وفتحوا لأنفسهم أبواب الشر و الضلال؛ فهلكوا.

قال سبحانه وتعالى، يصف موقفه هذا: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾[الأعراف: ٩٣].

والنصح موجود والعظة واضحة بينة، الى أن تقوم الساعة. فما حواه كتاب الله من النصح والعظات والرشد والتهديد والوعيد والقصص الحق؛ ما هي الا حجة على البشر عامة، وعلى من يقرأ كتاب الله خاصة، لا يفرق بين أهل مدين،

وأهل مكة، وأهل القدس، وجميع عواصم ديار الاسلام اليوم، وبلاد المسلمين عامة، فالخطاب عام والعظة شاملة، وكتاب الله الذي تعهد بحفظه الى أن تقوم الساعة، هو حجة على البشرية، ولا مفر من تطبيق أحكامه، والعمل بما أمر، ولا عذر لمعتذر، من حاكم ومحكوم، من قوي وضعيف، فالكل مطالب؛ والكل محاسب؛ ولنا فيما حصل للأمم السالفة عظة لمن يتعظ.

٢٥- لباس المؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦ - ٣٢].

ومن نعم الله وكرمه وفضله علينا؛ أن علمنا وهدانا لصنع البسة تواري عوراتنا وتحمينا من برد الشتاء ومن حر الصيف، ونتزين بها في أعيادنا وأفراحنا وتجمعاتنا. فتصنع من الياف القطن والكتان ومن أصواف الحيوانات وأوبارها؛ مما اختلط فيه الماء بعناصر هذه الأرض؛ كما نتزين بريش الطير زيادة في سرورنا وبهجتنا، ورفاهة عيشنا. وفي اللباس هيبة ووقار وزينة لابن آدم تميزاً له عن غيره من مخلوقات هذه الأرض الخيرة؛ التي استخلفه الله فيها.

قال سبحانه وتعالى يذكرنا بنعمته علينا: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ هو استشعار تقوى الله فيما أمر الله ونهى عنه؛ وهو لباس الحياء ولباس الهدى والرزانة، لباس الصالحين الاتقياء؛ الساتر لعورة حرّم كشفها خالق الخلق – سبحانه وتعالى – على الغرباء. لباس المؤمنين العاملين بأمر الله، لباس الفطرة والذوق السليم.

قال سبحانه وتعالى في تحديد لباس المؤمنات ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ ﴾ [النور: ٣١].

كما قال سبحانه وتعالى، مبينا وموضحا لباسهن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[الأحزاب: ٥٩].

فهذه أوامر أخذت بها، وطبقتها نساء المسلمين قروناً طويلة؛ حتى أصبحت سمة أو علامة فارقة بينهن وبين غيرهن، هذا اللباس الذي أمر الله به ووصفه بدقة، هو خير ونعمة أنعمها الله على بني آدم تكريما وتعظيما له؛ فليذكروا هذه النعمة، وليشكروا الله الذي هداهم لما فيه مصلحتهم؛ وأنبت لهم ألياف النبات، وصوف الحيوان؛ وعلمهم صنعة الاستفادة منها فحفظهم من الفتنة ووسوسة الشيطان الرجيم؛ بسترهم عوراتهم، وحفظهم لكرامتهم وعن أسباب الفساد والاثم والفتن.

فهذه تذكرة وعبرة لفضل الله علينا، وحجة لوجوب شكره، وطاعة أمره.

ثم يكرر – سبحانه وتعالى – لبني آدم يحذرهم فتنة الشيطان ويذكرهم بما فعله مع جدهم وجدتهم: اذ كاد لهما – حسدا لما أنعم الله عليهما – بوسوسته واغرائه وتزيينه المشهور؛ فكان أن نزع عنهما لباسهما الجميل؛ فظهرت عوراتهما التي كانت مستورة باللباس. قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[الأعراف: ٢٧].

وتخبرنا هذه الآية الكريمة بمالا يدع سبيلا للشك في العلاقة بين الانسان والجن؛ فتبين بطلان رؤية الجن:(مؤمنهم وكافرهم ومنهم الشياطين) على صورتهم الحقيقية؛ الا كمعجزة لبعض الانبياء فقط. قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[الأعراف: ٢٧].

ورؤيتهم لنا من حيث لا نراهم هي الخطر على بني آدم؛ العدو الظاهر أهون خطراً وأضعف أثرا من العدو الخناس. فمن فضل الله على الناس، ما يكشفه لهم من أساليب الشياطين وطرق أفسادهم وتضليلهم؛ وذلك من علم الغيب الذي تجهله البشرية؛ فيكشفه - شبحانه وتعالى – بالوحي والكتب المنزلة من عنده، فيكون هذا الوحي نعمة للمسلمين الذين يريدون السير في طريق الفلاح الموصولة لرضا الله؛ فالجنة. كما يذكرنا – سبحانه وتعالى – بصفة هامة خطرة علينا لهؤلاء الشياطين، وهي طريقتهم في الولاء؛ فهم يوالون الكفار وحزبهم من المفسدين والفساق.

وهذا الاستثناء للمؤمنين من مولاة الشياطين وقبيله وحزبه؛ لهو أمر يثلج الصدر ويفرح القلب؛ ويبين للمسلم سربه وفئته وحزبه؛ كما يعرفه بأعدائه الطبيعيين منذ أب البشرية آدم – عليه السلام – الى أن تقوم الساعة. فالحذر، الحذر من

عدو يكيد لنا في الباطن والظاهر، يوحي بعضهم لبعض، ويسند بعضهم بعضا. وكفى بالله معينا وحافظا ووليا انه السند العزيز، والناصر القوي، والهادي سواء السبيل. قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وواو الجماعة في كلمة ﴿فَعَلُوا۟﴾ ترجع لمشركي العرب.

ومن الفواحش التي أمروا بتركها الطواف حول الكعبة عراة "الرجال بالنهار والنساء بالليل" وكان جوابهم لمن وعظهم: عن كشف عوراتهم في أرض الحرم، أطهر مكان؛ بأنهم قد ورثوا هذا السلوك أو الخلق عن الآباء، وأن الله قد أمرهم بذلك العمل الشائن، والفحشاء الظاهرة، والرذيلة البينة. وقد أهملت الآية الكريمة الرد على قولهم ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٨] لأن الجواب عليها ظاهر طبيعي لجهل آبائهم، وتقليدهم خطأ: لشركهم وتحكيمهم الهوى والرغبة. فمن هنا كان الرد على الشق الثاني من الآية الكريمة ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾ فقل لهم يا محمد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ﴾ [الأعراف: ٢٨].

والسؤال في هذه الآية استنكاري، وتوبيخ وذلك لكذبهم وقولهم الزور والبهتان؛ كما يتضمن النهي عن الافتراء، واتباع الهوى...قال رسول الله: "من قال في كتاب الله بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار" رواه بخاري.

قال سبحانه وتعالى يأمر نبيه محمد بالرد على قول هؤلاء المشركين: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩].

ان الله يأمر بالعدل في كل شيء، مع عدم الافراط و التفريط. والفعل

الماضي "أمر" يفيد التوكيد. كما أن كلمة ﴿رَبِّي﴾ فيها نفي عبادة الاصنام، وما يعبد من دون الله، وتحدي المشركين، والثبات على حمل الدعوة ونشرها. وينتقل الحديث في هذه الآية الكريمة لأمر واجب الطاعة، وهو التوجه في صلاتنا لله، لا الى الاصنام والاوثان.

كما يأمرنا بلستقبال القبلة في أي مسجد كان، وهذا تكريم عظيم وبشرى بكثرة المساجد في الأرض سواءا بعدت أم قربت من بيت الله الحرام. وتيسير للمسلمين في اقامة الصلاة في أي بقعة في الأرض.

ثم يذكرنا بأن أساس هذا الدين هو الاخلاص لله في العبادة، وترك ما يعبد من دونه؛وفيه الاشارة الواضحة بتحطيم تلك الأصنام المحيطة بالكعبة في تلك الأيام و التي كان يجلها ويعبدها مشركو العرب. ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ثم يذكر البشرية – وخاصة منكري البعث بالعودة بعد الموت: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. حفاة عراة؛ فالقادر على النشأة الأولى قادر على الثانية. فمن أوجدكم بدءا قادر على بعثكم مرة أخرى للحساب والجزاء.

فاذكروا ذلك اليوم؛ واسعوا لانقاذ أنفسكم من عذاب ذلك اليوم العظيم. قال سبحانه وتعالى يصف وبدقة تلك العودة: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠] ولماذا حقت عليهم الضلالة: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وقد بين سبحانه وتعالى أن مصير هذا البعث الجنة لمن أطاع الله، وعمل بما أمر الله، فهو يرفل في حلل السعادة والهناء في جنة أعدت للمتقين، فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين.

وفريق ضل وسلك طريق الشقوة واتخذ الشيطان وليا ناصحا، وقائدا أمينا وأعرض عن ذكر الله، وعن العمل بما أمر الله، وسلك طريق الغواية فكانت النار جزاؤه والمأوى و المآب. قد زين الشيطان أعمالهم وظنوا أنهم سائرون في طريق الفلاح، وعميت بصائرهم عن الخط المستقيم، فكان الضلال سبيلهم والنار نصيبهم.

وهذه الآية تبين عدل الله، فالفريق الضال هو من أتخذ الشيطان وليا، وأعرض عن طريق الخير، وتنكر عن أمر الله، كما تدعو هذه الآية المكلفين من البشر للتفكير، وعدم التقليد الأعمى، أو عدم أطاعة النفس الأمارة بالسوء؛ والأخلاص بالعبادة لله، وعدم اتخاذ الشيطان وليا، عند ذلك لا يفكر أحدنا بأنه يسير في طريق الصلاح وهو يسير في طريق الغواية والضلالة. ففريق وفقهم الله للهداية لتقواهم وفريقا أطاعوا الشيطان واتخذوه وليا ناصحا فهلكوا. عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: "يا أيها الناس أنكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا، كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين" رواه مسلم.

قال سبحانه وتعالى يأمرنا بلبس خير اللباس في الجمع والاعياد.

وفي اجتماعكم للصلاة و في الطواف حول الكعبة المشرفة حيث يقول:
﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

لا يزال الخطاب للبشر عامة؛ فإظهار العورة مخالف للفطرة، و اللباس زينة البشر. وسبب نزول هذه الآية الكريمة هو طواف بعض أهل الجاهلية من غير أهل الحرم عراة إلا من لبس جديد أو أن يستعير ثوبا من أهل الحرم الشريف. وقد استنكر المشركون القادمون من خارج الحرم طواف المسلمين بلباسهم المعتاد فالآية الكريمة هذه تأمر باللباس و ترك هذه العادة الشاذة عند العرب الجاهليين.

وأما قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١]. فقيل أنه كان من عادة بعض القبائل في الجاهلية أنهم يحرمون أكل الدسم على من حج من خارج أرض الحرم، وذلك أثناء أدائهم النسك في أرض الحرم؛ فقد أباحت هذه الآية الكريمة الأكل والشرب وبدون مخيلة ولا تكبر، والإسراف هو شرب أو أكل ما حرم الله. و قد أمرنا بالتوازن والاعتدال في كل شيء ومنه الطعام والشراب.

عن أبي أمامة قال: سمعت عمر بن الخطاب -رضي الله عنه - يقول: قال رسول الله (ﷺ): «من استجد ثوبا فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في حياتي، ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به، كان في ذمة الله وفي جوار الله و في كنف الله، حيا و ميتا» رواه أحمد و الترمذي و ابن ماجه.

كما وقد جمعت هذه الآية الكريمة أصول الأحكام: من أمر و إباحة و نهي وخبر، وهذا ليس بغريب على آيات معجزات في نظمها ومعناها.

ثم تأتي الآية الكريمة التي ترفع قيمة الزينة واللباس الفاخر فتجعله لباس المتقين يوم القيامة مع تجملهم به في الدنيا حيث يقول سبحانه وتعالى مخاطبا رسوله الكريم: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

و﴿مَنْ﴾ في هذه الآية الكريمة هي استفهام استنكاري والمفهوم من هذا الاستنكار أن عرب الجاهلية قد حرّموا اللباس أثناء الطواف في ملابسهم المعتادة وذلك من عند أنفسهم؛ وأن الله لم يأمر بهذا بل يأمر سبحانه وتعالى بلبس أحسن الثياب؛ وأن الأمر ليس الإباحة في اللباس الحسن الساتر فحسب، بل أنه ندبة لمن استطاع، وخاصة في الجمع والأعياد والمجالس العامة، كاستقبال الوفود؛ واللباس

هو من نعم الله على البشر. وقد عطف الطعام الطيب على اللباس، وبين انها رزق من الله وأنها ستكون خاصة للمؤمنين فيحـرم منهـا الكفـار يـوم القيامـة وفي هـذا البلاغ بحرمان الكافرين من الوعيد والتهديد البليغ ما فيه.

كما نفهم من هذا التفصيل لتلك الآية؛ أن القـادر الـذي يحـرم نفسـه البـاس والطعام الحسن ويحرم أهله ذلك معتلا بتقليد بعض الاتقياء من الناس وأن اللباس الخشن نوع من التواضع هو مجانب للصواب، زيادة على حرمانه أجـر رعايـة أهلـه الحسنة الواجبة. ثم ربط، سبحانه وتعالى، بين نعيم الدنيا والآخرة، ثم فـرق بينهمـا بأسلوب بلاغي وبيان واضح؛ حيث بين أن نعـيم الـدنيا هـو مـن نصـيب الكـافر والمؤمن، ورزقه يعم الجميع.

أما نعيم الآخرة فهو خـالص للمـؤمنين، أحبـاء الله الـذين أسـتجابوا لأمـره، واصاروا على نهج كتاب الله، وثبتوا على الايمان والعمل لما أمر الله وهذا التفصيل في معنى الزينة، وطيب الطعام والشراب، ثم ربطه بنعيم الجنة، يـوم القيامـة لـنعلم أهمية الزينة و اللباس الحسن، والطعام الحلال الطيب فنأخذ منه حاجتنا.ومن فينـا لا يرغب في لباس وطعام الجنة؟

وما ينكر هذا الا مكابر، أو كـاذب أو منـافق فلـبس خشـن الثيـاب والممزقـة وحرمان النفس لذة الطعام والشراب الحلال كل ذلك بدعـة، ولا شـك لمـن يقـدر على ذلك ويحرم نفسه وأهله. وبهذا قد أبطل سبحانه وتعالى، عـادة رمـي الثيـاب، والتي كانت من مسلك عرب الجاهلية القادمين من خارج أرض الحـرم كمـا أبطـل طوافهم عراة تزيينا من الشيطان لكشف عـوراتهم وظنـاً مـنهم مـن تأثيرهـا علـى النسك وذلك لإرتكاب صاحبها بعض الآثام أثناء لبسها. يريدون محاكمت اللبـاس بدل القلوب والعقول ونفوس. كما استنكر سبحانه وتعالى، في هذه الآيـة الكريمـة؛ تحريم أكل الدسم في أرض الحرم، لغير سـاكني الحـرم فأبـاح أنـواع الطعـام الا مـا حرمه بصريح الآيات والاحاديث على جميع المسلمين كالخمر والميتة كما حرم لبس

الحرير والذهب على رجال أمة الاسلام في الحياة الدنيا وتفصيل هذه الآيات البينات ما يدركه ويفقهه الا من هدا الله واستفاد من نعمة العلم والتفكير والعظات.

وقد حصر رب العزة ما حرمه وذلك في هذه الآية على لسان رسول الله حيث قال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فالفواحش الظاهر منها والخفي، محرم؛ وهي الاعمال المخالفة لشرع الله، المفرطة في القبح، المبالغة في المعصية. وربط اللباس بالفواحش يدل على خطر العري على المجتمع والافراد، وعلى عظم هذه الجريمة التي يحتقرها البعض، وهي عند الله كبيرة. وقد أبرز سبحانه بعض أنواع الفواحش لخطرها على البشرية عامة؛ كارتكاب الآثام والتي هي مجمع المعاصي.

والبغي: وهو تجاوز الحد في الاجرام والاعتداء على الغير.

والشرك: وهو أعظم الذنوب والكبائر لادعائهم أن لله ولدا. قال سبحانه ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف: ٣٣].

هي عبارة تهكم واستنكار، لأن الله لا ينزل برهانا ودليلا على أن يكون له ولد أو شريك في الملك، فحجة المشركين واهية.

كما حرم الكذب، وخاصة على الله كقول عرب الجاهلية: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ وقد ذكرت هذه الالفاظ في سورة النحل آية ٩٠: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله: "لا أحد أغير من الله فلذلك

حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله" رواه أحمد والشيخان.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله: "صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات جميلات، مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لايدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وأن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا" رواه مسلم. وعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يكون في آخر أمتي رجال يركبون على سرج كأشباه الرحال، ينزلون على أبواب المساجد نساءهم كاسيات عاريات، على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف، العنوهن فانهن ملعونات، لو كان وراءكم أمة من الامم خدمتهن نساءكم كما خدمكم نساء الامم قبلكم" رواه الحاكم وابن حباب.

هذان الحديثان يوضحان استنكار رسول الله، للباس هؤلاء النسوة وذكر حرمانهن من دخول الجنة وعبر عنها برائحتها الحسنة، وبعدهن عن هذا الخير.

هذا وفي هذين الحديثين من الاعجاز من حيث الاطلاع على الغيب. فقد ذكر هذا اللباس كفساد يلحق بالامة قبل قيام الساعة، ومن هذا الفساد اللباس الذي نراه اليوم، وقد أنتشر وعم خطره بل وهاجم لباس المسلمات الطائعات لله،اللابسات لباس الحشمة. أقول: ان لباس الفسق والفجور قد هاجم المسلمات بكل شراسة وقوة حتى أصبح من سمات اللباس الغالب في هذا العصر الذي نعيش والعياذ بالله؛ وذلك قبل قيام الساعة المنتظر. ثم قلبت الموازين، فمنعت بعض الدول التي تحكم غالبية مسلمة، لبس الحشمة الذي أعتادت عليه أمة الاسلام. وذلك منذ بضعة عشر قرنا. وأصبح لباس الاسلام غريبا محتقرا في بلاد المسلمين.

فوسائل الاعلام ودور النشر وأفلام التلفاز؛ قد ساعدت وتساعد في طي

اللباس الذي أمر به الشرع، وحل محله لباس الفساق والفجار ذلك العري الذي استنكره بني آدم وزوجه الطاهرين واستنكره رسول الله محمد ﷺ واعتبره من علامات الساعة. قال رسول الله ﷺ: "ملعون من أبدى عورته للناس" مسند الربيع، (عورة المؤمن على المؤمن حرام) الطحاوي.

٢٦ - يوسف ﷺ في الجب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۝١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ٧ - ١٨].

لم يكن للتربية ولا للبيئة والمحيط، كلا، ولا للوراثة والاصل والفصل والنسل والجد والجدات أثر في ارتكاب جريمة رمي صبي صغير، أخو ضعيف البنية، بريء في جب في صحراء خالية. فهم أحفاد وأبناء الانبياء في ذلك الوقت. فجريمة رمي هذا الصبي، لا يعادلها ويتميز عليها الا الكفر هي جريمة عجيبة، تخالف حتى طباع البشر – وأعراف وعادة الخلق، مهما بالغوا في الانحراف، وما يقدم عليها الا

جبابرة الارض الذين خلت قلوبهم من أي رحمة أو شفقة أو انسانية.

فكيف وهم أبناء بني، وأحفاد أنبياء لم يتعلموا الجريمة وخشونة المعاملة، واحتقار الرحمة والتراحم، ورابطة الاخوة والجيرة والرحم، فهم أمة معزولة منفردة متدينة موحدة تبني بيوت الله، وتعمرها بالصلاة والذكر وتوقف نفسها على نشر دين الله والمحافظة عليه وحب الخير للبشرية؟؟؟ اجماع أخوة عقلاء، أبناء نبي على قتل أخ لهم صبي صغير، سيكون سندهم – ان كبر – في غربتهم، وقلت عددهم. وما جريمته التي ارتكبها الا حب ابيه له، ومحافظته عليه، وتعلق قلبه به، وقدر الله الذي اصطفاه ليكون وارث النبوة. وكل هذا لم يكن بارادته واختياره بل بارادة الله ومما يزيد غرابة الموقف صغر سن هذا الولد والمعروف، وفي حكم طبيعة البشر، وحكم الرحمة والشفقة أن له الدلال والحب، فهو نور البيت وأنسه، وهو عادة مكرم ومحترم في عرف الناس.

فكيف تقلب الموازين، وتتحول الرحمة الى شقوة، والسكن الى شدة، والحب الى بغض؟!؟!

فيكيد المرأ الى أخيه البرئ، ليس لإذلاله أوتحقيره، أو الحاق الاذى البسيط به بل الاعجب والانكى هو أجماع رجال بالغين على قتله والتخلص منه؛ وبأبشع الوسائل وأنكى السبل.

ان للشيطان، على خطره، كيداً مشهوراً؛ ولكنه لن يصل الى هذا الحد، وتلك الجريمة؛ فقد يفتن أمة، أو دول، ولكن باسلوب معهود؛ وذلك لأن كيده مهما عظم وقوي فهو ضعيف كما قال الله رب العالمين: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦].

أما كيد هؤلاء العصبة من أبناء نبيّ الله يعقوب – عليه السلام – فقد فاق غيره وسطر خطورة وسابقة لا يفوقها الا الكفر بالله. ان ابني آدم – عليه السلام – قد اختلفا

فقتل احدهما أخاه فاستنكر رب العالمين الجريمة هذه، وأمر في القصاص في القتلى. ولكن أن يصل الامر لقتل أخ ضعيف وبأخبث الاساليب، وأنكى الصور، وأحط الوسائل؛ سواء بسرقته من أبيه، أو بتعذيب هذا الأب عقود من الزمن وهو ينتظر عودته نبياً على أحر من الجمر. أن قتل هذا الصبيّ هو أهون من رميه في جب موحش مظلم، ومبيته فيه، في تلك الفلاة البعيدة. كيف بهم وقد تركوه وغادروا المكان؛ وهو يستنجد ويصرخ، وقد صموا آذانهم، وأداروا ظهورهم وتحجرت قلوبهم. أين النخوة؟ أين الرحمة؟ أين الشعور بالذنب؟ أين هي رابطة الدم والجنس واللغة؟ أين هي الرابطة الانسانية؟ أين هي الأخوة؟؟؟

لقد غطتها سحب المكر والكيد، وسحقتها عواصف وأعاصير الانانية، وحب الذات، وطمستها براكين وحمم الحقد والحسد. رحماك يا رب! نستعيذ بك من مكر الجبابرة ونحتمي بعدلك من ظلم الظالمين، وطمع الطامعين، وحكم المتكبرين. كيف بهم يقابلون أباً نبياً رحيماً ينقلون له خبر قتل حبيبه، ومعقد أمله في الاصلاح والقيادة ونشر دين التوحيد في الارض. ذلك الأب الذي قال لهم – عندما احتالوا لأخذ ابنه الحبيب – أنه ليحزنني فراقه فكيف حزنه وقد أخبر بقتله وفراقه الدائم؟

لقد عظم كيدهم حتى على الخيال؛ فلا يتصور أنسان، مهما بالغ في التصور ومهما حلق خياله، ومهما نسج له ذلك الخيال من صور الاجرام، وبشاعة المجرمين، وحرارة أتون الظلم والكيد؛ فلم يتخيل ما فعلوه، وهم رجال عقلاء بالغون بذلك الأبن والأب. قد يزين الشيطان للأنسان امراً، ولكن لن يكون بهذا الشكل الفظيع، والجرم الشنيع فقد سكّر هؤلاء المتآمرون أبواب الرحمة والشفقة بل والانسانية، وفتحوا باب التجبر والاحتقار والظلم والتوحش بعملهم الشرير هذا.

ما كان هذا الصبي في سن المحاسبة، حتى ولو كان الأمر أمره، والاختيار أختياره، والخطأ خطأه، فما جريرته وقد أختاره الله من دون اخوته؛ ليرث النبوة وهو أصغرهم؛ فالانتقام من الله الذي أختاره، لحكمة أرادها، ما من ذلك الصبي

الحدث الذي ليس له من الامر شيء. والاعجب من هذا والاغرب أن يشير البعض بأن هؤلاء المجرمين أنبياء، وأنهم هم الاسباط الذين ذكروا كأنبياء في القرآن الكريم وأمامنا من الادلة ما ينفي هذا الرأي:

١- نستنتج من سياق هذه القصة المتكاملة أن الله قد اختار يوسف – عليه السلام نبي من دونهم؛ وهذا محرك أحداث هذه القصة بكاملها؛ ثم سجودهم له في آخر المطاف، مقرين بنبوته.

٢- استمرار عصيانهم وكذبهم، وذلك بقولهم وبعد عقود من أعمارهم، لأبيهم صاحب الصبر الجميل: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ ثم قولهم ليوسف: ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ﴾ وهم لا يعلمون انهم يخاطبون يوسف نفسه.

٣- الاسباط - في اللغة - هم الافخاذ والقبائل، وقد استمرت فيهم النبوة كلما هلك نبيّ خلفه نبيّ بعده. فهذه بعض أدلة نفي النبوة عن أبناء يعقوب الذين أجرموا بحق يوسف"عليه السلام".

ما كان يعقوب – عليه السلام مغفلا وهو نبيّ، بل كان صاحب فراسة وذكاء، وقد أحس بالخطر، وعرف نفوس أبنائه فقد نصح يوسف – عليه السلام – أن لا يذكر رؤياه لأخوته وذلك خوفا وحرصا على حياته من كيدهم، وشكّاً في سلوكهم؛ ولكن لا ينفع حذر من قدر، فقد أسكتوه بقوة كيدهم وخبث بيانهم فانصاع لهذا الأمر، رغم أنه أوجس خيفة من أسلوبهم في الاقناع وتكالبهم على أخذ يوسف – عليه السلام من حماه من حضن أبيه. فقد رأى عليه السلام أن يخمد بعض براكين الكيد في صدورهم ولا يريد احراجهم، واحباط يد الخير التي قاموا بمدها له، وهم عزوته ورجاله في تلك الغربة.

ونعود فنقول لقد أسكته قدر الله وما يريده – سبحانه وتعالى – سيحصل

مهما حاول المرأ درأه والحذر منه. وقد ظن هؤلاء الابناء بكيدهم وكذبهم ستر تلك الجريمة النكراء البشعة؛ ولكن حبل الكذب قصير فقد كشف الثوب السليم من التمزيق كذبهم، رغم احكام خطتهم وعظيم مكرهم. هذا وقد وصف هذه الآيات الكريمة هذا المشهد المرعب المخيف وصفا بليغا دقيقا، يثير في السامع براكين الشفقة والرحمة والحمية.

تُظهر هذه الآيات كيد هذه الشريحة المجرمة الخائنة، ومقدار خطورة الحسد والكره والانانية اذا اجتمعت في الصدر وكيف تسوق الانسان الى اعنف المواقف وأبشع الجرائم. كانت هذه القصة معروفة لدى أهل الكتاب خاصة، ومن أختلط بهم من الناس عامة؛ ولكنها محرفة كباقي القصص القديمة التي يتداولها الناس أما للعظة أو للتسلية تحرفها الاقلام لتوافق أذواق السامعين وتتناقلها الالسن بدون تمحيص ولا دقة؛ خاصة، وان لها علاقة بنقل دين التوحيد بذلك الوقت لبلاد مصر ثم انتقال أبناء اسرائيل اليها مع ابيهم – عليه السلام – وما حصل لهم فيها من عزة وتقدير واحترام بسبب نبي الله يوسف – عليه السلام – ثم من مذلة ومهانة وشقاء حتى بُعث موسى – عليه السلام – وخرجوا منها.

وقد أوصى الله لرسوله محمد بهذه العظات والعبر بأسلوب قصصي مشوق؛ ففضح نفوساً لكشف خفاياها؛ لتجنب أعمالها الشائنة المجرمة، وامتدح أخلاق عالية صابرة، اتصف بها أنبياء الله واحبائه، لتكون أسوة حسنة لمن هدى الله؛ تنير للمتقين طريق الخير والصلاح.

فقد تداول أخوة يوسف، وهم عصبة من الرجال فيما بينهم أمره، وتذاكروا فرط حب أبيه له ذلك الحب الفائق، والايثار العظيم، رغم صغره، وعدم جلبه نفعاً مادياً لهذا الأب، وتلك الأسرة ورغم هذا فله الحظوة والتقدير عند أبيه من دوننا، ونحن الأكبر والاقدر على جلب النفع، ودفع الضرر، ونحن أبناؤه؛ فهذا خطأ ظاهر وحظوة له من دوننا بينة. وسواء كانت باعث هذه الافكار الحاقدة ما

تسرب لهم من رؤيا حدثها لوالده توحي بأنه سيكون وارث النبوة بعد أبيه مؤيدا بالمعجزات الدالة على صدق نبوته. أو كانت لحظوته عند أبيه، وحبه الزائد له، وحنانه الكبير الظاهر عليه حتى أنه لا يستطيع فراقه، أو هي وسوسة الشيطان الرجيم، عدو أولياء الله، المتربص بهم الدوائر ومثير الفتن ليشغلهم عن دعوى الاصلاح والتوحيد ونشرها بين الناس.

أو هي مظهر من مظاهر براكين الحسد الكامنة في نفوس هؤلاء الرجال وأحشائهم تثور كلما وجدت متنفسا لتحرق الاخضر واليابس. أقول: فقد بُنّي على هذه الوسوسة ثم المناجاة الخفية مؤامرة خبيثة، كانت ولا تزال، أعظم وأشهر ما حوى تاريخ البشر من مؤامرة على قتل أخ بريء صغير، وشقاء أب نبيّ على فراق هذا الابن الحبيب الغالي. قال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [يوسف: ٧].

[للسائلين] هم المستوضحون عن هذه القصة المثيرة، يريدون صدق الخبر والقول الحق فيه قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ...﴾.

اذن بدأ الكره والكيد، ضد هذين الطفلين، كونهما من أم واحدة، والباقون من أمهات أخر، والقوة مع العصبة؛ فالقيادة، حسب وحي نفوسهم، يجب أن تكون فيهم، ثم استأنفوا حديثهم بقولهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ومن سياق الحديث نرى ان الضلال المعني هنا ليس الضلال الذي هو عكس الايمان بل هو الحب والايثار والتقدير لهذين الطفلين الصغيرين من أبيهم – عليه السلام – ثم تبدأ بهم الكره والحسد تظهر في مشهد اجرامي، شديد الشر عظيم الخطر، حيث يقول قائلهم: ﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ...﴾ فما وصل الامر للقتل أو الابعاد، الا

وقد نفذ صبرهم، وأشرى شرهم، وما عاد الا التنفيذ. ويستأنف قائلهم، مبررا هذا القتل، وتلك الجريمة، بقولـه: ﴿...يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ ولكن أين الصلاح؛ بعد هذه الجريمة الشنعاء؟؟ فمقياس الصلاح عندهم هـو قتـل أخيهم، كما أن مقياس الضلال عندهم هو حـب أبـيهم لأخـيهم؛ هـذا هـو قلـب الحقائق، وتحكيم النفس الأمارة بالسوء في السلوك والحب والكره. اقتلوا يوسف أو ابعدوه، فينُسى وينفرد لنا المجلس فنأخذ الحظوة عنـد أبينـا، فيصـلح شـأننا، وترفـع مكانتنا، ولامجال لتفضيل أحد علينا أو أثره.

ثم يكشف رب العالمين المطلع على سرائر هذه المؤامرة الدنيئة الفاجرة الظالمة، حيث يقـول أحـدهم: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠].

شنف السامع والقارىء آذانهم لقول هـذا القائـل: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ أمـلاً بوجود معارض بينهم قـد استيقظ ضـميره أو تـذكر أن الله يراقـب ويـرى فـاتقى ولكن، وللأسف قد خاب الظن؛ والا به يأمر بموتة شيطانية لصـبي مـدلل يلقـى في ظلمة جب فيقضي ليلة أو ليالي، وقد لا يطرق هذا الجب أي مسافر، فيكون ذلـك الجب قبر ذلك الصبي المنزوع الثوب، يرتعش خوفا وبـردا، في ظلمـة ذلـك الجـب الموحش. وليس من مؤنس الا أصوات الحيوانات المفترسة، تتعارك على باب ذلك الجب. ثم يكمل خطته مكملاً ان كنتم مصممين على التخلص منه.

ما كانت هذه الحادثة نزوة أو حالة غضب عابرة، بل كانت عن سـبق اصـرار وتصميم؛ فقد ائتمروا في خلوتهم، واتفقوا على التخلص من أخيهم هـذا وسـاروا في التنفيذ بمراودة أبيهم لينفردوا بهذا الصبي المحبوب عند أبيه، قال سـبحانه وتعـالى يصف استعجالهم الفاظ الأمان و الحب والنصـح، وهـم يضـمرون الشـر و الغـدر

والقتل: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ فقد أظهروا بقولهم: ﴿يَـٰٓأَبَانَا﴾ الحب والبراءة وحسن النية، وانتهوا بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ مؤكدين هذه العبارة بان واللام، وقد توسط الآية ما يوحي منهم بالعتاب والاستنكار لشك أبيهم، في سلوكهم نحو هذا الصبي. فمن لا يأمن أبناؤه على أخيهم فمن يؤمن اذا؟

ثم تظهر منهم الفاظ الترغيب والاقناع. وذكُروه بما يحب عادة الاولاد من الخروج للنشاط واللعب ومشاهدة الخلاء، وما فيه من طيور وخضرة، وحيوانات ترعى وتمرح، ويأكدون رغبتهم بادخال السرور على قلب أخيهم هذا، ويطمئنون أباهم وذلك بالمحافظة على ذلك الأخ الحبيب العزيز الغالي!!!.

قال سبحانه وتعالى، يصف اغراءهم هذا: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ...﴾ وكلمة ﴿أَرۡسِلۡهُ﴾ توحي بأنه مكبل الحرية ويريدون اطلاقه، وكلمة ﴿غَدٗا﴾ تدل على سرعة أخذه مادام عند أبيه شك نحوهم، وجملة ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ وما فيها من تأكيد توحي بالاطمئنان.

ورغم كل هذا التطمين والاجتهاد في تأمينه، فقد أجاب هذا الوالد الخائف، صاحب الفراسة والذكاء والنصح لأبنه: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ﴾ فقد حاول التخلص من هذا الأمر والموقف العصيب بأن أظهر لهم مقدار حزنه على فراقه. مادرى – عليه السلام – أن هذه العبارة هي بركان الحقد عندهم، وهي السبب الرئيسي في كرهه والكيد له.

ثم يحاول – عليه السلام – التخلص من طلبهم بعذر آخر وذلك بخوفه على يوسف من وحوش الخلاء على صغر سنه، خاصة وقد ذكر اللعب وما به من لهو؛ فقد

يغفلون عنه فتأكله سباع الأرض. قال سبحانه وتعالى وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون فوجدوا الفرج من تعنت أبيه من هـذه العبـارة، فـأظهروا حسـن النيـة والكثرة وقدرتهم على دفع الأذى والاعـداء. كمـا ذكـروه بصـولتهم؛ وان مـن لا يحمي أخاه فهو خاسر، قال سبحانه وتعالى يصف قـولهم هـذا: ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾.

وكأني بهم وقد على صوتهم، وأظهروا لأبيهم الغضب والعتـب لموقفـه هـذا فأطاعهم رغم شكه وريبته على حبيبه الذي قد كان قد نصحه منهم، ومن كيدهم، فقد حذر يوسف عليه السلام – مسبقا من هذه الحفرة، وذلك حين قص عليه رؤياه. قـال سبحانه: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف: ٥].

قال سبحانه وتعالى في سرد تلـك القصـة ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ ﴾. ساروا به نحو تلـك المراعـي البعيـدة مظهـرين لـه المـرح والسـرور والحب الصافي حتى أختفوا عن ديارهم ونظر أبيهم، قلبوا لهذا الأخ الصبي الصغير ظهر المجن؛ فذهل من التصرف – ولا شك – عندما أنقلب الاخ الى عدو والراعـي الى ذئـب، والانـس الى وحشـة واللـين الى خشـونه والحـب الى كـره والفـاظ الـود والسكينة الى تجبر وهوان.

ثم تأتي ساعة يشيب لها شعر الرضيع؛ اجماع رجال عشر علـى القـاء أخ لهـم بريء في جب عميق مظلم موحش في الخـلاء؛ ولم يكـن ذنبـه الا حـب أبـيهم لـه، واختيار مدبر الكون ورازق الخلق؛ ليكون نبياً. وكأني به وهو يتعلق بهم ويتشـبث في في ملابسهم ويتعلق بثوبه الذي نزعوه عنه ودلوه في ذلـك الجـب، وهـو يصـرخ ويستنجد؛ ينظر في وجووههم وكأنه في حلم مرعب لا يصدق أن هؤلاء هم أخوته

يحدق في تلك الوجوه التي كانت بالأمس، وجوه أنس وأخوة، ويتفرس فيهم طالبا الرحمة، فلعل فيهم رحيما فيرحم أو كريما فيكرم، أو شفوقا فيشفق أو يـذكر مصـير الظالم فلا يظلم، أو مصير القاتل المعتدي فلا يقتل؛ ولكنهـا وجـوه كـدرة، وأنيـاب زرقاء وقلوب متحجرة، وقد انتهت تلك المؤامرة النكراء، وذلـك عنـدما اسـتقر في ظلمة ذلك الجب المرعب.

ولكن لطف الله ورحمته التي وسعت كل شيء، لم تتركه طرفة عين في وحشـته تلك؛ وقد طمأن قلبه مطمئن القلوب، وآنس وحشته، وثبت جنانه، فخشـع مؤمنـاً مستسلما لقدر الله، مُتمسكاً بخالق الخلق الذي نجى جده أبـراهيم الخليـل – عليه السلام – من نار النمرود؛ وجعلها بردا وسلاما عليه. ذلـك الله، الـذي يـدافع عـن أوليائـه، ويحفظ المؤمنين من شر الظالمين المعتدين.

اللهم أحفظنا وكن لنا سنداً معيناً. ثم نترك يوسف – عليه السلام – ليقضي ليلـة في ظلمة ذلك الجب، على صخرة، محاط بماء بارد وبدون قمـيص؛ مـتعلالا بـأنس الله الـذي خلـق السـكينة والرحمـة والأمـان. قـال سـبحانه وتعـالى يصـف رحمتـه ب، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وفي هـــذه البشـــرى: بأنـــه سينبئهم بعملهم المشـين اسـتئناس بحفـظ الله لـه، بـل وأمنـه، وأشـغله في الـتفكير بالمستقبل المشرق عن الواقع المظلم الذي هـو فيـه، ومـا كـان يتصـوره مـن تحقيـق لمعجزته، وذلك لتفسير الرؤيا. وكان هذا التفسير الملهم من الله هو سـبب خروجـه من محنة السجن في مصر، ثم توليه خزائنها؛ فهجرة بني اسرائيل اليها وما ذاقوه من حلو العيش ومره فيها.

قال سبحانه وتعالى، مخبراً عن وقت حضورهم لنقل خبر تلك المأساة لأبيهم فكان ذلك ليلا، والليل ستار؛ ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ....﴾ وسرعة التنفيذ واضطراب الموقف، كشفت بعض أخطائهم عن مكنون كيدهم وافترائهم وجرمهم:

فكيف يوصيهم أبيهم من خطر الذئب ويتركون – كما قالوا – أخاهم لقمة سائغة لهذا الذئب رغم كثرتهم، ثم تقديمهم قميصه وقد لطخ بالدم، ولم يمزق كما هي حال من يأكله الذئب وقد أنتزعوه من عليه ليكون دليل صدقهم، وقد لطخوه بدم كاذب من شاة ذبحوها.

وعند وصولهم بيت أبيهم أخذوا بالبكاء والنواح مظهرين الجزع على ذلك الأخ البريء الذي أكله الذئب – كما يدعون – وهم عنه لاهون حيث تركوه عند متاعهم، لصغر سنه وعدم مجاراته لهم في السبق. وقد لفقوا ذلك الكذب للتخلص من تأنيب أبيهم ليأكدوا موت يوسف.

ثم تذكروا موقف أبيهم، وريبته وشكه فيهم لفراسته ومعرفته لنفوسهم الحاقدة، فهاجموه قبل أن يهاجمهم حيث قالوا له: ﴿...وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ فما دمت لا تثق فينا لا تصدقنا.

قال سبحانه وتعالى، مخبرا عن كذبهم: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ ....﴾ وذلك ليوهموا أباهم بصدقهم، وموت أخيهم. ولكن القميص الملطخ بالدماء الكاذبة، كان شاهداً على كذبهم وذلك لأنه كان سليماً من التمزق: فكيف بذئب مفترس يأكل ولا يمزق!!!

وقد أجابهم أبوهم – عليه السلام – بفضحهم، وكشف مؤامراتهم فقال: ﴿....بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ . فأكد لهم عظم المصيبة في هذه العبارة المؤثرة، وانه يستعين بالله على تحمل فعلتهم هذه. واستعمل كلمة ﴿تَصِفُونَ﴾ لتكذيبهم؛ ولكن بطريقة المغلوب على أمره المحتار العاجز. وما كان الله العادل العزيز، لينسى نبيه المظلوم في غيابت الجب بل أرسل له العون والفرج، حيث أدلى أحد المسافرين دلوه؛ لينزع الماء من ذلك الجب؛ فأنقذه وباعه عبدا بمصر.

٢٧ - أمرأة العزيز تراود يوسف - عليه السلام - عن نفسها

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٣ - ٢٩].

المعروف الظاهر من قصة نبيّ الله يوسف - عليه السلام -. أنها تتعلق بالأسرة والفرد، وبأمراض اجتماعية قد تصيب أفراد الأسرة، فتقطع حبل الصلة بينها وبين هؤلاء الأفراد أو تطغى الأنانية والتكبر، واحتقار القوي للضعيف كما حصل معه عليه السلام وأخوته، وذلك من كيدهم له، حتى وصل به الأمر أن يعيش غريباً عبداً مملوكاً، ويذوق أبوه - عليه السلام - كاسات المرارة مترعة لفراقه وتصل به الحال، لكثرة البكاء عليه أن يفقد الأب بصره. ثم علاقة أفراد بعض الأسر، حاملة صولجان الحكم وما ينتابها من فساد الأخلاق، وذلك من كثرة الرعونة والتجبر، حتى وصل الأمر في مصر أن يقول فرعونهم ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ .

وتصل به الحال والتعسف أن يقتل زوجه أسيا – رضي الله عنها – شر قتلة؛ وذلك لأنها آمنت برب العالمين ، وكفرت بعقيدة فرعون وألوهيته الكاذبة. وهذه أمرأة العزيز تراود عبدها؛ تطلب منه عمل الفاحشة، متمردة على كل الخلق ونظام الأسرة ، ويصل فجورها أن تتهم نبي الله بالفاحشة حتى يصل السجن هروب من ذلك الفساد؛ فالسجن أحب إليه من أرتكاب الفاحشة.

فهذه الآيات البينات فيها من العظات والحِكَم، وتعريف المؤمنين بكيد الأفراد بعضهم لبعض، حتى الأخوة والأبناء والزوجة في بيتها، وأمين سر الحاكم في ديوانه، والظلم الخفي والكذب والفساد والنميمة، واطلاق اللسان لايذاء الخلق وسجن البريء، واطلاق حرية المجرم، واتهام العفيف ومعاقبته والتجني عليه، والخائن يسرح ويمرح.

فهذه الآيات البينات وقصص الحق، تلفت نظر المسلم؛ لتحري الدقة في التهم ونقل الأخبار. فكم في السجن أبرياء!! وكم تلوك ألسنة الناس عرض الاشراف والطاهرين.

فهذا الفصل من قصة يوسف ﷺ تتحدث عن فساد بعض البيوت وذلك بسبب الخلوة بين الذكور والاناث، تلك الخلوة التي نهى الله عنها، وبين خطرها رسول الله محمد ﷺ حيث قال: "ما خلا رجل بمرأة الا وقد كان الشيطان ثالثهما" مسلم البخاري.

فالخلوة خطرها عظيم وفسادها كبير وتجنبها واجب. النظر مدعاة للفتنة؛ فكيف لو تبعتها خلوة ومع شاب جميل غريب مملوك، وأمرأة مدللة، يرفع ذيل ثوبها الجواري والخدم، حكمها مطاع وقولها مسموع؛ اذا كذبت فهي صادقة، وان ظلمت فهي عادلة وان أهانت فهي مؤدبة، وان راودت فتاها عن نفسه فهي شريفة، وهو سيء الخلق وان حاكمته فهي البريئة الحرة وهو مجرم ومصيره السجن، انها سيدة القصر فيه ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين، يأتيه الخير من واد يشتهر

بالخصب، والخير العميم؛ فهي تعتبر كل ما في الارض، هو مطاع وهو طوع بنانها مسخر لها وللذتها.

فزين لها الشيطان الفاحشة، وأطاعت نفساً أمارة بالسوء. ولكنها خاضت معركة مع نبي رضع الخلق الحسن، والتربية العالية منذ نعومة أظافره. ونظرة باستنارة وعمق لتلك العلاقة بينها وبين مملوكها ﷺ، فلابد أن محاولاتها قد تكررت، وبطرق مختلفة حتى وصل بها الأمر درجة حزم هذا الموضوع الذي كان ولا شك يبيت معها فيؤرقها ولا يفارقها نهارا، فتستعمل الشدة واللين والتخويف والاغراء. فما استغلت خلو بيتها، وغلقت الأبواب وجزمت الطلب، وبكل وقاحة وصراحة إلاّ والعاصفة قوية شديدة عنيفة، والخطة محكمة ومدمرة، والقوة المتصارعة غير متوازنة، فأنى لعبد رقيق غريب أن يقف أمام تلك السيدة المتسلطة المدللة، الواجب طاعتها؛ فهي تعتبر البشر طوع بنانها ومسخرين لخدمتها وأشباع متطلبات نفسها الجامحة!؟

فكيف وقد فتنت بمن يسير كخيالها في ذلك البيت؟. فالامتحان صعب والقاضي الآمر الناهي هو المعتدي نفسه، ولا ملجأ من ذلك الكرب العظيم، إلاّ لله العظيم المجير حامي الاتقياء الشرفاء، من تعسف الأقوياء المتعسفين.

كما أجارك في تلك الليلة المظلمة، في ذلك الجب المخيف سيجيرك ويحميك من ذلك الابتلاء، ومن تلك السيدة الهائجة وغريزتها الجامحة، إنه المدافع عن أوليائه الصادقين الصابرين. شاب في ريعان شبابه، مملوك مكبل الحرية، يعمل وهو مكسور الخاطر، يخطب ود أسياده، ورضاهم عليه، مفتوح الأذن مكمم الفم، فلا يعارض ولا يستنكر.

جميل الخَلق عظيم الخُلق، قوي الجسم، نظيف السريرة، الشيطان عدوه، ونفس جامحة فتنت به، ولا مفر من اللقاء ولا راد للمواجهة. رأت سيدته خلوة في بيتها فغلقت الأبواب، وتزينت، وتهيأت للمواقعة، مستعملة كل المغريات قال

سبحانه وتعالى يصف موقفها هذا، ويظهر من هذه المراودة أنها كانت من طرفها ويسند هذا الرأي قولها له ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ وأغلاقها الابواب مسبقا وحدها: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ ولم تذكر هذه الآية أسمها أو أسم زوجها، لاستهجان التصريح باسم المرأة أدبا في هذا الموقف وذكر الابواب الكثرة وهي أبواب قصر فخم كبير، استطاعت أن تخليه حتى تتم الخلوة بأمان وقولها ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ في تلك الخلوة فيها ما فيها من الجسارة والجرأة والوقاحة وعدم المبالاة بالشرف و الخلق و الأدب.

ولكنه النبيّ أبن النبيّ ثابت العقيدة قوي الارادة نقي الثوب، يخشى الله ويتقيه. فكان جوابه الصارم الصريح رغم هيبتها كسيدته وهيجانها وجسارتها، فكان أن قال: ﴿...قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فقد استعاذ بالله ربه وسنده، ومفرج كربه، ثم ذكرها بالقاعدة العامة في عقيدته وذلك بأن الظالم لا يفلح والخائن محاسب وحسابه عسير، كيف يفلح من يخون سيده وصاحب نعمته؟.

كيف وأن هذا السيد هو الذي رباه وأحسن مثواه وأوصى به خيراً وطمع أن يكون أبناً له؛ فالجريمة في خيانته في زوجه عظيمة وكبيرة مع من حفظه من ضياع الرق وذله.

فقد ربط عمله هذا بعقيدته ودينه ومراقبة الله له، فمن يستعذ بالله يؤمن بمراقبة الله له، والله سميع بصير؛ فيحجم ولا يقدم، ويقاوم ولا يستسلم؛ ويغلق أبواب النفس الآمارة بالسوء والشيطان المزين للجريمة، ويستأسد في الدفاع عن دينه وشرفه وأمانتة. ويصف رب العالمين المشاهد الوحيد لتلك المعركة في ذلك البيت المغلق الأبواب، وفي لحظة هيجان تلك المرأة وتهالكها على أرتكاب تلك الفاحشة

التي خططت لها وأحكمت التخطيط فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ لم تقل الآية أنهما هما ببعضهما لتشابه الهم، بل ذكرت اختلاف نوعي الهم،: فهمها أرتكاب المعصية، وهمه - العليه - ردها وصدها عن نفسه ومقاومة نفسه أيضا بتذكيرها بتقوى الله، ووجوب طاعته، الله الذي حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، كما حرمت الطرق المؤدية لها قال سبحانه: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فقد صرفه تقواه وأرادته القوية وشدة مراقبته لله ربه عن الوقوع في تلك الفاحشة ولو كان غير ذلك لما مدحه ربه المطلع على تلك المراودة حيث قال فيه مادحاً له: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فلن يجتمع الأخلاص في العبادة مع تلك الخيانة، ولا يكون هذا المديح العظيم الا للمتقين.

ولو ابتلى بهذا البلاء غيره لانتقل من حديث النفس الأمارة بالسوء للولوغ في تلك الرمة النتنة، وللسقوط في ذلك المستنقع المؤدي الى الضلال والوقوع في المحظور؛ فكل الظروف المحيطة تساعده على ذلك، ولا يلجمه الا تقوى الله ومراقبته والايمان بتلك المراقبة المستمرة الدائمة، حيث خاطب ربه مؤمناً بقربه منه: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

فهو يلجأ الى الله طالب العون والفرج منه وذلك خوفا من كيد النساء، ثم من ساعة ضعف أمام أغرائهن وفتنتهن. فقد استجار بقريب، يجيب دعوة الداعي اذا دعاه. لم تقل الآية الكريمة هذه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ﴾ وهذا دليل واضح بين بأنه لم يفكر مجرد التفكير في هذه الخيانة المفروضة عليه بل صرف عنه رب العالمين تلك الخيانة المهاجمة المغرية له. وما غلقت سيدته تلك الأبواب مسبقا الا وقد عرفت جوابه، وتوقعت هروبه من تلك المعصية وهي صاحبة الذكاء

والفراسة، المتمرسة في السياسة والحكم والتعامل مع الناس من الملأ الى الخدم. كيف وقد جمعت كل ذلك بعد تفكير وأمعان وتخطيط محكم فقد حسبت لكل شيء حسابه، حتى لقدوم زوجها أو غيره من الخارج فهي قد تخلصت من شك زوجها ومفاجأته بقولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ فقد يكون (عليه السلام) قد فكر بدفعها عن نفسه بشدة ولكن هذه الشدة قد تستغلها ضده مُدعية اعتداءه عليها وأهانتها لأمر آخر. فلجأ (عليه السلام) لما هو أفضل وأنسب وهو التخلص منها، ومن عبثها بالهروب وذلك من هدي الله له – ومن يتقِ الله يجعل له مخرجا – وذلك ليصرف عنه السوء والفحشاء ثم وبعد سجنه بضعة سنين رفض الخروج حتى تثبت وتعلن براءته فكان جواب تلك النسوة: ﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾ وقول أمرأة العزيز هذه نفسها: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

وفي هذه الآيات والمواقف تغلق كل أبواب الخيانة ولو مجرد التفكير فيها، وتوحي بعفته واستنكاره للفاحشة، والمقاومة الدائبة خوف الوقوع فيها.

وأكبر شاهدة بجانبه (عليه السلام) هي شهادة تلك المرأة المتحدية المهاجمة أمام النسوة ثم الملك. ويصف سبحانه وتعالى ذلك الهروب من بيت أبوابه مغلقة وهي كاللبؤة تطارد فريستها وأمعانها في اللحاق به وأمساكه؛ فلحقت به وأمسكت بقميصه وبكل عزمها وقوتها ، وهو بكل عزمه وقوته يريد الأفلات فقدّ قميصه من الخلف، حيث يصف الله تعالى هذا المشهد الموحي: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾ وقد يكون هذا الباب الخارجي الرئيسي. والا بمفاجأة وراء ذلك الباب ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ وهنا وبكل سرعة وذكاء تجرم يوسف – (عليه السلام) –

وتتهمه بالخيانة و الفاحشة حيث قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قد حاكمت وأصدرت الحكم ونوعية الجزاء بالهجوم على يوسف – عليه السلام – لتغطية هذه الجريمة الظاهرة وتلك التهمة الملفقة ثم ما تبع ذلك من الأمر بالسجن والعذاب الأليم حتى تشغل زوجها عن السؤال والاستفسار والتحقيق لمعرفة الحقيقة وقد قيل أن الهجوم هو أفضل الدفاع ولم يبق أمام يوسف – عليه السلام – الا كشف الحقيقة لزوجها. وهو دفاع مشروع، لا تشهير بسيدته فقال عليه السلام: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ والملاحظ تقديم صدقها حتى عند من حكم في تلك القضية رغم حكمه النزيه.

وقد هدى الله من شهد الى جانب يوسف – عليه السلام – فكان للقميص موقفين كشاهد لجانبه عليه السلام، فهو الذي فضح أخوته لأنه غير ممزق، يوم قالوا لأبيه أكله الذئب، وهنا وقد قُدّ من الخلف أثبت براءته. وكما وقد كان له حديث عندما أرسل القميص لأبيه فعاد أبيه بصيراً بعد العمى. ونرى الحكم صدر من ذلك العزيز الحاكم على زوجه الخائنة وترى اللين وكما هي العادة عند أصحاب القصور، المهم عندهم عدم نشر هذا الخبر عند الناس وستره حيث قال: سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾.

فقد وصف كيد النساء بأنه عظيم ومقارنة بكيد الشيطان؛ حيث قال سبحانه وتعالى فيه ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ ونرى هذا الزوج الحاكم القوي وهو

يطلب من يوسف عليه السلام أن يستر ولا يذكر ما حدث للناس؛ فالفضائح الجنسية عند هذه الطبقة قديماً وحديثا أمر عادي والشواهد كثيرة؛ وكل ما طلب منها الاستغفار عن هذا الذنب. وهل أنتهى الأمر عند هذا الحد؟ لا بل تعداه كيداً وتحدياً عند تلك المرأة المدللة المتسلطة حيث تقول وبكل وقاحة للنساء: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

ياهول المصيبة ويا لقلب الموازين والاخلاق!!! سيكون عليه السلام من الصاغرين الأذلاء إن لم يرتكب الفاحشة.

فهي لا تهتم لألسنة المجتمع الحادة المنتقدة، ولا لما يتناقلها الناس عن قصتها مع فتاها، بل هي متحدية الجميع، بمجاهرتها للمعصية والخيانة الزوجية، وهذا يدل على انتشار وباء الخيانة الزوجية والفاحشة من تلك الطبقة من الناس حتى أنها لا تبالي بارتكابها. فكيف بيوسف الغريب الرقيق أمام هذا البركان الثائر والشهوة الجامحة من قبل سيدة هذا القصر الذي أجبر على طاعتها وخدمتها؟ فكم هي أحتقرته وآذته، وحملته مالا يطيق من الاعمال الشاقة انتقاماً من موقفه هذا!!.

وكم استهانت بانسانيته، وأفكاره الصحيحة القويمة واستنكاره الفواحش وهو النبّي الأديب التقّي ورغم هذا كان من الصابرين حتى أوصله كل هذا أن يطلب السجن وما فيه من العنت والإحتقار والعذاب وكبت الحرية.

٢٨- الهروب من الموت

بسم الله الرحمن الرحيم

قال سبحانه وتعالى ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ ﴾ [البقرة: ٢٤٣- ٢٤٥].

الجهاد من فرائض الاسلام الثابتة بل هو سنام الاسلام، وأجر المجاهد عند الله أعظم أجر، وبالجهاد ينشر الدين، وتحمى الثغور، والارض الاسلامية والمقدسات وبه تعز الأمة، وتحطم الحواجز المادية المانعة من وصول الاسلام للناس. هذه القصة بل العظة هي مقدمة لأمر الله لفرض الجهاد على المسلمين، وهي النور الذي ينير للمجاهدين طريق النصر، ويثبتهم ويحميهم من وسوسة الشيطان الرجيم.

فعندما يؤمن المجاهد أن سبب الموت هو أنتهاء الأجل، وان الاقدام و الهجوم على العدو والثبات والمواجهة لا تقرب أجل وان الفرار والتولي لا يزيد ساعة من العمر ان انتهى الأجل.

فكم من قائم في الصفوف الاولى في مواجهة العدو أطال الله عمره، وكم من ساكن في غرفة حصينة قد أنتها أجله فمات على فراشه.

وهذه القصة كانت من الشهرة عند أهل الكتاب، ما يجعلنا نتصور مشهدها أمامنا. فقوم فروا من لقاء العدو أو مرض معد كالطاعون يتسابقون ويطلبون

النجاة تاركين وراءهم أموالهم وأوطانهم وحرثهم وحتى الضعفاء منهم لا يلتفتون إلى شيء لا يشغلهم إلا النجاة بأرواحهم من الموت فيأتيهم الموت الرباني بموتهم جميعا وهم كُثر، ثم يأتي الأمر باحيائهم جميعا كنفس واحدة. وهذه العظة البليغة، قد وضحت وبكل بيان أمر الحياة و الموت ليقدم من تحدثه نفسه بالاحجام؛ مادام الله محيطا بالجميع وهو صاحب الأمر والنهي؛ وبيده الأجل.

وهذا لا يخالف التداوي والحذر من الامراض المعدية قال رسول الله عن مرض الطاعون المعدي عن عبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه – قال رسول الله: "اذا ظهر الطاعون بأرض فلا تدخلوها وإن كنتم فيها فلا تخرجوا منها" رواه أحمد.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾.

وقد بدأت هذه الآية الكريمة باستفهام استنكاري يظهر فيه التعجب من هؤلاء الذين تركوا ديارهم خوفاً من الموت الذي لا شك حاصل مهما طال العمر. والخطاب للرسول محمد ﷺ لنقل هذه الصورة لأمته تحذيراً لهم من موقف مشابه وهذا التحذير والتنوير من فضل الله على الأمة، أمة الجهاد والقتال والعزة، وتقديم الشهداء عبر التاريخ. وهذا التنوير لأمة الاسلام الماجدة حتى لاتقع فيما وقعت فيه الأمم السابقة.

فهي تربية أختصت بها أمة الاسلام عن طريق قرآنها المجيد البين الواضح الآيات والأحكام؛ تتلى ليل نهار من أخذ بها وعمل نجا ومن أهمل أمرها هلك، فأمة الاسلام ليست كالأمم السالفة التي أدارت ظهرها لكل صلاح وعظات بل أمة تعتبر كتاب الله دستورها الذي يحفظ عليها نظامها وينير لها السبيل القويم.

وفي هذه الآية حل لمشكلة تهتز منها جبال راسية ويحتار فيها الفهيم والحكيم وهي الوقوف الحائر أمام طريقين صعبين: إما الهروب والتولي عن الموت سواء في المرض أو القتال أو الثبات والايمان بحكم الله والرضا بقدره وذلك لأن الموت هو انتهاء الأجل ولا يأخره فرار ولا يقدمه اقدام، قال سبحانه وتعالى مشجع المؤمنين المجاهدين على السير في هذا الطريق: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٧].

فالموت في سبيل الله جزاءه المغفرة التي يصبو اليها كل مسلم وهي منتهى أمانيه.

والواو في كلمة ﴿يَجْمَعُونَ ﴾ ترجع لمن تقاعس وانشغل في الدنيا وحطامها عن الجهاد في سبيل الله. قال سبحانه وتعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فقتال الاعداء والموت في سبيل الله، ذلك دعوة للحياة الدائمة المتجددة لا لتاريخ عبر وانقضى. وقد سبقت هذه الآيات بآيات تأمر بالمحافظة على الصلاة المكتوبة في القتال والحروب وفي السلم: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

والموت والحياة بيد الله وأمره نافذ؛ والحذر لا يحمي من القدر؛ فيجب الشكر الدائم للفضل الدائم، والصلاوات الخمس هي من الشكر الدائم للخير الدائم من رب العالمين. فالويل كل الويل لمن تخلى عن الشكر وغفل عن السبب الحقيقي لوجوده وعافيته، ونعم الله عليه؛ ومن تخلى عن الشكر توجيهه لغير الله كالشرك بالله فالله هو المتفضل على المخلوقات ومنها الأنسان يحافظ على كل خلية

في جسمه، المتوكل بتلك المصانع، والتي يعجز علماء الارض عن ترميمها أو ترقيعها، فكيف بايجادها من العدم.

ثم تنتقل هذه الآيات لبيت القصيد في هذا الموضوع، وهو وجوب قتال الأعداء الذين يقفون حائلا بين الشعوب، ودين الله تلك الحواجز التي تمنع نور الايمان أن يصل العقول فالقلوب، والأمر بالقتال الصادر عن صاحب الأمر والنهي، الله المتعال لا يوقفه ويمنعه رأي عالم ولا قول حاكم؛ وقد وضح السبيل وعرفت الأمة لمن تسمع ومن تطيع؛ ولاطاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وقد حدد رب العزة نوع القتال؛ فهو القتال الذي يراد به وجه الله واستجابة لأمره، لا قتال الرياء والسمعة، فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا في سبيل الله. ثم يأكد – سبحانه وتعالى -؛ أنه يسمع ما يدور بيننا حتى لو كان بين أنفسنا، وعلم المخلص منا من المنافق فهو العالم بأحوالنا ونياتنا وكلمة (عدو) في هذه الآية تبين أطلاعه على السر والخفايا، وعلى النيات والدوافع للجهاد. فهو الرب العادل؛ لا يقبل الا العمل الصالح والله موجود في ساحة القتال؛ يسمع ويعلم، وقد أمر بالاقدام والثبات وعدم التولي والفرار.

ثم تنتقل بنا الآيات الى نوع آخر من الجهاد: وهو الجهاد بالمال قال سبحانه وتعالى مشجا ومحرضا للمسلمين على الانفاق والنفقة على الجيوش؛ لسد الثغور وتحطيم حصون الاعداء بكل قوة ومنعة؛ فجيش سنده أمة لهو قوي منتصر: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةًۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾. وقد ربط – سبحانه وتعالى بين الأجل والرزق؛ فكلاهما بيد الله. وقد حدد لنا وبكل دقة، وسائل الرزق الحلال وأمرنا بالاخذ بها، وأمرنا أن نتجنب وسائل الرزق الحرام، ويأمرنا – سبحانه وتعالى – في سبيله وعدم الخوف من الفقر كما يعتبر النفقة فرضا لتنظيم وتعليم بعض النفوس الشحيحة.

ثم بين – سبحانه وتعالى أنه القابض الباسط حسب تدبيره وتقنينه فلا حرمان ولا بغي فالصدقة وضع المال في خزانة أمينة عند الله والأجر عظيم.

ونذكر هنا موقف لأحد الصحابة الأجلاء وذلك عندما سمع هذه الآية الكريمة واستفسر عن معناها من الرسول ﷺ "كيف أنه أختار أفضل ما عنده من المال وهو بستان فيه ست مائة نخلة؛ فقدمه صدقة في سبيل الله: جاء أبو الدحداح الى الرسول فقال يا رسول الله أو يريد الله منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح قال: أريني يدك يا رسول الله فناوله يده فقال: اني قد أقرضت ربي حائطي، وكان فيه ست مائة نخلة ثم جاء يمشي حتى أتى ذلك البستان، وأم الدحداح فيه مع عيالها، فناداها!! قالت لبيك!! قال: أخرجي فقد أقرضت ربي حائطي فقالت: ربح البيع يا أبا الدحداح ثم خرجت مع أولادها". هذه مواقفهم – رضي الله عنهم – وهكذا كان التطبيق لشرع الله ولنا في صحابته في تجهيزهم لغزوة تبوك الأسوة الحسنة فقد قدم بعضهم كل ما يملك وآخر بعض مايملك وثالث جهز ثلث الجيش وهكذا....

فكان الجهاد بالمال يسير مع الجهاد بالنفس، واعداد القوة يرافق أعداد الجيش. مضاعفة هذه الصدقات لاحدّ لها عند الله الكريم المعطي الرحيم. وكلمة ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ تشهد على كرم الله، فالكثير عند الله لا يقاس بمقاييس البشر وقد اشترط في هذا القرض أن يكون ﴿حَسَنًا﴾ أي حلالا حتى يقبل عند الله المطلع على السر وخفايا وكلمة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيها الوعد بسداد هذا القرض. ومن أوفى بعهده من الله فالسداد مضمون والربح حاصل، ورضى الله فوق الكل: فالستبشروا أيها المتصدقون الكرماء، وليعلم الناس أن المتصدق هو الرابح، والمجاهد هو الرابح وأن الخاسر هو من لفته هذه الدنيا بلهوها وزينتها وغرورها واتبع الشيطان الرجيم.

وهذه الايمائات الايمانية التربوية لأمة الاسلام نحـن اليـوم في مسـيس الحاجـة إليها أمام عقائد الكفر وحب المـال والتهالـك عليهـا وحـب الحيـاة الـدنيا وتغـيير المقاييس عند البشر واختلاف الآراء والاتجاهات. وفي هذه القصص والعظـات مـا فيها من تنوير الأمة لترجع الى الطريق السوي، ولا تغـتر بأفكـار ومقـاييس الكفـار من مقاييس الشيطان وحزبه.

٢٩- الملك طالوت والجهاد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم

بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦ - ٢٥١].

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾ الحديث موجه للرسول محمد وأمته؛ عظة وتركيز بوجوب طاعة أولي الأمر والانبياء والقادة، وبدون معارضة ولا مناقشة ولا تخاذل على النص الشرعي فهذه الآيات تذكرنا بقصة فرض الجهاد الذي طلبته بنو اسرائيل، ثم أخذت تتلوى وتأتي بالأعذار الواهية للتخلص من هذا الفرض المعز لكل أمة تأخذ به وتحافظ عليه وتصبر رغم ثقله. فيأمرنا الله تعالى بتجنب أقوال وأفعال وأعذار بني أسرائيل ومواقفهم الذليلة الخارجة عن سير الشرع المستقيم. ومعارضتهم لكل موقف فيه خيرهم وعزتهم. ثم التولي يوم الزحف والجبن عند مواجهة الاعداء كما قالوا لنبيهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤].

فقد طلب أولو الحل و العقد عندهم من نبي لهم، أن يختار لهم ملك أن يقودهم الى القتال و الجهاد في سبيل الله وذلك في فترة ما بعد موسى عليه السلام. قال سبحانه وتعالى: ﴿.....ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وقوله ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ توقع جبنهم فستعمل ﴿هَلْ﴾ مُستفهماً عن طلبهم هذا وللتقرير أيضا.

فرد عليهم نبيهم ذاك - وهو الخبير في سلوكهم وفساد نياتهم، أنهم يقولون مالا يفعلون – ألا تخافون العصيان والتولي والهروب من القتل. فأجابوه وبكل حماس ان دواع القتال والجهاد موجودة: وقد أخرجنا الاعداء من أرضنا وديارنا، وأسر أبناءنا ونحن أذلاء صاغرون؛ فموجبات الجهاد موجودة عندنا. قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وقد حصل ما توقعه نبيهم (عليه السلام) فقد تولوا خوفاً من الموت وقد عصوا وظهرت نياتهم وظهر خورهم، ونقضوا ما عاهدوا عليه من ثبات وصبر الا بعض المؤمنين الصابرين وهم قلة في ذلك الجمع.

كل هذا بعد ما استجيب طلبهم وفرض عليهم القتال حسب طلبهم قال سبحانه وتعالى ﴿...وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ...﴾ والله عليم بأخلاقهم، المطلع على نياتهم وظلمهم. فختتمت هذه الآيه بهذا التذييل الذي أريد به الوعيد والتقريع، وفضح سلوكهم وتعريتهم أمام البشرية عبر التاريخ.

فالذين عاهدوا الله ثم تولوا وانقلبت نياتهم وتناقضت أقوالهم مع أفعالهم. هم الظالمون.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾؛ فقد أجابهم نبيهم على طلبهم بأمر ربه قال لهم: ان الله قد اختار لكم ملكا منكم لا من غيركم وهو طالوت ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ ولكنه من عامة الشعب.

فاعترضوا على تملكه عليهم لسوء وظلم مقاييسهم وبعُدها عن العدل والصحة؛ وكان اعتراضهم أولا: لأنه ليس من بيت الملك عندهم، وثانيا أنه ليس

من أهل المال والثراء. وهذان هما مقياسا الأمارة والملك عندهم. فكان الرد: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ هذا رد نبيهم عليهم ذلك لايقاف تلك الفتنة وذلك النقاش فيها، ان الله قد أختاره ولا مجال لرأيكم واختياركم ومشورتكم؛ ثم بين لهم ميزات هذا الرجل المختار دون غيره موضحا القاعدة الصحيحة في أختيار القادة والأمراء وهي التقوى والعلم في شؤون الحرب والقتال، والارادة القوية والعقل السليم المستنير، ثم الجسم القادر على مواجهة الاعداء، قوي الدين والبدن، له هيبة وعظمة في النفوس وهذه الصفات كانت موجودة في هذا الملك المختار الذي أصطفاه ربه وهو العالم بحاله ليكون قائدا لقومه وقد تقدمت صفة العلم على قوة الجسم لأهميتها في القيادة ﴿...وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾. ثم بين لهم نبيهم وقف الكلام والمناقشة في أمر هذا الملك المختار أن الله بيده الملك ويؤتيه لمن يشاء من خلقه وهو الفعال لما يريد؛ هو العالم بسلوكهم وقلبهم الحقائق وتحكيمهم الهوى واتباع الشيطان وفسقهم وتعنتهم وقطعت هذه الآية دابر فتنتهم واعتراضهم وترددهم ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع الفضل عظيم العطاء عليم بمن خلق؛ وبمن هو أهل لهذا الفضل وجدير بالخير.

قال سبحانه وتعالى مبيناً دليل قوة هذا الملك وتأييد الله له: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ وهذي علامة أختبار الله له، ان يرد لكم ذلك التابوت أيام عزتكم؛ وقد استولت عليه الأعداء لضعفكم. قال سبحانه وتعالى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتثبيتكم في القتال وتأييدكم بالنصر. قال سبحانه وتعالى ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ في هذا التابوت بعض آثار أنبيائكم السابقين، كألواح التوراة وعصا

موسى وبعض ثيابه وبعض آثار هارون؛ وهذا التابوت كما روي كان قد أستلبه الاعداء لضعف وجبن بني اسرائيل؛ فوعدهم نبيهم هذا أن الملك طالوت سيأتيهم بهذا التابوت الذي فيه سكينة لهم عند القتال لتثبيتهم وان الملائكة هم الذين سيحضرون لهم هذا التابوت دليلاً على إختيار الله لهذا الملك وتأييده وتوفيقه ومساعدته لهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وأحضار الملائكة لهذا التابوت المقدس المبارك دليل وآية لتأييد مُلك هذا الملك المصطفى فإن كانوا مؤمنين حقا سيسيرون تحت أمرة هذا الملك المختار، وهذا التذييل لهذه الآية الكريمة فيه بعض الوعيد والتهديد لهم وتشكيك في نواياهم لربطه سبحانه وتعالى كل هذا بايمانهم بالله حيث قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وفي هذه الآية من التكريم وتثبيت وزيادة اليقين والبشرى لأرجاع ذلك التابوت المقدس وربط عقيدتهم بأنبيائهم وكتبهم ما فيه من العزة والرفعة خاصة وأن هذا التابوت المبارك ستأتي الملائكة لتحمله لما فيه من شرف وعلو.

ورغم هذا التكريم فقد وجد مَنْ تخاذل وتردد بل وعصا أمر هذا الملك المختار وخالف أمره وتنصل من وعده وتولى وهم الاكثرية الساحقة – قال سبحانه وتعالى – مبيناً كيف عرف هذا الملك الطائع من جيشه من العاصي والمخلص من المنافق وقد أختبر جيشه بشرب الماء من نهر سيمر عليه ذلك الجيش في ساعة عطش ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وسار هذا الجيش بعد أن شاهد تلك الآيات الدالة على تأييد الله لهذا الملك القائد وخرج عن العمران وطلب الماء للشرب قال لهم هذا الملك ستمرون بنهر فمن يكرع منه شرباً فلن يصاحبنا في

حربنا هذه ومن يغترف منه قليلا فهو منا، وهذا اختبار لمعرفة الطائع منهم من العصي. واستعمال كلمة ﴿لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ﴾ لعدم تكرار كلمة (لم يشربه) – والعلم عند الله – وأما كلمة (الكرع) فهو الشرب من الماء بلهفة بالفم مباشرة كشرب الحيوان.

والإغتراف باليد في الشرب هو سنة عندنا: عن أبن عمر رضي الله عنهما قال: مررنا على بركة فجعلنا نكرع فيها فقال رسول الله: "لا تكرعوا ولكن أغسلوا أيديكم ثم أشربوا فيها فانه ليس أناء أطيب من اليد" رواه بين ماجة.

وقد كرع غالبية هذا الجيش من ذلك النهر مخالفين أمر نبيهم، فما جاوزه الا القلة، وهم الذين حاربوا الاعداء الذين كانوا أكثر من المؤمنين عدداً وعدة، قال سبحانه وتعالى– مبشرا المؤمنين الذين يعتبرون أن النصر بيد الله، وبتأييد وتوفيق منه، لا بكثرة العدد والعدة ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. ولما تراءت الفئتان قال بعضهم لا طاقت لنا بهذا الجيش اليوم العظيم القوي العدد والعدة، فرد المتقون المؤمنون بنصر الله الفئة المؤمنة، فأمر النصر يتعلق بالصبر والجَلدَ والثبات والايمان، مربوط بتوفيق الله، وان النصر بيد الله فقط وهذا وعد من الله أن يسند ويعين الصابرين وأن لا يخذلهم. وهذا ما لا حظناه في جيوش الموحدين المسلمين عبر التاريخ في معركة اليرموك المشهورة الفاصلة عندما التقى الجمعان المسلمين والروم قال أحد المسلمين عندما رآى كثرة الروم وقلة المسلمين: ما أكثر الروم!! وما أقل العرب!!.

فرد عليه قائد الجيش الاسلامي خالد بن الوليد: بل قل ما أكثر العرب وما أقل الروم فالكثرة بالصبر والثبات. قال سبحان وتعالى: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ كما قال سبحانه وتعالى ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾.

قال أبو الدرداء في نفس الموضوع إنما تقاتلون بأعمالكم، ومعنى هذا اذا تساويتم في ارتكاب الآثام مع عدوكم، وهم متفوقون عليكم في العدد والعدة فلا تلوموا الا أنفسكم اذا انهزمتم ذلك بخروجكم عن القاعدة؛ بسيركم طريق الفساد والشر. لقد وضحت هذه الآية وثبتت في أذهان المسلمين – وعبر تاريخهم المجيد أن النصر بيد الله وباذنه فثبتوا في حروبهم أمام أعدائهم، فنالوا النصر، واتسعت رقعة العالم الاسلامي؛ ونشروا دين الله في المعمورة.

وكانت هذه الآيات دافع لهم في الثبات و الصبر، فنالوا رضا الله والعزة في الدنيا و الآخرة. قال الله تعالى – يعلمنا الدعاء والاستعانة به على لسان المؤمنين في تلك المعركة حيث قالوا: ﴿...رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾. فهذا رسول الله ﷺ قدوة المسلمين، يدعوا الله يوم بدر رافعا يديه، بطلب العون من الله حتى سقط رداءه عن منكبه، وكان ﷺ يقول اذا لقي العدو: "اللهم اني أعوذبك من شرورهم، وأجعلك في نحورهم" رواه أبو داوود وأحمد.

قال سبحانه وتعالى – مبينا فضله على نبي الله داود – عليه السلام – خاصة وعلى المؤمنين من بني اسرائيل عامة: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ﴾. فقد نسب – سبحانه وتعالى – هزيمة الاعداء الى نفسه، وأنها باذنه، تعالى؛ ونصر الله المؤمنين الصابرين المتقين، وهزم الاعداء العمالقة الكافرين، وقتل داود جالوت، وأصبح بيده الملك

والنبوة، وذلك بفضل الله وعونه، ثم وهبه الله علم صناعة الدروع، وهذه من أهم عدة القتال، فأعز الله به بني اسرائيل، ونشطهم للاعتماد على النفس، ودفع الاعداء.

قال – سبحانه وتعالى – مبينا أهمية الجهاد في عمارة الأرض، وحماية أهلها من الشرور والفساد ﴿...وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ...﴾.

ويتم هذا الدفع بطاعة الله، والسير على شرعه، والتمسك بهديه، وسد الثغور بالجند، والنية الصافية الصادقة في الاعداد والقتال، والتدريب الواعي، والثبات الدائم، وبهذا يدفع شر وفساد المفسدين، وعبث العابثين؛ وكل هذا من فضل الله على المؤمنين، بتوفيقهم على السير بطريق الفلاح وعلى الخط المستقيم الذي أمرنا الله بالسير فيه، فمن سار فيه من العالمين فقد نجح وافلح، ومن أخطأه وتجنبه جاعلا هوى النفس هو دليله؛ فقد فسد رأيه فأوصله دار الهلاك في الدنيا والآخرة. قال سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢] وقد ختمت هذه الآيات البينات بشهادة الله تعالى لرسوله محمد ﷺ بأنه رسول من الله، وقد أكد هذه الشهادة ب (أن) وبحرف اللام في (لمن) ثم أهمية هذه الآيات الصادقة المكذبة لتلك الروايات الملفقة.

ثم تأتي أهمية تلك الآيات البينات في توضيح أختيار القادة والأمراء والحكام الذين أعزّ الله بهم وبقيادتهم جيوش المسلمين في أصقاع المعمورة، ونشر دين الله عبر التاريخ. وان هذه الجيوش هي المجاهدة الصابرة المطيعة لأمر القادة العظماء، المطيعة لأمر الله – الآمر الناهي – في الثبات ودفع العدو. فتحمي البلاد و العباد من كيد أعداء الله، بل تفتح حصونهم، وتدك أسوارهم ليدخل نور الاسلام مدنهم، وينير قلوب شعوبهم، وتحطم تلك القيود والاغلال التي تذل تلك

الشعوب المغلوبة على أمرها؛ حيث تدفن طاقاتهم، وتكبت حرياتهم. وتظهر أهمية التقوى والصبر في ساحات القتال: فليس الأمر بكثرة الجيوش، وتقدم الاسلحة وعظمها، بل والثبات والسكينة ونصر الله.

وهذه القصة هي لتثبيت فرض الجهاد في نفوس المسلمين، والعمل بأمر الله، والتفاؤل بنصره، وأطاعة أمر القادة في الاعداد، وفي ساحة المعركة وعدم الاختلاف، وعدم التولي يوم الزحف.

وفيها وصف القادة من جهة خالق الخلق، ومدبر الكون... لا من جهة الأصل والنسب، والثراء والمال؛ بل الأخذ بالحكمة، والقوة البدنية، وحسن الرعاية والسياسة، والشجاعة والتقوى.

٣٠- حب الله ورسوله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٤ - ٢٧].

الروابط القوية المتينة التي أمرنا الله بالتمسك بها، والثبات عليها، هي حب الله ورسوله، والجهاد في سبيل الله. ومن أطاع الله ورسوله فقد أطاعهما في السراء والضراء، في الحرب والسلم، ولا يخالف المحب المحبوب؛ بل يطيعه بقلبه وقناعته ونيته وعمله؛ فأمره نافذ ظاهراً وباطناً، وقوله هو المسموع في جميع الأحوال، وأمره المطاع ان تعارضت الأوامر، وتعاكست الرغبات؛ فقد سكرت الأبواب الا باب من يحب، وتعطلت الرغبات الا رغبة محبوبه؛ فهو يسير طائعا حسب ما يميله عليه محبوبه هذا.

وقد فصلت هذه الآيات وبكل وضوح وبيان وشائج القرابة وما ترغب فيه – عادة – النفس الانسانية، وما تقدمه من نصرة لهذه الروابط، ولكن مشرع الشرع،

وخالق تلك الروابط والحب، أمر سبحانه وتعالى: اذا تعارض حب هذه الاشياء وما يربطنا بها من وشائج أن نقدم رابطة حب الله ورسوله والجهاد في سبيله على غيرها.

قال سبحانه وتعالى: مخاطبا المؤمنين، ومحذرا لهم من موالاة المشركين ولو كان من أقرب الاقرباء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣].

فهذا انذار لكل مؤمن: من فتح قلبه وكشف سره لأقرب الأهل نسبا وهم مصرون على الكفر أن يعرض عنهم لأنه ليس من سربهم. وقال سبحانه وتعالى – مبينا مصير هذا الذي صار بغير سربه وقدم حب الأهل على حب الله ورسوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣].

والضمير في كلمة ﴿مِّنكُمۡ﴾ يعود للمؤمنين مهما بعدت أو خرجت بهم الأزمان والأوطان وهذا

أعلى أنواع التهديد وسواء كانت الولاية بكشف أسرار المؤمنين لهم، أو اطاعة أمرهم، واتخاذ بطانة منهم أو التودد لهم. وقد افتتحت هذه الآية بخطاب الله المؤمنين عامة، ولا دليل على تحديدها واقتصارها على سبب النزول: والعبرة هنا بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب الذي نزلت فيه. فهي عامة في كل زمان ومكان حُكم فيها لكل حادثة مشابهة الى أن يرث الارض ومن عليها خالقها فاذا تشابكت المصالح فمصلحت المسلم مع الشرع، مع حب الله ورسوله، يقدمها المسلم على حب الآباء والأبناء ان تمسكوا بمبدأ الكفر؛ فيجب هجرهم وقطع ما يربطنا بهم لأنهم نجس، وهم في صف الشيطان وحزبه. قال ابن عباس – رضي الله عنهما –

في هذا الأمر: "هو مشرك مثلهم؛ لأن من رضي بالشرك فهو مشرك". وكذلك من دافع بالقول، أو العمل عنهم ، فهو منهم.

إذن اذا تضاربت المصالح، واصطف الصفان؛ فمصلحة المسلم مع المسلمين، ولو آذى في هذا الموقف الأهل والأقرباء. ولأهمية هذا الموضوع، وصلته بمصدر الدفع للعمل عند الانسان، وهو الحب، كان التفصيل والبيان الواضح في خطاب الله لرسوله ﷺ، ليبلغ المسلمين خطورة هذا السلوك بكل تهديد ووعيد؛ لمن يتخلف عن الهجرة لأي سبب من الأسباب المذكورة في هذه الآية الكريمة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ...﴾. فحب الأهل أمر فطري في الأنسان، ولكنه ان تعارض مع حب الله ورسوله، فتقطع وشائجه. فكيف وهم من أهل قريش أهل الايلاف، والرابطة القوية المتينة المفضلة على غيرها التي امتدحها الله في سورة قريش؟ فكيف و العشيرة هم سدنة بيت الله الحرام؟ وكذلك حب المال والتجارة الآمنة التي تقطع الجزيرة شرقاً وغرباً؛ لا يتجاسر عربي الاقتراب منها والاعتداء عليها زيادة على أن مكة هي أعظم سوق تجاري في الجزيرة، في ذلك الوقت؛ وفي هذه الهجرة حرمان للمسلم من هذه التجارة الرابحة. وكذلك المسكن المريح بقرب بيت الله الحرام، تأتيه الثمرات من أقطار الأرض؛ دعوة نبيّ الله ابراهيم – عليه السلام –.

ففي هذه الأصناف التي ذكرتها الآية الكريمة، مجال للحب والتمسك بالعيش تحت ظل خيمة المشركين في ذلك الوقت ولكن حب الله ورسوله فوق كل حب، والجهاد في سبيل الله مقدم لعظم الأجر على غيره من مفاتن الحياة الدنيا، وقد وضحت هذه الآية المباركة نوعية هذا الجهاد، فهو في سبيل الله لا لمصلحة دنيوية؛

ولا للشهرة والشجاعة، بل لنشر دين الله قال سبحان الله تعالى: ﴿...أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ ...﴾.

قال الله – سبحانه وتعالى معلنا، وبأعلى أنواع التهديد والوعيد، والتلميح بالعقوبة العاجلة أو الآجلة:﴿...فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ...﴾ أي أنتظروا أمر الله بهزيمة أو الموت أو العذاب الذي أصاب الأمم المعاندة الخارجة عن طاعة رسولهم، المقاومة لدعوة التوحيد.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿... وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ فتذكرهم هذه الآية الكريمة، بالاثم الذي ارتكبوه حتى حرموا من الهداية، وهو الفسق؛ بالخروج عن جادة الايمان والصواب، والسير وراء سراب الشيطان المؤدي الى غضب الرحمن، حتى الوصول الى باب جهنم، وساءت مصيرا.

ثم يبين سبحانه وتعالى. أن النصر دائماً وأبداً كالرزق هو بيد الله، المعز المذل، لا بقوة عدة، ولا بكثرة عدد، وما علينا بعد الاعداد التام الا التوكل عليه، سبحانه وتعالى وقد أعطى مثالا للمسلمين، وعظة وذكرى، بمعركة حنين، حيث أتكل المسلمون على كثرتهم، فما تجمع – قبل ذلك – لهم جيش أكثر عددا وعدة من ذلك الجيش؛ فاغتروا بهذه الكثرة، خاصة وقد أنضم اليهم رجال قريش المعلومة شجاعتهم، المعروفة شوكتهم، المعهودة سطوتهم ولم يرجع بعضهم سبب النصر لله تعالى كما يجب وقد ذكرهم – سبحانه وتعالى – بنصره لهم في أماكن كثيرة، وبمقارنة بمعارك أخرى سبقتها وكان عدد وعدة المسلمين قليلة ضعيفة أمام عدوهم؛ ورغم هذا نصرهم الله الذي بيده النصر. قال – سبحانه وتعالى – يصف منظرهم وحالهم تلك: ﴿ ... لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ

﴿ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴾. وقد أدبرت الكثرة، ولم يثبت مع رسول الله، غير القلة، لا تزيد عن المائة؛ وقد تراجع الجيش الاسلامي استجابة لنداء الرسول ﷺ، وتذكرهم بالثبات، وبالعهد الذي قطعوه على أنفسهم بالتولي يوم الزحف. حتى كان النصر لهذه الفئة التي ثبتت مع رسول الله رغم قلتها فما تراجع الجيش إلا والاسرى من المشركين مقرنون بالأصفاد حيث أنزل الله سكينته على رسول الله وعلى من ثبت معه من المؤمنين.

ثم يخبر سبحانه وتعالى أنه أرسل نجدة للمسلمين من ملائكته، تسندهم وتقوي إرادتهم على الثبات: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فكان عذاب المشركين بقتلهم وأسرهم وتفريق جمعهم، وأخذ ما بأيديهم غنيمة للمسلمين، لأنهم كانوا قد ساقوا أنعامهم وأهليهم معهم، لتثبتهم في القتال. فكانت هذه الهزيمة مدمرة وفاضحة لتلك القبائل من هوزان وثقيف، ومن شايعهم، وسار معهم من الاعراب. وهذه العقوبة جزاء الكافرين الذين أوقفوا أنفسهم لسد كوى النور والخير عن الناس.

فعذبهم – سبحانه وتعالى – بأسرهم وذلهم وأخذ أموالهم وأنعامهم. ثم يذكرنا – سبحانه وتعالى – بآية من آياته، ومعجزة من معجزاته. حيث أنه أخبر عن اسلام بعض هؤلاء المشركين الذين حاربوا المسلمين في تلك الغزوة، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ فقد أسلمت هوازن ومن تبعها من الاعراب، كما أسلمت ثقيف وحمل الجميع راية الاسلام خفاقة من بلاد الصين شرقا الى بحر الظلمات غربا، وكان لقادة ثقيف العظام السبق في الجهاد ونشر الدين: في فتح بلاد السند والهند وبلاد الترك في وسط آسيا، وفي دفع الروم عن أرض الاسلام وفتح الاندلس وبلاد المغرب،

وجعل البحر المتوسط بحيرة اسلامية بشواطئها وجزرها. وقد غفـر الله لهـم عنـدما زالت الغشاوة عن أعينهم فأبصروا نور الاسلام واهتدوا بهدي هـذا النـور. اللـهم بصّر أمة محمد في دينها، وردهم لهذا الدين رداً جميلا، وكن اللهم لهم ناصراً ومعينـاً يا الله.

٣١- بطانة السوء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١١٨ - ١٢٠].

عن أبي سعيد الخدري عن النبي محمد ﷺ، أنه قال: "ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة الا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانه تأمره بالشر وتحضه عليه. فالمعصوم مَنْ عصمه الله تعالى" رواه بخاري.

وهذا التحذير وارد من خالق الخلق، المطلع على السرائر، وخفايا النفوس، العالم بكيد الكائدين، وأساليب المفسدين، وشرور المنافقين، وما تنصبه هذه الفئة من شباك، وتحفره من حفر لأمة الاسلام والدولة الاسلامية، ورجال الحكم والقيادة، من تضليل وكيد؛ فهم مطالبون بحراسة أسرار الدولة، وكتمها عن هؤلاء الاعداء المتربصين بها الدوائر؛ حتى لا تكشف أماكن الضعف عند الدولة، أو يستغلوا أخطاء أو خلافات بين أفراد الأمة، أو رجال الحكم فيها، فيشيعوا الفساد والبغضاء، وأشعال الفتن مستغلين جهل العامة؛ وإثارتهم ضد مصلحة الأمة أو الدولة وقد يصل الامر الى تحريض رجال الحكم، وأهل الحل و العقد بعضهم ضد بعض؛ فتثور براكين يصعب إخمادها. وكم كان ذلك في تاريخ دولة الاسلام، عبر

تاريخها الطويل.

ووصف فئة الفساد هذه بالبطانة؛ هي من أبلغ الصفات، وأعظم المسميات المطابقة

لطبيعة هذه الفئة المضلة التي تنخر في جسم الأمة، من الداخل، كبطانة الثوب في القرب من الجسم، وما يتمكن من كشفه، و ما تطلع عليه من أسرار؛ فخطرها عظيم، والاتقاء منها صعب. فمن هنا حذرنا الله من خطورتها؛ و أمرنا بمنعها من التسلل إلى جسم الأمة، وأن نحيل بينها و بين تحقيق أهدافها و مطامعها الشريرة.

وعدم تمكينها من الاطلاع على خفايانا، وأماكن الضعف عندنا وهذا ما حذر منه ونبه إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – حين قيل له: إن ها هنا رجلاً من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم، أفلا يكتب لك؟ فقال: لا آخذ بطانة من دون المؤمنين"

هذا موقفه – رضي الله عنه – ودولته في مسيس الحاجة لمثل هذا الكاتب المشهور، وذلك في فجر قيام الدولة والكتبة عند العرب قلة والحاجة ملحة.

كما روي عنه – رضي الله عنه – أنه عنف أبا موسى الأشعري أحد ولاة الدولة في عهده وذلك لانه استكتب ذمياً وتلا عليه هذه الآية.

قال الله سبحانه وتعالى – محذراً المؤمنين من بطانة السوء هذه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ... ﴾ [آل عمران: ١١٨].

والخطاب للمؤمنين؛ لتحذيرهم ونصحهم من مغبة إطلاع أهل الكتاب والمشركين على أسرار أمة الإسلام ودولتهم. و﴿لَا﴾ هنا ناهية، وبشدة، لا تصالها بسبب النهي وبيانه والنكير عليه. ووصف المنهى عنه بأشد صفات النُكر.

والبطانة هي الفئة التي تطلع على أسرار الأمة والدولة، وحتى الفرد المسلم،

فيجب إختيارها من الأمة الاسلامية، وممن اتصف بالتقوى والصلاح.

وقد روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، أنه قال "المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل" سنن أبي داود.

﴿...لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا...﴾ من صفات بطانة السوء هذه أنها لا تقصر فيما فيه فسادكم. يضرونكم بكل طاقاتهم. (والخبال) الفساد في الافعال والأبدان والعقول.

﴿...وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ...﴾ أحبوا لكم المشقة وشدة الضرر وجميعها من صفات الإعداء لا الإحباء

﴿...قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ...﴾ فهذا الذي يبذل ما في وسعه لا فساد عقيدة المسلم ورابطة المسلم مع أمته ودولته ودينه.

هذا الذي لا يتمنى إلا التعب والعنت والتفرقة والهزائم للمسلمين.

هذا الذي قد تطاير البغض من قلبه على لسانه وفلتاته وعلى قسمات وجهه وملامحه، كما يخبرنا المطلع على السرائر، سبحانه وتعالى، بأن ما يخفيه هذا المنافق الكافر من كيد وبغض لأمة الإسلام هو أكبر مما يظهره أو نلاحظه من التلعثم في الكلام، ومن اصفرار الوجه، فالحذر! الحذر! من أمر قد بينه رب العزة، من سلوك وأخلاق وعلامات خيانة ممن نطلعه على أسرارنا فيعرف أماكن الضعف عندنا، فيصوب ضربته لنا في الوقت المناسب، فيكون هلاكنا وتدميرنا وإغاظتنا ولات ساعة مندم.

وأختتم – سبحانه وتعالى – هذه الآية الكريمة بوجوب الرجوع للفكر العميق المستنير، والعقل الراجح، فنأخذ بهذا التنبيه الواضح والحجة البينة، وذلك بقوله تعالى: ﴿...قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

فإن لم نأخذ بهذا النصح، وتلك العظات، فلن نكون أهلا للقيادة، وإدارة دولة الإسلام والمحافظة على أسرارها، وحفظها وهذا ما تفعله كل دولة في عالم اليوم؛ فهي لا تسمح لسفير يعين في أرضها لدولة أخرى، إلا بعد معرفته وبدقة وبحث عميق، وتجربة لأخلاقه وسلوكه، ثم تسلط الأضواء عليه حتى لا يصل إلى أسرار الدولة فيؤذيها. ومقارنة بين المؤمن المحب للبشر، المؤمن بالكتب السماوية جميعها وبدون تفريق وبين من يقابل هذا الحب بالكره، ويؤمن ببعض الكتب المرسلة ويكفر بغيرها.

قال سبحانه وتعالى ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران: ١١٩].

"والها" مُصدّرة كحرف تنبيه وتحذير لنا ثم جاء بعدها تعليل لهذا التنبيه. وقد كشف سبحانه وتعالى – عن صفاء قلوب المسلمين، وفرط حبهم لهؤلاء الذين يظهرون الإيمان ويكتمون الكيد والنفاق.

وقد نفى سبحانه وتعالى عنهم مقابلة الحب بالحب؛ بل تبدلوا الحب بالكره والكيد ثم ساق سبحانه وتعالى، دليلاً على صفاء قلوب المسلمين، انهم يؤمنون بالكتب المنزلة على الرسل والتي اجتمعت على توحيد الله، وعدم التفريق بين الرسل، فلا فرق بين القرآن الكريم ومحمد الذي بعث به ولا بين التوراة وموسى الذي بعث بها.

قال سبحانه وتعالى – يصف مقدار حقدهم على المؤمنين ونفاقهم: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

ولم تكتف هذه الآية بفضح مقدار نفاقهم وعظيم كيدهم كشفت عن شدة

كرههم وحقدهم لأمة الإسلام، رغم إظهار الحب والألفة والصحبة، فقد وصل بهم الحال في الحقد أن عضو على الأنامل وذلك عندما عجزوا عن إظهار براكين الحقد والانتقام علناً.

ثم تأتي البشرى بنصر أمة الاسلام، وظهورها وعلو شأنها وإن المنافقين كافرون، سيموتون قبل ما يأملون ويتمنونه من تدمير الإسلام، وتنكيس رايته، وأنهم قد جمعوا النفاق مع الكفر، وهذا من أبلغ أنواع التقريع والتعنيف.

ثم ربط ذلك بعلم الله الذي لا تخفى عليه خافية.

ثم أمرنا سبحانه وتعالى ﴿... قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

يعلم ما تخفيه صدورهم وقلوبهم من كيد وكره لأمة الإسلام.

ونتابع هذه الآيات المنيرة والمنبهة لنا من كيدهم، فمن يترقب لك النكبة، ويحب لك الشر، ويفرح بعثرتك، لا يجوز ان تتخذه صاحباً أو خليلاً أو رفيقاً؛ فتطلعه على سرك وهو خائن، يدعو عليك بالويل والثبور، ويطعنك في ساعة غفلة، وأنت من جهته آمن، وقد تدفعه براكين الحقد لإيذائك، وبأي وسيلة.

قال الله سبحانه وتعالى ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقد ختمت هذه التحذيرات بالإشارة إلى حصن يحمي الأمة والدولة الإسلامية من كيدهم وهذا الحصن هو التقوى، وهو العمل بما أمر الله، وتجنب ما نهى عنه، والصبر على هذه الشريحة، ولكن بحذر وانتباه، فهم كثعابين الأرض يختفون، ويتلونون كالحرباء. ينتظرون أن تدور الدوائر، وتقوى شوكة أعداء الأمة

الإسلامية فتظهر أنيابهم الزرقاء، يقطر منها السم الزعاف، ويتحول ذلك الملمس الناعم إلى شوك يدمي الأيدي.

ومن يقلب صفحات تاريخ أعداء أمة الإسلام يجد من الأمثلة ما يكفيه، ويزيد غيظه وغضبه فما من حام لنا منهم، ومن شرورهم، إلا الله والثبات والتقوى والحذر، وعدم اتباعهم وموالاتهم، حتى لا نقع في شباكهم ومصائدهم المجرمة.

قال سبحانه وتعالى يأمرنا بأخذ هذا العلاج الناجح لمواجهتهم: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[آل عمران: ١٢٠].

وفي هذه الآية الكريمة البشرى من الله بأنه لجانبنا، وهو محيط بكيدهم، وهو لهم بالمرصاد، فهو الجبار المنتقم، علاّم الغيوب، المدافع عن المؤمنين، الحافظ لكتابه من التغيير والتبديل، الهادي السبيل.

٣٢- موالاة الكفار

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ١ - ٩].

في هذه الآيات الكريمة صفات وبيان وتوضيح، أرادها الله للمجتمع المسلم،

وأسس وضعها وروابط أمرنا بالأخذ بها، والمحافظة عليها.

كما أمرنا بترك روابط واهية اعتادت عليها البشرية واستمرأتها، وخاصة العرب. فجعل- سبحانه و تعالى – من روابط العقيدة الإسلامية تلك العروة الوثقى هي الأساس في علاقة المسلم بمجتمعه الإسلامي، ضاربا بتلك الروابط الواهية عرض الحائط، مُفنداً ومبيناً خطرها على المجتمع والأمة الإسلامية، تلك الروابط التي كانت تنخر في جسم مجتمع الجاهلية؛ فتفرق ولا تجمع؛ و تفسد ولا تصلح؛ حيث طغت الأنانية والتكبر والجشع والاستغلال على كل شيء؛ فاحتقر القوي الضعيف، والغني الفقير، والذكور الإناث؛ فغطت سحب الحقد والمكر والكيد نور الحقيقة والأخلاق والعدل؛ فكثر السلب و النهب والقتل و الفساد.

وأغاث الله العرب خاصة، والبشرية عامة؛ بغيث الصلاح والحب، وأخوة الإسلام التي حث الله عليها في كتابه العزيز كما اختارها لتكون هي رابطة المسلمين القوية الثابتة الجامعة الموحدة لهم.و من أساليب فهم آيات الله معرفة أسباب نزولها. فحين أراد رب العزة، فتح مكة، عاصمة العرب الدينية، وحرمها الطاهر، وبدون سفك دماء. أمر رسوله الكريم بمفاجأة قريش، حقناً للدماء، وحباً في دخولهم هذا الدين الذي قاومته قريش متمسكة بالشرك، وبأصنامها، وفساد نظامها وأخلاقها؛ فترة من الوقت.

و لكن الشيطان الرجيم، و كما هي عادته قد زين لبعض المسلمين الخيانة، وذلك بإرساله خبر غزو رسول الله المفاجئ لقريش؛ فقد روت كتب التفسير والسير قصة حاطب بن أبي بلتعة ورسالته لقريش، يحذرها من سير المسلمين لحربهم: فعن علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – قال: "بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد. فقال رسول الله ﷺ: انطلقوا حتى روضة خاخ، فإن بها ظعينة، معها كتاب، فخذوه منها، فأتوني به؛ فخرجنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا أخرجي الكتاب، قالت ما معي من كتاب، فقلنا لتخرجن الكتاب

أو لتلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبي ﷺ؛ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي، فقال النبي ﷺ: ما هذا يا حاطب؟! قال لا تعجل علي، يا رسول الله، أني كنت أمرأ ملصقا في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فأتني ذلك من النسب فيهم، أن أصطنع إليهم يدا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني.

فقال النبي ﷺ: صدق، فقال عمر: دعني أضرب عنقه؛ فقال إنه شهد بدرا، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم" رواه البخاري ومسلم. لكن، ما نزل هذا القرآن على ملائكة، بل هم بشر، تمر بهم ساعة ضعف؛ فقد يزين لهم الشيطان أمرا أو النفس الأمارة بالسوء، وفترة نسيان وكسل، فيغفل أحدهم عن ربط عمله بحكم الشرع، فيقع في المحذور.

لكن، من نعم الله وفضله على الناس أن جعل باب التوبة مفتوحاً لمن ندم وتاب ورجع، فلا قنوط من رحمة الله عند المؤمن الفقيه المستنير الفكر، الطاهر النفس. فهذه القصة تظهر لنا حقيقة سلوك هذا الصحابي، وكيف ابتلي بهذا الأمر، حتى كانت فعلته المشينة هذه سبب نزول هذه الآيات المنيرة المبينة لنا طريق الخير والفلاح. وكيف صدق وأظهر الندم، وكيف كانت رحمة رسول الله ﷺ به؛ ومعالجته لأمر خيانته تلك، ثم لين جانبه نحوه، والتماس العذر له.

قال – سبحانه و تعالى – ينهانا عن موالاة الكفار و مودتهم، و لو كانوا الأهل و العشيرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١].

فالخطاب للمؤمنين يحذرهم من الوقوع في شباك المشركين وذلك باتخاذهم أصحاباً وأنصاراً و أحباء؛ فذكر المؤمنين بما يُكّن هؤلاء المشركون من عداء لله أولاً ثم للمؤمنين ثانياً... وعداؤهم لله هو جريمة نكراء في حد ذاته. فكيف، وقد قرنه

بكشف سريرتهم، وفضح نواياهم، وعداواتهم، لمن يلقون إليهم المودة؟ فلا أمان لأعداء الله، ولا مكان لصحبتهم ومودتهم.

ومن ينكر فضل الله عليه، فمن باب أولى. سينكر فضل البشر عليه؛ ومن خان الله ورسوله فهو للبشر خائن.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

تعريض بما قام به حاطب بن أبي بلتعة بإرساله خبر التجهيز لغزو مكة، وذلك لمصلحة خاصة به؛ وهو التودد لأعداء الله و قد فرض – سبحانه وتعالى – الجهاد ومحاربة أعداء الله؛ وذلك لكفرهم ولإخراج الرسول محمد ﷺ والمسلمين من بلدهم مكة و محاربتهم و تأليب العرب ضدهم.

وما كانت جريمة هؤلاء المسلمين و نبيهم إلا إيمانهم بالله وإخلاصهم وثباتهم على دينهم.

قال سبحانه وتعالى، في هذا: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾[الممتحنة: ١].

وفي كلمة ﴿رَبِّكُمْ﴾ ما فيها من إثارة وتذكير واستنهاض همم المسلمين لنصرة هذا الدين، وتجنب الخيانة، والتحذير من وسوسة الشيطان الرجيم والنفس الأمارة بالسوء.

كما قد أبرز- سبحانه وتعالى – كفرهم بكتاب الله العزيز، وما جاء فيه من أوامر ونواه فيها الخير العميم، والصلاح الدائم، لإثارة نفوس المسلمين وحميتهم لدفع أعداء الله عن هذا الدين القويم.

ثم يذكر المهاجرين بما هاجروا له، وهو الجهاد وإرضاء الله؛ وهذا يتناقض مع مودة أعداء الله والاتصال السري بهم، وتقديم الخدمة لهم؛ كتحذيرهم من غزو رسول الله ﷺ لهم، للاستعداد له، ومقاومته.

حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ﴾ [الممتحنة:١] وبنوع من العتاب والتوبيخ، وكشف سر البعض، قال سبحانه وتعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ﴾ [الممتحنة: ١] الله المطلع على أعمالهم.

في كلمة "أنا" ما فيها من التهديد والتخويف لهذه الشريحة الخائنة التي تحاول إخفاء مودتها ومساعدتها للكفار، تظن أن الله كالبشر يخفى عليه أعمالهم السرية، ولكنه الله يعلم السر وأخفى، وكيف لا يعلم ما يحصل في ملكه من صلاح وفساد، وهو الخالق القادر علام الغيوب!!!

وفي جملة ﴿... وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١] الحكم القاطع على من يقدم خدمة لأعداء الإسلام، أنه من أهل النار، فما بعد الإيمان إلا الكفر. ومن ضل الطريق المستقيم فقد سار في طريق الغواية؛ فالنار هي مثواه وساءت مصيرا.

وتستمر هذه الآيات بكشف مكنون نفوس الكفار؛ كما تبين هذه الآية الكريمه عله وجوب عدائهم، والحذر الدائم منهم، وعدم إلقاء المودة إليهم: إن يظفروا بكم يؤذوكم باليد واللسان، وذلك بالقتل والسب والإهانة. قال سبحانه وتعالى، في ذلك: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢].

وقد تمنوا ارتدادكم حتى قبل أن يظفروا بكم فأمنيتهم ضلالكم وردتكم عن هذا الدين القويم؛ وهذا ربط بين الكره والكيد والقتل والشتم والإيذاء؛ فالدافع لهذا كله حبهم للكفر، وتمسكهم به، وحب الضلال لكم، وحب ردتكم عن هذا الدين.

ثم يكشف – سبحانه وتعالى – عن موقف يعتبر من المغيبات لم يطلع عليها البشر إلا بما أرسله الله في الكتب السماوية وهي فك أعلى وأعظم الروابط قوة، وذلك يوم القيامة وهي رابطة الرحم، فقد ذكر أن رابطة الأبوة والبنوة – رغم متانتها وقوتها المعروفة – تنفك يوم القيامة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الممتحنة: ٣]. وقد يكون هذا الفصل عندما يدخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة. أو يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وذلك هربا من أداء الحقوق ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٣]. وهذا التهديد والوعيد والتذكير بمراقبة الله لأعمالكم، من خير وشر ومحاسبته على ذلك، هو العادل الحكيم.

وفي هذه الآيات الكريمة عتاب وتعريض بابن أبي بلتعة وعذره الواهي للرسول محمد ﷺ. وقد أبرز سبحانه وتعالى الأبناء عن باقي الأرحام وذلك لقربهم من قلب الآباء وعظيم محبتهم.

ما كانت قصص القرآن قد وضعت فيه للتسلية، ولذة القراءة؛ بل هي عظات وتحذير وتنوير لأمة الإسلام التي تلقت تعاليم هذا الكتاب، بالسمع و الطاعة؛ وذلك حتى يتجنبوا الوقوع فيما وقع فيه من سبقهم من الأمم، وهي غيث رحمة، ونور هداية لهذه الأمة الماجدة المطيعة التي احتضنت هذا الكتاب الكريم، وأخذت بتعاليمه عبر القرون؛ فأعزها و رفع ذكرها.

ثم أهميه الربط بين دين الإسلام وأرومة دين التوحيد السابق له، فالإسلام هو استمرار واستئناف لدعوة التوحيد والتي دعا لها نبي الله إبراهيم – عليه السلام – واستمر عقد الأنبياء في ذريته إلى أن وصلت النبوة واسطة هذا العقد وذلك خاتم النبيين والمرسلين محمد ﷺ.

قال سبحانه وتعالى، منبهاً ومذكراً بوجوب السير على طريق الدين الحنيف.

دين إبراهيم الخليل – عليه السلام – والإقتداء به، والتمسك بنهجه. فهو أسوة كل مؤمن يوحد بالله ويؤمن باليوم الآخر.

ومن تلك التعاليم: أن الحب في الله و البغض في الله.

فإبراهيم – عليه السلام – والمؤمنون معه؛ عادوا قومهم وعشيرتهم، وذلك عندما تمسك قومهم هؤلاء بالكفر.

قال- سبحانه وتعالى – يصف موقفهم هذا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

فقد أعلنوا البراءة من دين قومهم، ومما يعبدونه من الأصنام ثم أتبعوا ذلك ببغض قومهم، وإعلان العداء لهم، ما داموا متمسكين بكفرهم وكلمة ﴿أَبَدًا﴾ تأكيد دائم وجازم للخروج على قومهم وما يعبدون. وكلمة ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ تعني أنكرنا ما أنتم عليه، وسيبقى هذا العداء حتى تؤمنوا كما آمنا بتوحيد الله، ونبذ ما يعبد من دونه. وقد استثنى – سبحانه وتعالى – من تلك القدوة قول إبراهيم لأبيه، وهو يعلم تمسكه بالكفر وعداوته المستمرة لله ولكنه ترك ذلك الاستغفار، عندما تأكد من عناد أبيه وتمسكه بالكفر. قال - سبحانه وتعالى – في ذلك: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وهذه القاعدة العامة، وهي ما يفعله الله لا راد له، فهو الفعال لما يريد، المطلع على السرائر، والعالم بخواتم الأمور، وقد اختتمت هذه الآية الكريمة بدعاء المؤمنين قديما وحديثا، تثبيتا لطاعتهم و تمسكهم بهذا الدين، والتوكل على الله؛ والرجوع

عن الذنب، وتصور نتائج أعمالنا وهي دخول الجنة أو النار.

وتستمر هذه الآيات في التذرع و التزلف لله، والرجاء منه؛ أن لا يسلط علينا ظالما، ولا يعذبنا بأيديهم أو تشفيهم فينا، وتقويتهم علينا.

قال ابن عباس في ذلك: لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا بعذاب لا نطيقه"

وقال الطبري عن مجاهد في هذا الشأن: "يا ربنا، لا تجعلنا فتنة للذين جحدوا وحدانيتك، وعبدوا غيرك؛ بأن تسلطهم علينا فيروا أنهم على حق، و أنا على باطل فيفتتنوا بذلك". حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الممتحنة: ٥].

﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ طلب الستر علينا وذلك بعفوك علينا، وعدم فضحك لنا، يوم القيامة، على ما ارتكبناه من مخالفات في هذه الدنيا.

﴿ رَبَّنَا ﴾ فيها ما فيها من الإذلال والحنو والتزلف لمن يجبر الكسر، ويغفر الذنب، فهو المنتقم الجبار، الستار لذنب المستغفرين.

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الممتحنة: ٦].

لقد كان لنا في إبراهيم والأنبياء – عليهم السلام – ومن آمن معهم الأسوة الحسنة، إذا اتبعنا خطاهم و سرنا في طريقهم. فمن تمسك منا بالعروة الوثقى، واعتمد على الله، وآمن بيوم الحساب، فقد نجا؛ ومن أدار ظهره لهذه العظات؛ فقد ضل وسار في طريق الهلاك، والله غني عن العباد.

وقد أكدت هذه الآية التمسك بالقدوة الحسنة، وربطها برجاء المغفرة، يوم القيامة، ويكون ذلك من المؤمن؛ وأما الكافر فقد أعرض عن ذكر الله، وضل السبيل؛ وقد أجيب بأن الله هو الغني عن خلقه المكرم لأوليائه.

وعندما نزلت الآيات السالفة تشدد المسلمون في معاملة الأهل والقرابة من أهل مكة الذين لم يهاجروا، وزاد العداء و القطيعة، وذلك خوفا من تلك الآيات وما فيها من التهديد و الوعيد.

فنزلت هذه الآيات للتيسير، وشرح بعض المواقف والاستثناء لبعض فئات المجتمع، من الضعفاء والنساء الذين لم يشهروا سلاحا في وجه المسلمين.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ [الممتحنة: ٧]. قيل أن هذه الآية نزلت في زواج رسول الله محمد ﷺ من أم المؤمنين، أم حبيب بنت أبي سفيان زعيم مكة، يوم ذاك والذي أنعم الله عليه بالإسلام بعد نزول هذه الآية وذلك يوم فتح مكة؛ كما أنعم عليه بمجاهدة الكفار والمرتدين، حيث كان أول من قاتل المرتدين.

وموقفه في معركة اليرموك، مشهور معروف. والآية عامة فيمن يرحمه الله، فينضم لحزب الله بعد سيره مع حزب الشيطان ﴿...وَٱللَّهُ قَدِيرٌ...﴾ . أي بليغ القدرة، كثير الخير، رحيم بعباده، فعال لما يريد؛ فيهدي من يشاء، ويغفر لمن يريد.

﴿...وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو الرحيم بخلقه؛ حيث أنقذ أهل مكة – رغم شدتهم على المسلمين – من هلاك محقق، وضلال مؤكد، بإسلامهم يوم الفتح، ثم توفيقهم للسير في طريق الجهاد في سبيله، ونشر دينه، حتى عم نوره آفاق الأرض، بتصميم أولئك القادة، وتأييد الله لهم.

قال – سبحانه وتعالى – منظماً ذاك العداء للكفار، مرخصاً لبعض فئات المجتمع، رحمة بهم وتيسيرا: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

فهذه الرخصة هي من طرق تلين القلوب لهذا الدين، وتأكيد لوجوب محاربة

ومقاطعة المشركين المحاربين المعتدين، وأن نصل ونبر ونحسن لغير المعتدين والمحاربين منهم: ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ الذين يعدلون ويوفون بالعهود، ويحسنون لمن أحسن إليهم، ويبرون من برهم؛ وهذا أعلى أنواع الإنصاف.

وفي البخاري وغيره، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: "أتتني أمي راغبة و هي مشركة في عهد قريش. إذ عاهدوا رسول الله ﷺ، فسألت النبي ﷺ، أأصلها فأنزل الله ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ...﴾ الآية فقال: نعم، صلي أمك".

ثم بين سبحانه وتعالى، مؤكدا الفئة الباغية التي يجب اجتنابها ومعاداتها، والحذر منها، حيث قال: ﴿يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٩].

أي عاونوا المحاربين والظالمين على حربكم وقتالكم والسعي لإخراجكم من دياركم ﴿...أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فهذا النهي البين هو خلاصة تلك الآيات العظات والخط العريض في التعامل مع الكفار، وفي وجوب بيان الشدة والعداء في وجه العدو، ولين الموقف والبر لغير المحاربين.

ثم هناك بين أفراد المشركين من يحبون الفئة المسلمة و يتقربون منهم، وقد يؤدي ذلك لإسلامهم، وانضمامهم لأمة الإسلام، وأمثال هؤلاء كثير؛ فالقياس الشمولي فيه بعض التعسف؛ والتيسير والمعاملة الحسنة من أساليب الدعوة وجلب الناس لدين الله القويم؛ فمعاملة رسول الله محمد ﷺ لأسرى بدر خير مثال فبعضهم أمر الرسول ﷺ بقتله صبراً لجرمه والقنوط من هدايته وإسلامه، والبعض أسلم وحسن إسلامه؛ للمعاملة الحسنة له؛ فالتوسط والنظرة للفردية بجانب النظرة الشمولية، أمر هام في معاملة الكفار، وتحديد مواقفهم، والتعامل معهم، وعلاقة ذلك كله بالدين.

٣٣- المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ١ - ٨].

ظهرت خطورة و شوكة هؤلاء المنافقين بعد هجرة رسول محمد ﷺ إلى المدينة؛ فوصفهم رب العزة وصفا دقيقا، كما حذر المسلمين منهم تحذيرا شديدا، كالتحذير من الكفار، بل أشد؛ وكشف سريرتهم، وكوا من نفوسهم، وذلك لأساليبهم الخفية الملتوية، واستمرار وجودهم بين أفراد الأمة الإسلامية عبر العصور، فكيدهم للأمة عظيم وخبثهم شديد، فهم أصحاب المناورات والدسائس والتحرك في الظلام والفساد والإيقاع بين أفراد المجتمع، والكيد للدولة ورجالها.

ومن أخلاقهم الدنيئة اللؤم والجبن والتردد والرياء والكذب والتجسس، والصيد في الماء العكر، والتحرك في الظلام؛ كما كان الحسد من أكبر دوافعهم للشر والإيذاء.

وقد نبه سبحانه و تعالى، المسلمين إلى خطرهم بقوله للرسول محمد ﷺ (هم العدو فاحذرهم...).

وقد ظهر خطرهم الظاهر متأخراً حيث كانوا ينتظرون نصر المشركين من العرب عامة، وقريش خاصة، على المسلمين، أو نصر يهود المدينة وخيبر كذلك على المسلمين؛ فآثروا الاختفاء في جحورهم، يعتمدون على الدسائس والإيقاع والكيد؛ وتوصيل الأخبار لأعداء الإسلام، ولكنهم عندما شعروا بنصر الله للمسلمين. وأنهم أصبحوا القوة الحقيقية في الجزيرة، ودولتهم هي صاحبة الشوكة، التي يخشى سطوتها العدو، ثارت براكين الحقد في صدورهم، فاندفعوا من تلك الجحور التي كانوا يستترون فيها، فقاموا بإشعال الفتن بين المسلمين؛ واستعمال الأساليب الدنيئة كالتجسس ومحاولة اغتيال رسول الله ﷺ حين الرجوع من غزوة تبوك المشهورة.

وقاموا ببناء مسجد الضرار؛ لرصد تحركات الجيش الإسلامي. ولكن الله فضحهم، وكشف سترهم، وحذر المسلمين من كيدهم حتى أن رسول الله ﷺ، كان يقرأ بسورة المنافقين، يوم الجمعة كنوع من التهديد والفضح لنواياهم؛ لتوقيف سيل الفتن التي كانوا قد دبروها، وقاموا بتنفيذ بعضها. كقصة الإفك، وتقسيم غنائم حنين، فقد عم شرهم الأفراد والدولة معاً.

وقد فصّل ابن إسحاق في سبب نزول آيات هذه السورة التي سميت باسمهم كأعلى درجات التحذير منهم ومن خطرهم، وذلك في حديثه في غزوة بني المصطلق، فقال: "بينما رسول الله ﷺ على ذلك الماء، بعد تلك الغزوة المظفرة وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له: جهجاه بن

مسعود يقود فرسه فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عون بن الخزرج على الماء، فاقتتلا فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين.

فغضب عبد الله بن أبي سلول، وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث.

فقال: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا. والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك! أما والله لئن رجعنا إلى، المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل.

ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فسمع ذلك زيد بن أرقم. فمشى به إلى رسول ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ فيها. من عدوه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله فقال رسول الله ﷺ: "فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا و لكن أذن بالرحيل" وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها. فارتحل الناس وقد مشى عبد الله بن أبي سلول إلى رسول الله حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه فحلف بالله ما قلت ما قال، ولا تكلمت به وكان في قومه شريفا عظيما فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حدبا على ابن أبي سلول ودفعا عنه.

فلما استقل رسول الله ﷺ وسار لقيه أسيد بن حضير، فحياه بتحية النبوة، ﷺ، ثم قال: يا نبي الله، والله لقد رحلت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها.

قال: له رسول الله ﷺ: "أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟" قال و أي صاحب يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أبي" قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الاذل؟ " قال: فأنت يا رسول الله، والله لتخرجنه منها إن شئت: هو والله الذليل، وأنت العزيز ثم قال: يا رسول الله أرفق به. فو الله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا!!.

ولما قفل الناس راجعين إلى المدينة. فقام: عبد الله بن عبد الله بن أبي بباب المدينة، واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه: وراءك! فقال: مالك؟ ويلك! فقال: والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل! فلما جاء رسول الله ﷺ و كان إنما يسير ساقة فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه فقال: ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له فأذن له رسول الله ﷺ فقال: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ، فجز الآن ".

وقد ورد أن رسول الله ﷺ، قد ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله ﷺ: "كيف ترى يا عمر؟ أما و الله لو قتلته يوم قلت لي: أقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم أن تقتله لقتلته". قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري ".

هذا ما وصلنا، من سبب نزول هذه السورة المباركة ونأتي الآن لتفصيل وتفسير ما ورد فيها من آيات كريمة، وتحذير لأمة الإسلام من عدو خطر، يخفي الكيد والشر والغدر لنا، ويظهر الحب والتقوى والولاء، قال سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ﴾.

فرغم تأكيدهم برسالة الإسلام وقولهم ﴿نَشْهَدُ﴾ فيه قوة القسم على ذلك، ومؤكد بأن واللام ولكنها شهادة خداع، حيث فضح سريرتهم رب العالمين المطلع

على الأنفس والسرائر بقولـه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، فهذه الشهادة من الله العالم السر وأخفى هي أكبر رادع لهم و تكذيب.

والجملـة المعترضـة بـين شـهادتهم الكآذبـة و شـهادة رب العـالمين الصـادقة الفاضحة لنواياهم ومكنون قلوبهم، وذلك بقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ [المنافقون: ١].

وهي تفيد التقرير والتأييد لما قبلها وربما فيها من تأكيد لرسالة محمد ﷺ ومـن قبل خالق الكون فهي أعظم وأصدق شهادة بصدق رسالة محمد ﷺ وهذه الشـهادة القيمة تكفي فلسنا بحاجة إلى شهادة المنافقين الذين يضمرون غير ما يظهرون.

وقد بين سبحانه وتعالى الدافع لشهادتهم هذه رغم إبطانهم الكفر، حيث قال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ٢].

أي سترة ليعصموا بها دماءهم و أموالهم، وخوفا من القتل والأسر، وتطبيـق حكم الردة بحقهم.

ثم يبين سبحانه وتعالى: مـا قصـدوه مـن إظهـار الطاعـة والإسـلام، وإبطـان المعصية والكفر، حيث قال سبحانه وتعـالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٢]. ومن هذا الصد إغراء الأنصار عن الإنفاق علـى المهـاجرين، وصـد المسـلمين عـن التمسك بهذا الدين الصحيح، ومـن أعمـالهم التشـكيك في هـذا الـدين وانتقـاص أعمال الصحابة، والتشكيك في سلوكهم وغرس بذور التفرقة، وإشـاعة الفاحشـة، والأخبار الكاذبة في المجتمع الإسلامي، ثم سلوكهم الشاذ يزيد في من يريد الدخول في الإسلام، فهم يسيئون لأنفسهم أولا، ثم للمجتمع الذي يعيشون فيه ثانيا.

وقد وصفهم رب العالمين بأسوأ الصفات، حيث قـال فـيهم سـبحانه وتعـالى: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢].

فهذا الوصف لهم يدل على مقدار غضب الله، وسخطه عليهم، واستنكار لأعمالهم السيئة والخبيثة، فقد صدوا أنفسهم، كما صدوا غيرهم، بالخداع والأيمان الكاذبه والتضليل، وأعطوا الناس فكرة سيئة عن أمة الإسلام الذين يظنون جهلا أن هؤلاء المنافقين هم من شرائح المجتمع المسلم، فزادتهم ملاحظة هؤلاء بعدا و تصلبا وشكا في هذا الدين.

ثم يصف سبحانه وتعالى عملهم السيئ هذا بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

وهذا يظهر عدم تفريقهم بين الحق والباطل، والإيمان والكفر ولحكم الهوى بدل الشرع، وإتباع الشيطان وموالاته.

وقد رتبت الآية أعمالهم الفاسدة ونيتهم الخبيثة فهم، وبعد رؤية الحقيقة، واستنارة العقل، والسير في الطريق المستقيم، غطت الغشاوة بصائرهم، وزينة الحياة الدنيا نفوسهم، فانحرفت بهم سفينة النجاة، فغاصوا في وحل الشك والتردد، فأوصلهم ذلك إلى الكفر، فاتخذوا من الفساد منهجا، والكذب مبدأ، حتى طبع الله على قلوبهم قال سبحانه وتعالى: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وسبق الطبع عادة الرين والقفل، وليس بعد الطبع مجال للهداية والاستنارة بنور اليقين، فالطبع هو آخر المطاف، وهو جزاء الظالمين الفاسقين فما حصل القفل إلى على قلوب مقفلة أمام الخير، ولصدهم عن سبيل الله، وإبطانهم الكفر، وفسادهم وتربصهم بالمسلمين الدوائر، وموالاة الشيطان وحزبه.

ووصفهم بعدم الفقه بالشرع وأمور الدين، وما فيها من صلاحهم ورشادهم، ولم يفهموا حقيقة الإيمان. وراحة المؤمن برضى ربه عليه.

وقد وصفهم رب العالمين بأبلغ مثال، وذلك بقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَثَلُهُمْ

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧ - ١٨] فأجسادهم جميلة متكاملة الحسن، خداعة المنظر، كما أن منطقهم قوي وبيانهم ساحر، لكن هذا كله لا يعني شيء أمام أنفسهم المريضة، وعقولهم المتناقضة وسلوكهم المشين.

فالمخبر أهم وأعدل من المنظر، وما حذرنا ربنا من هؤلاء وأمثالهم إلا رحمة بنا، وتنبيها من الوقوع في شباكهم، وتصديق أقوالهم و تقليدهم في أعمالهم.

وقد مثلهم بأرخص وأحقر أنواع الخشب، الخالي من الفائدة، ومن الخشب ما يفيد وينفع، ولكن وصفهم بالخشبة المسندة المهملة وهو البلاغة عينها، وذلك لإظهار عدم فائدتهم لمجتمعهم، ولا لأنفسهم إنما هو ضرر وكتلك الخشبة التي قد تسقط على رأس أحد أو يعثر بها أخر فتؤذيه.

حيث قال تعالى فيهم: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤] وصفه أخرى تبين جبنهم وخوفهم الدائم من الكشف عما في قلوبهم من كيد للمسلمين، فهم ينفرون ويخافون من صوت أي داع، ظانين أنهم هم المقصود ون بكل شر وطلب جزاء.

حيث قال فيهم سبحانه وتعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤].

ورغم كثرة الأعداء من كفار وفساق وظلام، ولكنه سبحانه وتعالى أعتبرهم رأس الأعداء، وهذا الاستئناف يظهر مقدار خطرهم على المسلمين، والدولة الإسلامية فالتحذير منهم ومن أعمالهم القبيحة بهذا الأسلوب البلاغي، وكأن أعداء الأمة جميعهم قد استظلوا براية هؤلاء المفسدين و الضالين.

فينهانا رب العالمين عن الأمان لهم: فلا يطلعون على أسرار الدولة، ولا على

تحركات الجيوش، لأنهم عيون الأعداء على الدولة الإسلامية، فوجد ماهم فيه من قيادة الفساد في المجتمع المسلم، ونشر الرذائل و الفواحش وبذر بذور التفرقة والفساد بين أفراد الأمة الواحدة.

ثم تأتي قاصمة الظهر بقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

فقد لعنهم وطردهم من رحمته، فالقتل هو أعظم شدائد الدنيا، وأخوف ما يخافه الإنسان، والدعاء عليهم وعلى من شابههم لشدة فسادهم، وتمسكهم بالباطل، وترك الحق فأخزاهم الله لأنصرافهم عنه، وفيها ما فيها من التعجب من حالهم وسلوكهم، وعدم فقههم، وتمسكهم بالباطل وعزوفهم عن الحق.

ثم يذكر سبحانه وتعالى بعض مواقفهم وتكبرهم وصلفهم وعنادهم حتى عند طلب الخير لهم، وتبصيرهم عن أبواب رحمة الله والتوبة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥].

فقد منعهم الكبر والأنانية والنفس الأمارة بالسوء من التقرب لرسول اختاره ربه واصطفاه لحمل رسالة الخير للبشرية ﷺ وقد اشتهر بالتواضع، ولين الجانب، وحب الخير، والخلق الرفيع، مع الجاهل والعالم.

وتوصيد أبواب الرحمة أمامهم، وذلك لوصولهم درجة الفسق و الفجور، والرسوخ في الكفر، وهذه من أعظم أنواع الإثم فقد صدر حكم الله فيهم. ولا راد لحكمه، فهو العالم بمكنون نفوسهم، وفساد قلوبهم.

قال سبحانه وتعالى مخاطبا رسوله الكريم محمد ﷺ ينهاه عن الاستغفار لهم بقولــــه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ [المنافقون: ٦].

وهذا الجزاء يخص المنافق الذي عميت بصيرته فلم تتصور مراقبة خالق الخلق لأعماله وسلوكه وما تحدثه نفسه الأمارة بالسوء به. فقد حرم الهداية والرحمة من الرب الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعا: قال ﷺ: "أن للمنافقين علامات يعرفون بها تحيتهم لعنة، وطعامهم نهبة، وغنيمتهم غلول، ولا يقربون المساجد إلى هجرا، ولا يأتون الصلاة إلا دبرا، مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون، خشب بالليل. صخب بالنهار".

ثم يكشف الله سبحانه وتعالى عن بعض جرائمهم وفتنتهم وخبث كيدهم، وعظمة مكرهم حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ [المنافقون: ٧].

وقد كشف هدفهم ونواياهم الخبيثة للتفريق بين الأنصار والمهاجرين، ولكسر جناحي الدولة الإسلامية، والتنكر لرابطة الإخوة الإسلامية، التي هي الجامع الموحد لأمة الإسلام ولشعوب الأرض من أبناء آدم. واستعمال الفعل المضارع هنا يدل على استمرار فسادهم وتجدده عبر العصور.

ويعتمد نهجهم على الدس والكيد والتآمر والغيبة والنميمة والمراوغة والخداع والتمويه والمهادنة، وجميعها صفات الجبناء، ويتبعها السير على نظام الوقاية والتقية جنة يستترون وراءها، ويخفون حقدهم وتكبرهم وغبائهم، ومن أساليبهم قلب الحقائق، وتضخيم حقير الأخبار، وترويج الفتن.

كما بينت هذه الآية الكريمة، عما قصدوه من فتنتهم هذه، وتحريضهم ذلك لإضعاف وتفريق وحدة الأمة فيرد عليهم مالك الملك، ورازق الخلق بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

فخيره لا ينفد، يعطي ويحرم، وكل شيء عنده بمقدار.

ثم يبين سبحانه و تعالى جهلهم في الشرع، وغباءهم في معرفة صفات الله وكرمه؛ فهم لا يقدرون الله حق قدره، وهو الخالق الرازق المحي المميت.

وهذه الوسيلة الخبيثة الظالمة قد استعملتها قريش من قبل أيام مقاطعة المسلمين في شعب أبي طالب قبل الهجرة، ولا تزال الدول القوية الغنية تستعملها ضد أعدائها من الشعوب الضعيفة، لإحكام قبضتها على اقتصادهم وحكمهم.

كما هي من أساليب الدول الظالمة المتجبرة في حكم شعوبها، فتحرم البعض من الوظائف، أو من المساعدة على العيش الشريف، كما كانت من سياسة الدول الشيوعية الملحدة في هذا القرن في إذلال المتدينين من شعوبها وأفرادها.

والله الكريم الحكيم تعهد برزق الطائع والعاصي، الكافر والمسلم، وذلك لان اللؤم والحرمان ليس من صفاته، والخسة والبخل، بل هي من صفات البشر الفساق المنافقين الضالين المضلين.

ولعدم فقه هؤلاء المنافقين في الدين والعلم، ولضيق نظرتهم للحياة، وجهلهم بمبدأ الإسلام العظيم، وسنده القوي ووعد الله بالنصر والظهور: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨].

هذا هو قول زعيمهم عبد الله بن أبي سلول كما مر معنا

وقد فضح الله سبحانه وتعالى سرائرهم و نياتهم الخبيثة، ومؤامراتهم على دولة الإسلام الفتية، وعلى وحدة المسلمين فهذه الفتنة هي إعلان حرب على المهاجرين الذين اتخذوا من المدينة عاصمة لهم؛ لنشر دين الله، ونقطة انطلاق لمحاربة الجاهلية المشركة، وفسادها. ثم يعد رب العالمين أن الغلبة والقوة والنصر هو لحزب الله ورسوله و المؤمنين.

فقد حصرت العزة والمنعة في هذا الحزب المؤمن، وحُرم حزب الشيطان والنفاق والكفر منه.

وأن من أعظم درجات الشرف والمكانة والفخر أن يقرن رب العزة المؤمنين ورسولهم الكريم ﷺ معه في ذلك حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

فالمنافقون جهلة، لا يعملون ما فيه صلاحهم وخيرهم وعزتهم.

وقد مرت القرون وقد أعز الله مدينة رسول الله و أهلها، وجلب لهم الرزق والخير من خزائن ملوك الأرض من روم وفرس وترك و هنود.

كما قرن مسجدها بالبيت الحرام، ومسجد بيت المقدس حفظه الله من كيد اليهود؛ وساعد أمة الإسلام في إرجاعه مفتوح الأبواب، كما كان عبر القرون الماضية للمصلين الخاشعين العابدين

ولضعف إيمان المنافقين هؤلاء، ولجهلهم، وعدم علمهم بما سيؤول إليه هذا الدين من عزة ونصر وانتشار، كان هذا موقفهم من الإسلام؛ أن للدولة و أجهزتها وقضاتها ظاهر الأفعال؛ فلا تعاقب على السرائر والنيات لأن تلك لا يسيطر عليها و يعلمها إلا خالقها حتى أن رسول الله ﷺ، لم يكن يعرف هؤلاء المنافقين تمام المعرفة، لا بأسمائهم، ولا بأعيانهم، إلا قبل وفاته ﷺ بقليل: رغم معرفته لهم بالفراسة من بعض مواقفهم الشائنة، وسلوكهم الشاذ وفلتات ألسنتهم، و ملامح وجوههم. وذلك بما وهبه الله من سياسة و فطنة وفراسة؛ وعندما أطلعه ربه على أسمائهم أخفى هذا السر إلا على الصحابي الجليل، حذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي أيضا أخفى بدوره هذا السر عن الناس.

وقد كشفت حال بعضهم أثناء الصلاة عليه بعد موته فمن كان منهم يرفض رسول الله ﷺ الصلاة عليه فهو منهم.

وبعد وفاة رسول الله ﷺ؛ من يرفض حذيفة هذا الصلاة عليه فهو منهم.

كما تدلنا هذه الآيات الكريمة أن هناك بيننا وفي مجتمعنا المسلم من طمست بصيرته، وختم على قلبه، فضل سبيل الخيرين الصالحين. واتخذ الفساد والكيد والتخريب مهنة له. لإضعاف الأمة، وتفريق الوحدة، وبذر الشقاق بين الأفراد.

فعلى المجتمع المسلم ودولته الإسلامية، الحذر كل الحذر من خطورة كيدهم، وعظيم شرهم. فتخفي أسرار الدولة عنهم. ولا تسمح لهم بالوصول إلى مصدر الحكم والقوة، ومع هذا تحمل سلوكهم هذا محمل الخير ما داموا يؤدون ولو ظاهرا ما فرضه الله عليهم، وتترك نياتهم وسرائرهم لخالق الخلق المطلع على السر وأخفى.

فهذا رسول الله محمد ﷺ وعندما طلب منه ابن هذا المنافق المشهور النفاق أن يقتل أباه بيده؛ إن حكم الرسول بقتله لإجرامه، وذلك حتى لا يفتن برؤية قاتل أبيه من المسلمين، فيقتل مسلما بدم كافر منافق، فهو يقول للرسول: "فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني" فيجيبه الرسول الرحيم بصحبه، العطوف عليهم: "بل نرفق به و نحسن صحبته ما بقي معنا".

كيف و أن عبد الله بن أبي سلول هذا المنافق: نهض من مرقده بعد قرن من موته والذي كان مع حزبه من المنافقين يضع عظيم الحجارة أمام سيل الإسلام العرم؛ ليعيق تقدمه، ويؤخر انتشاره، ويستغل كل حادثة، ولو أنها حقيرة، للتشهير بالمسلمين للتشكيك، والصد عن سبيل الله، ويقوم بالفساد في المجتمع المسلم للتفريق بين المهاجرين والأنصار، وبإشعال الفتن باسم الوطنية والقومية المنتنة، كل هذا لحاجة في نفسه، يؤججها الحسد والغيرة والكيد والأنانية؛ فيعمل لتفتيت وحدة أمة الإسلام؛ وتمزيق عرى المحبة والألفة والصفو؛ فقد غاظه رؤيا عاصمة الدولة الإسلامية تتعارك أقدام العرب على أبوابها، تستقبل وفودا، وتودع وفودا، وتخرج منها رايات الجهاد، وتستقبل بشائر النصر.

كيف به لو وقف بعرفه يوم الحج الأكبر و بعد بضعة عشر قرنا من نزول كتاب الله على أهل الأرض – يشاهد وجوها مختلفة الألوان، متفرقة الأوطان، مجتمعة القلوب و الرايات، تجمعهم أخوة الإسلام، من بلاد المغرب الأقصى غربا إلى بلاد الصين شرقاً.

كيف به لو عرف حدود دولة الإسلام بعد قرن من زمانه، وقارنها بحدود يثرب التي كان يطمع أن يكون ملكا عليها، ذلك المُلك الذي أشغل عقله، وأعمى بصيرته طوال حياته. أهلكته طموحاته الشاذة تلك، حتى أوردته خيانته و نفاقه موارد الهلاك، وأوصله الكبر إلى الجحيم.

كيف به وهو يرى قومه الذين غضب منهم لعدم نصرته ومؤازرته في نفاقه، وانضمامهم لحزب الله تحت راية الإسلام. أقول: كيف به يرى أحفادهم وأبناءهم وهم قادة وولاة ومجاهدين يرفلون في حلل العزة والنصر في أقطار وثغور الدولة المترامية الأطراف؟

أم كيف به وهو يرى تلك المدينة التي كانت محدودة الدخل، قليلة الثراء؛ وقد تدفقت عليها الخيرات والأموال من كل الأقطار؛ فعاش أبناءها حياة كلها رغد وثراء وكرامة و عزة.

كل ذلك بفضل الله ورحمته بعباده الطائعين المجاهدين المؤمنين.

وأخيرا، كيف به يوم القيامة وقد فضحت أسراره وكشف غدره ونفاقه؛ وسيق مع حزبه من المنافقين إلى نار وقودها الناس والحجارة، يتمرغون في لهيبها، يتنازعون، ويصرخون، ولا منقذ لهم، ولا شفيع.

وإخوانهم و أبناءهم و أحفادهم المسلمون يرفلون في حلل السعادة ورضى من الله في جنة عرضها السماوات والأرض.

فأين من يتذكر هذه المقارنة بين مؤمن ومنافق؟ أين من يكون هذا الكلام

عظه له فيتعظ؟ أين من يزيل غشاوة الكفر عن عينيه؛ فيرتد بصيرا؛ فيرى نور الإسلام الذي يكشف له طريق السعادة والخير والصلاح فيسير آمنا مطمئنا إلى أبواب الجنة.

عن عطاء بن السائب قال: كنا عند عبد الله بن الحارث فقال: أتدرون لمن قال رسول الله ﷺ" من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار؟ قال: قلنا لا. قال: إنما قال ذلك من قبل عبد الله بن أبي جذعة أتى ثقيفا بالطائف فقال: هذه حله رسول الله ﷺ أمرني أن أتبوأ أي بيوتكم شئت! فقالوا: هذه بيوتنا فتبوأ أيها شئت، فانتظر سواد الليل فقال: وأتبوأ أي نسائكم شئت فقالوا له: أن عهدنا برسول الله ﷺ يحرم الزنا فسنرسل إليه، فأرسلوا إليه رسولا، فسار إليه وقدم عليه عند الظهر فقال: يا رسول الله: أنا رسول ثقيف إليك، أن ابن أبي جذعة أتانا فقال: هذه حلة رسول الله علي أمرني أن أتبوأ (أي بيوتكم) شئت، فقلت هذه بيوتنا فتبوأ أيها شئت: فانتظر سواد الليل وقال: وأتبوأ أي نسائكم شئت، فقلنا: عهدنا برسول الله ﷺ وهو يحرم الزنا، فغضب رسول الله ﷺ غضبا شديدا لم أر أشد منه، ثم قال يا فلان وفلان إذهبا إليه فإن أدركتماه فاقتلاه وأحرقاه "ثم قال: "لا أراكما تأتيانه إلا وقد كفيتماه " قال: فخرج في ليلة مطيرة ليقضي حاجته فلدغته حيه فقتلته، فأحرقه الرسولان، فلذلك قال رسول الله ﷺ " من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" مسند الإمام ربيع.

٣٤- المخلفون من الأعراب

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله سبحانه وتعالى:﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٥- ١٦].

السكان المتنقلون وراء الكلأ والماء، رعاة الشاة والنعم، هم شريحة معروفة ومميزة من شرائح كل شعب في الأرض. فكيف بالشعب العربي الذي يسكن جزيرة مترامية الأطراف، قليلة الماء والأنهار؛ واسعة الصحارى، متباعدة الواحات والقرى، قليلة المدن. فشريحة هؤلاء الأعراب كبيرة، ونسبتها عالية بين سكان تلك الجزيرة؛ مع ما كان لها من صفة الأمية في العهد الجاهلي، حتى في المدن والقرى. فكيف بالبادية و أبناءها؟

فما كانت هذه الشريحة لتهمل، ورحمة الله والخير قد غمرا المدينة وما حولها، وأخذ الناس أماكنهم في الدولة الإسلام، وعرف كل موقعه، وأظهر الطاعة المطلقة لله ولرسوله.

فلا بد من تشذيب وتقويم عقول ونفوس هؤلاء الأعراب، الذين حُرموا التفقه في الدين، لظروف صعبة من السكن والمعيشة، وندرة العلم.

وتعويدهم السكينة والاطمئنان؛ فهم في حالة خوف دائم، لاضطراب مجتمعهم، وما يكتنفه من خيانة وغزو وقتل و نهب.

فكان يجب ترويضهم للدخول في مجتمع تحكمه الدولة، وليسير حسب النظام مدني ثابت ومقياس موحد، ليكونوا أسوداً سهلة الانقياد لإطاعة أولي الأمر، والدخول في نظام أخوة الإسلام، ونصرة الضعيف والمحتاج، وإزالة الطبقية، كما

أمر الإسلام، وتجنب ما نهى عنه.

فجاءت هذه الآيات وما تحويه من تحذير ووعظ وإرشاد، ونقد بناء لأخلاق الجاهلية، مع فضح أفكارهم الخبيثة، ونفوسهم المريضة؛ وذلك لإصلاحهم ليتبئوا قيادة العالم مع باقي العرب، وليكونوا جنوداً أوفياء في صف المجاهدين، لرفع راية الإسلام خفاقة. وتطهير نفوسهم من رين اشتهروا به، ثم النفاق المؤدي إلى الكفر والشك وازدواجية الولاء. والنفاق هو مرض يصيب الأمة من الداخل، فيعظم خطره، ويصعب الاحتراز منه؛ يندس سراً، ويكمن في جحور خفية، وينسل لطعن الأمة على حين غفلة طعنة غدر، من يد حاقد يتربص الدوائر منذ حين.

وقد فضح رب العالمين ما خفى على المسلمين من كيد وشر هؤلاء المنافقين، الذين اتخذوا الإسلام جنة، والرياء رداءاً، والكذب سبيلاً للنجاة؛ تساعد الأعداء سراً، وتسندهم بالقول، وتخذل المسلمين بل وتزرع بذور الشقاق والتفرقة بينهم.

وقد فضحهم، سبحانه وتعالى، وكشف سترهم، وحذر من خطرهم، لا بالوحي في عهد رسول الله ﷺ، فحسب، بل بقرآن يتلى، واضح المعنى، بين الآيات، تنتفع من هذا التحذير أمة الإسلام، إلى أن تقوم الساعة؛ ما دام في الأرض كفر ونفاق يحاربان حزب الله و دين التوحيد.

فكانت هذه المواقف الخسيسة من أصحاب الولاء المزدوج من أسباب تنزيل الآيات البينات، وقد ضمت بين طياتها من الإعجاز وكشف المغيبات الكثير الكثير.

فقد أنزلت هذه الآيات على رسول الله أثناء رجوعه منتصرا موفقا من صلح الحديبية المشهور الذي اعتبر فتحاً مبيناً، ونصراً لأمة الإسلام عظيما.

وكان رسول الله ﷺ، قد استنفر العرب المحيطين بالمدينة للذهاب معه ومع جماعة المسلمين من أهل المدينة للعمرة. يصطحب جمعا كبيرا، ومن قبائل متعددة،

ليظهر حسن النية لقريش، وأنه جاء مع القبائل معتمرا، كحق لكل عربي، بالسماح لهم بالعمرة و الحج؛ فما جاء محارباً ولا غازياً.

ولكن بعض الأعراب، ممن توقع سيرهم معه، قد تخلفوا، ظناً منهم أن قريش ستعترض هذه العمرة، وسيكون قتالا الخاسر فيه هو الأقل عددا وعدة وهم المسلمون.

فلا مجال للمجازفة والسير للموت بأيدي قريش وأحلافها؛ والأمر واضح بين، هكذا وسوس لهم الشيطان والنفس الأمارة بالسوء.

ولكن الله الذي بيده القلوب والنفوس، خالق الخلق، ومدبر الكون، لا يعجزه شيء؛ فقد نصر المسلمين وبدون قتال بتوقيع معاهدة الحديبية المشهورة تلك التي هيأت لفتح خيبر ثم فتح مكة المكرمة فيما بعد وبدون سفك دماء؛ كما أنقذت المسلمين من أحد العدوين التقليديين لهم حتى تفرغوا لمقاتلة الآخر، وانتصروا عليهم؛ وذلك بفتح خيبر، والتخلص من أخر معاقل اليهود في الجزيرة. مع ما أنعم الله عليهم من غنائم كثيرة اختص بها من أطاع أمر رسوله ﷺ، وذلك في تلك العمرة التي انتهت بذلك الصلح الموفق.

وعندما رجع رسول الله ﷺ والمسلمون، وبدون قتال ومعهم صلح لمدة عشر سنوات، مع أقوى الأعداء وأشرسها، أخذ هؤلاء الأعراب الذين تقاعسوا ورفضوا دعوة رسول الله ﷺ للتخلص من موقفهم الذليل ونفاقهم وتقاعسهم، ظانين أن رب العالمين كالبشر، يمكن إخفاء الحقائق عنه، والكذب والمداهنة والرياء تنقذهم عنده، فيرضى عنهم و يعذرهم.

فنزلت هذه الآيات بفضحهم، وكشف سرهم وذلك قبل مقابلتهم لرسول الله ﷺ قال سبحانه وتعالى:﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ ﴾ [الفتح: ١١].

هذه الآية تخبر عن أمر سيحدث في المستقبل، فهي من معجـزات هـذا القـرآن الكريم؛ حيث ذكرت ما سيقوله هؤلاء الأعراب الذين تخلفوا عـن ركـب ومسـيرة رسول الله ﷺ في ساعة يجب عليهم فيها إطاعة الأمر؛ وذلك لتكثير سواد المعتمرين هؤلاء.

يقولون معتذرين شغلتنا أموالنـا وأهلونـا؛ وقـد قـدموا المـال علـى الولـد في عذرهم هذا؛ لحبهم الشديد له، وتفـانيهم في هـذا الحـب. يطلبـون شـفا عتـه، ﷺ، لينجوا من عقوبة التخلف، وعصيان ذلك الأمر.

فـإن كـانوا يعلمـون مقـدار جـريمتهم فهـم في طلـبهم الاسـتغفار يسـتهزئون بالرسول ﷺ، وان كانوا يجهلـون مقـدار جـرمهم؛ فقـد فضـحهم الله المطلـع علـى السرائر؛ حيث كذبهم و أنهم يقولون بألسنتهم مـا لـيس في قلـوبهم؛ وهـذا لعـدم تصورهم إطلاع الله على ما في قلوبهم، وهذا هو عين النفـاق والشـك في صـفات الله علاّم الغيوب.

وهذا فضـح صـريح لهـم، وكشـف لمـا أخفـوه في مكـامن الحقـد والكيـد في صدورهم، رغم اعترافهم بذنب مخالفة أمر الرسول ﷺ والتقاعس والشك والتردد.

ثم يأمر رب العزة رسوله الكريم أن يجيبهم بهـذا الخـط العـريض،و القاعـدة الهامة، في عقيدة المسلم المستنير، حيث يقول سبحانه وتعـالى: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًاۚ﴾ [الفتح: ١١].

فالضر والنفع بيد الله، لا بحراسة المال والولد، والجلوس عندهم؛ فلا يغريكم البقاء والتخلف؛ لرعاية ذلـك المـال، أو أولئـك الأولاد والأهـل؛ أن أراد الله بهـا الضرر، فلا راد لحكمه ولا حامي منه.

وهذه القاعدة العامة التي تنطبق على جميع أحوالنا، وخاصـة في نفـير الحـرب والقتال والتصدي للأعداء. فكم شجاع مقدام سلم ورجع معافا غانمـا، وكـم مـن

جبان كان مهلكه مطويا في جبنه وهروبه من ساحة القتال؛ فسقط في حفرة الموت عند انتهاء أجله.

فالأعمار بيد الله، و الحافظ هو الله، ولا راد لحكمه، ومن يكفر بهذا فهو جاهل بالدين.

وقد ختمت هذه الآية بتحذير من الله، وأنه كاشف السر، ومشاهد الأعمال، و مطلع على النوايا؛ فهو الخبير بعباده، الحكيم في إدارة ملكه.

فما كان تخلفهم إلا للشك و النفاق والظن السيء، وعدم الثقة بنصر الله. قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: ١١] قال سبحانه وتعالى-؛ مفسرا لخبرته هذه ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢].

فقد نفي سبحانه وتعالى – ادعاءهم أن تخلفهم كان بسبب أموالهم وأهلهم؛ بل بما وسوسه الشيطان لهم بهزيمة رسول الله و المؤمنين، وأنهم لن يرجعوا لأهلهم أبداً؛ وفي كلمة﴿أَبَدًا﴾ من التأكيد ما فيها ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الفتح: ١٢].

فحسّن لكم الشيطان القعود، وزينه في قلوبكم، فأطعتموه، وشككتم في نصر الله.

فكان في ظنكم السيء هذا هلاككم، بولائكم لجبهة النفاق، وسيركم في طريق الضلال؛ رغم قربكم من الإسلام و نوره المضيء، الهادي السبيل: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ١٢].

هذه العبارة فيها من زيادة التوبيخ و فضح القلوب ما فيها و ظن السوء: هو عندهم عدم نصرة الله المسلمين. وهذا نشأ عند هؤلاء من عدم الثقة بالله، ومن الشك في الدين.

ثم ختمت هذه الآية بوصف التصق بهم، من الله المطلع على القلوب، حيث مثلهم بالأرض البور التي لا حياة فيها ولا خير يرتجى، قد هلكوا بسبب كذبهم وجبنهم و نفاقهم، حيث قال فيهم، سبحانه وتعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفتح: ١٢].

ثم جاءت قاصمة الظهر؛ حيث ربط سبحانه وتعالى: بين نفاقهم والكفر برباط متين؛ وهو تحذير عظيم، ومصير رهيب، حيث قرن مصيريهما في دخول النار: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴾ [الفتح: ١٣].

كما قرن سبحانه الإيمان بالرسول مع الإيمان لتقاعسهم على نصرة الرسول، ﷺ، ومخالفة أمره؛ فكأنهم خالفوا الله فهلكوا.

ورغم هذا الوعيد والتهديد والتوبيخ فقد أبقى أبواب رحمته بهم مفتوحة، فباب التوبة لم يغلق بل حض عليه لمن تاب و آمن وعمل صالحا. وهذا من فضل الله وكرمه.

قال سبحانه وتعالى – مبينا عظمة ملكه، ومشيئته المطلقة: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [الفتح: ١٤].

فهو مالك الكون والخلق، هو الغني عن عباده، وهم الفقراء إليه.

وما هذا الابتلاء إلا للثواب والعقاب، ولا راد لحكمه، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ثم ختمت هذه الآية الكريمة ببشرى رحمة الله ومغفرته لمن تاب وآمن وعمل صالحا؛ ولا قنوط عند المؤمن؛ لأنه يؤمن أن باب الرحمة و التوبة مفتوحان من فضل الله وما على المؤمن إلا السير كما أمر الله، وإطاعة رسوله، ﷺ.

وأن يعلم أن ميزان رب العالمين في النصر والهزيمة ليس للعدد والعدة، والجاه والمال، وكثرة النفير، وقوة الحصون، بل النصر بيد الله، هو الحاكم المطلق؛ يقلب

القلوب، ويوحي بالنصر، ويبعث الرعب والخوف، ويفت من عزيمة قوم، ويثبت الآخرين ولا يفقه هذا الأمر إلا من استنار قلبه بنور اليقين، ولا يعيه أصحاب المقاييس الدنيوية من الأعراب وغيرهم؛ ممن طمس الله على بصيرتهم، وأهلكهم الشك والتردد، ففسقوا، وضلوا.

قال سبحانه وتعالى – يكشف بعض حجب الغيب الذي لا يعلمه إلا هو: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ [الفتح: ١٥].

والإتباع هنا يوحي بطلب الربح؛ فالقيادة للمتبوع، وما التابع إلا كالكلب يطلب لقمة.

ثم يبين سبحانه و تعالى قصدهم من اشتراكهم في فتح خيبر، رغم أعراضهم وتقاعسهم عن السير في تلك العمرة التي استدعاهم لها رسول الله ﷺ، للسير فيها: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥].

وذلك لأن الله أمر أن لا يشترك في فتح خيبر إلا من اشترك في الحديبية. وخير هذا الفتح لا يكون إلا لهم وحدهم فقط.

والخطاب من الله للرسول محمد ﷺ، يأمره أن يقول لهم: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥].

وإطاعة الله واجبة. ومعنى ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل مقابلتكم ومرجعنا من الحديبية لكم.

ثم يذكر سبحانه وتعالى – مقدار تكالبهم على المال، وانشغال عقولهم في الغنيمة، وإنها هي الهدف من جهادهم، وليس نشر الدين، فيقول: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ

﴿ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الفتح: ١٥].

وفي كلمة ﴿تَحۡسُدُونَنَاۚ﴾ تكذيب واعتراض على حكم الله في غنائم خيبر التي جعلها الله لمن شهد الحديبية فقط، واتهام الرسول محمد ﷺ وللمؤمنين بالحسد؛ وهذا يدل على جهلهم في الدين، وذلك بخروجهم عن أدب المخاطبة، واتخاذهم طريق الشك سبيلا، مع اضطراب مقاييسهم الجاهلية، وتطبيقها على الإسلام؛ وشتان بين الجاهلية والإسلام.

ومن هنا ذكر سبحانه وتعالى بعض أسباب جهلهم، وخشونة كلامهم، وظن السوء الذي يعتريهم، وذلك بقوله: ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة: ٩٧].

ولظروفهم القاسية، وحياتهم المتقلبة، ولبعدهم عن تعلم سنن وقواعد العقيدة، وآيات الله التي من طبعها تنوير المسلم، وتليين قلبه؛ وقد ظهر ذلك عندما اتخذوا المدن والقرى مساكنا وتعلموا الشرع، وفقهوا الدين، ظهر منهم العلماء الإجلاء بل و برزوا في صنوف العلوم المختلفة كغيرهم من الناس.

ورغم ما اشتهروا به من سرعة الغضب، ومناصرة الفتن والكذب والنفاق ووحشية المعشر، فهم الذين كانوا حطب نار حروب الردة بعد موت رسول الله ﷺ فقد استغل طبعهم هذا زعماء الردة والمتنبئون والمنافقون والكفار، لطمس معالم الإسلام، والقضاء على دولته الفتية.

ولكن الله السند الحقيقي، والحافظ الأول والأهم لدينه، ثبت الفئة المؤمنة على رأسهم خليفة رسول الله، أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – فاستطاع بعون الله إخماد تلك الفتن، والتي عم شرها الجزيرة كلها.

بل واستغل رضي الله عنه ما عند هؤلاء الإعراب من طاقة القتال؛ فحولها

بفطنته و سياسته الحكيمة؛ و بعد نظره، إلى محاربة أعداء الله من الكفار خارج الجزيرة، في بلاد الشام العراق وإذا بالإعراب هؤلاء، الذين كانوا من أعظم الخطر على الدولة والدين لجهلهم، و قلة فقههم، يندفعون، وبكل قوة و عزم، لفتح المعمورة، والإطاحة بأعظم الدول صولة وسلطانا فيحطمون الحوافز المادية التي كانت تعيق دعوة الإسلام، فيصل نور الإسلام شعوب الأرض تلك التي استقبلته بكل إجلال واحترام، وجعلت منه المنقذ و حبل النجاة، لإخراجهم من ظلم الحكام والأنظمة الوضعية الجائرة الفاسدة.

وحتى لا يكون الحكم شموليا على جنس الإعراب هؤلاء بين سبحانه وتعالى – الفرق بين الضالين المنافقين فيهم، ونعتهم لنا، وبين المؤمنين العاملين الواعين، ووصفهم لنا؛ حيث قال: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٩].

وفي هذا الاستثناء من تلك الشريحة ما يوحي بالأمل وعدم القنوط فللمؤمن منهم الخير العميم، والفضل الكبير؛ ممن هدى الله وسار في طريق الفلاح والصلاح، فلا محروم من غيث رحمة الله إلا من حرم نفسه وسار طريق الكفر والنفاق، فمصيره النار؛ وأما من تمسك بهذا الدين، وآمن و عمل، وسار مع المؤمنين الصالحين الثابتين، وصل الجنة، برحمة الله و عفوه.

وحتى لا يحصل لهذه الشريحة من الأعراب القنوط والإحباط وفي علمه سبحانه وتعالى أنهم سيكونون حملة راية الإسلام فقد بشرهم بالنصر والمال الوفير، وذلك إن أطاعوا، وجاهدوا في سبيل الله بصدق وإيمان، فصبروا على نشر هذا الدين، قال سبحانه وتعالى مخاطبا رسوله الكريم ليبلغ هؤلاء ويبشرهم: ﴿قُل

لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٦].

وقد ذكرهم الله مؤنبا ومحذرا من مخالفة أمره، والتولي، وعدم إطاعة أولى الأمر من المسلمين، وذلك بقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ ﴾ [الفتح: ١٦].

وهذه الآية من علم المستقبل وقد حصل من حروب الردة والروم والفرس وقد رجح بعض المفسرين أن القوم أولي البأس الشديد هم من العرب " هو ازن وثقيف وقوم مسيلمة الكذاب و أهل الردة عامة " فليس فيهم إلا القتل أو الإسلام؛ أما الروم؛ فمن الخيارات فيهم الجزية، والله أعلم.

وقد بين سبحانه وتعالى أن المال والأهل ليسا من الأعذار المسقطة لفرض الجهاد على الأفراد؛ فالمال والأهل عند الجميع، فلو اعتل كل بهذه العلة لتوقف الجهاد، ولهلكت أمة الجهاد و ذلت.

وقد عدد سبحانه وتعالى، أهل الأعذار بقوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٧].

ومن مفهوم المخالفة فقد ثبت الفرض على رجال أمة الإسلام جميعهم إلا ما ذكر هنا.

كيف بهؤلاء الإعراب الذين قدموا مصلحتهم على مصلحة دينهم قدموا الفانية على الباقية، فأضعفوا صف المسلمين لأنانيتهم، وتحكيمهم المصلحة وحبهم المال والولد والحياة الدنيا وخوفهم من عدد العدو وعدته وكثرة نفيره، والنصر بيد الله، ينصر من يشاء، فهو القوي العزيز.

٣٥- الحمار يحمل أسفارا

بسم الله الرحمن الرحيم

قال سبحانه وتعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢاۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ١ - ٨].

ولقد اختار رب العالمين رجلا من العرب على فترة من الرسل أن يكون خاتم النبيين.

وذلك بعد تجربة بني إسرائيل وتمردهم على أنبيائهم و تخاذلهم عن حمل رسالة التوحيد، وتوقف علاقتهم بالنبوة؛ لتقاعسهم وضلالهم و فسادهم المعروف؛ ولقتلهم الأنبياء بغير حق.

فما وصفهم رب العالمين بمثل السوء إلا وقد تحولت عنهم النبوة لفخذ إسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام، استجابة لدعوة نبي الله إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ﴾ [البقرة: ١٢٩]. وما فخرهم بالكتب السماوية التي نسخوها في قراطيس، يخفون بعضها ويخرجونها حسب الهوى إلا كفخر حمار يحمل كتبا، وليس له منها إلا ثقل الحمل.

وهذا المثل لهم ومن عمل عملهم، ممن اختارهم الله لشرف حمل رسالته، ثم تقاعس وأهمل ما وكل به، وأشغله المال والولد، وزينة الحياة الدنيا، عن حمل الدعوة، ونشرها، والعمل بها.

فهذا المثل ضرب في القرآن الكريم لمن يستفيد منه، لا من ضرب فيهم؛ فالعرب هم أصحاب الرسالة الجديدة، وهي خاتمة الرسالات.

فيحذرهم سبحانه وتعالى: أن يحدث لهم ما حدث لمن سبقهم، من أخذ هذا الدين قولا بلا عمل، وتمنيا بلا تنفيذ.

فسواء ورد كلام الله مشافهة أو مسجلا بماء الذهب، تحتكر فهمه وشرحه ونشره فئة من الأحبار، أو تداوله العامة والخاصة، والأمي والعالم، فالمهم هو الاستجابة لأمر الله، والحرص على الطاعة والتنفيذ، والثبات الدائم على ذلك.

وما أهلك الأمم التي سبقتنا إلا العصيان والفسوق والظلم وإتباع النفس الأمارة بالسوء، والسير على هواها ورغبتها.

فمن ينعم ينتظر الشكر، ومن يأمر ينتظر الطاعة، ومن يسلط البلاء ينتظر الصبر و الثبات، ومن يؤمن بالقرآن كتابا من عند الله يطالب بالعمل بما فيه، ومن أعزه الله فهو العزيز، ومن أذله الله فهو الذليل.

وقد اختار رب العالمين من العرب نبيا رسولا؛ واصطفاه لتبليغ رسالته؛ ليكون خاتم النبيين والمرسلين في هذه الأرض التي استخلفهم فيها، وأمرهم بنشر دين التوحيد في أرجائها. كما بين سبحانه وتعالى أن النبوة ليست حكرا يختص بها شعب دون غيره؛ فالله يعز من يشاء ويذل من يشاء.

وقد رد على من اعترض على حكمه واختياره بمباهلة المسلمين ولكنهم ولثقتهم بسقوطهم في هذا الاختبار، رفضوا تلك المباهلة. ومن حذا حذوهم فهو مثلهم، ومن لم يحافظ على الأمانة وحملها و حمايتها، فقد عصى ربه؛ وجزاء الخائن

العاصي هو النار؛ فالحذر الحذر من تخاذل و خيانة للأمانة تؤدي بصاحبها إلى النار. قال سبحانه وتعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

فكل ما في الكون مُمجد ومُعظم و طائع لله الخالق القادر من جمادات ونبات وحيوان وإنسان بأجزائها وأعضائها. وقد غلبت "ما" على غيرها للكثرة وكلمة "يسبح" كفعل مضارع يفيد الاستقبال واستمرار التسبيح والطاعة، وهو مالك الكون وما فيه، الرازق هذا تعريض بمن ترك صلاة الجمعة لاستقبال قافلة الشام التي حضرت وقت صلاة الجمعة، وانفض كثير من الناس لاستقبالها. المنزه على النقائض، العزيز في قدرته، صاحب الحكم المطلق في الكون وفي قدرته محق اليهود إن باهلوا، وإماتتهم. الله الصانع المدير لهذا الكون، تجلت حكمته في اختيار العرب لحمل رسالة الإسلام للعالم عامة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

من فضل الله على العرب أن جعل القرآن الكريم بلغتهم، فسهل عليهم فهمه وفقهه، وبعث فيهم رسولا منهم، أمياً لا يقرأ ولا يكتب، يمتد نسبه في خير قبائلهم، ومن الذؤابة فيهم، ومن جوار بيت الله الحرام المعروفة سدنته وأصلوهم وتقدير العرب عامة لهم.

وهذا الرسول الكريم – ﷺ، يتلو عليهم القرآن الكريم، فيظهرهم به، ويعلمهم الأوامر والنواهي، وما أحله الله وما حرمه، ثم طبقه بإرادة الله وتوفيقه عمليا عليهم، وشرعه مبينا مبهمه وهذه هي الحكمة رغم ما كانوا فيه من ضلال معروف، وجهل ظاهر مبين.

ثم تأتي البشرى لذرا ري هؤلاء المؤمنين أنهم سيسيرون على نهج الآباء في

الإيمان والتضحية من أجل نشر هذا الدين.

﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجمعة: ٣].

فسواء كان هؤلاء "آخرين" هم من العرب كما توحي بذلك "الهاء" بكلمة منهم، ويؤكد ذلك قوله ﷺ: عن سهل بن سعد قال رسول الله ﷺ" أن في أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالا ونساء من أمتي يدخلون الجنة من غير حساب ثم قرأ ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجمعة: ٣] الطبراني وابن مردويه.

أو من غير العرب مع العرب، ممن هدى الله من شعوب الأرض، عن أبي هريرة قال: "كنا جلوسا عند رسول ﷺ حين نزلت سورة الجمعة فتلاها، فلما بلغ ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجمعة: ٣].

فوضع يده على سلمان الفارسي وقال: "والذي نفسي بيده، لو كان الإيمان بالثريا لنا له رجال من هؤلاء" البخاري.

يسيرون على هديهم، ويتمسكون بهذا الكتاب المنير، ويطبقون أحكامه، ويثبتون أركانه وأركان دولة الإسلام الحارس الأمين لحفظ ونشر وتحطيم الحواجز المادية التي تعيق نشر هذا الدين وتطبيقه.

وهذا كله من فضل الله، سبحانه وتعالى، يعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير، فما شاء فعل؛ وخير عام لا يخص به شعبا دون الآخر، وفضله على مخلوقاته كبيرها وحقيرها، المشاهد فيها والمخفي، وحكمه نافذ ولا مرد له. ثم يذكر سبحانه وتعالى من أعز وأكرم من أجيال تبعت هؤلاء المؤمنين من عرب وعجم من شعوب هذه الأرض. وهي بشرى عظيمة باستمرار هذا الدين عبر العصور مع الأجيال اللاحقة المتمسكة بشرع الله و بكتابه الكريم.

وكانت البشرى للمؤمنين في أول ما نزل من قرآن وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤ - ٥].

فكان أن سار القلم والقراءة والعلم جنبا لجنب مع السيف لحماية ونشر هذا الدين القويم حتى دخلت شعوب من العجم فيه وانصهرت في بوتقته واستلت السيف لحمايته والقلم لنشر معارفه كباقي المسلمين تجمعهم الأخوة الإسلامية والقبلة الواحدة و المصير الواحد والدولة الواحدة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤] وقد قرن هذا الفضل بزعم يهود أنهم أولياء الله من دون الخلق، وطلب منهم المباهلة وهو تمني الموت للاجتماع مع الذي فضلهم على أبناء آدم الذي و كما يزعمون رفعهم وفضلهم على غيرهم من خلقه، ولكنهم قد كذبوا؛ إنما هي أمانيهم، وأين الخيال من الحقيقة؟ فضرب الله بهم مثل السوء حيث قال فيهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥] فقد مثلهم سبحانه وتعالى بالحمار الذي يحمل الكتب القيمة المنيرة والأسفار من قولهم أسفر الصبح أي وضح نوره وأضاء والحمار لا يستفيد من حمله الكتب بل نصيبه الكد والتعب وثقل الحمل، ولا يفرق فيما يحمل بين الذهب والزبل.

وقد كذب أهل التوراة الذين عنتهم هذه الآية بعض آيات الله، وعلى رأسها بشرى رسالة الإسلام، وخاتم النبيين محمد ﷺ، فقد بشرت به التوراة والإنجيل. ولكنهم، أنكروا هذه الرسالة وصفات رسول الله محمد ﷺ وبهذا قد حرموا أنفسهم الهداية لظلمهم وكيدهم وكذبهم وكفرهم.

﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ تفيد العموم فمن حمل كتاب الله ولم يعمل به انطبق عليه ما

انطبق على اليهود؛ فهو ظالم أو فاسق أو كافر. و"عملوا" كلفوا بالمحافظة عليها والعمل بها. و"لم يحملوا" المضارع يفيد الاستمرار في العصيان و الفسوق، وترك العمل بها في هذه الآية.

ومقارنة بين أمة الإسلام ومن سبقها من الأمم التي تعتز بالعلم ونشره: فما أن أعز الله أمة الإسلام بهذا الدين حتى غدت الطليعة بين أمم العالم والحكمة والمعارف؛ العملي منه والنظري وبرزت في سياسة الدول والشعوب، وتطبيق شرع الله، والتمسك به، ونشره بين الأمم؛ فكانت أن دخلت، لعد لهم وحسن معاملتهم، شعوب كثيرة في هذا الدين واستنارت به، وانصهرت في بوتقته. وجاهدت في الله حق جهاده؛ ومن هذه الأمم الفرس والروم والقبط والبربر والترك والهنود. والتاريخ يشهد، وعلماء العالم لا تنكر ذلك.

فليس الدين هو أمر أحكام وتعاليم تنسخ و تطوى بين صفحات كتب، وتبقى بين فئة أحبار ورهبان، أسرارا متوارثة تخفي بعضها، وتظهر الآخر، وتغير وتبدل حسب الهوى والحكام والظروف المحيطة.

ولتعنتهم وكذبهم وإخفائهم ما ائتمنوا عليه من حقائق؛ ابتلاهم ربهم بالمباهلة هذه. فعلم سبحانه وتعالى المسلمين والرسول محمد ﷺ كيف يجيبوهم على كذبهم وتعنتهم و قولهم: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة: ١١١].

وقولهم ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

والمباهلة: هي نوع من التحدي لهم بأن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين في دعواهم: أنهم أولياء لله من دون الناس و أحباؤه؛ فمن يحب يتمنى الموت ليجتمع مع ذلك الحبيب. وقد كذبهم رب العالمين حيث قال فيهم ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا﴾ [الجمعة: ٧].

وذلك بما ارتكبوا من آثام وعملوا من جرائم وكذب وافتراء وخداع وكيد، وهذا ما قدمته أيديهم لأخرتهم، واستساغته نفوسهم؛ فحرموا رضى الله، وقطعوا حبل الله المتين الذي يربط المؤمن الموحد بربه.

وقوله سبحانه وتعالى لهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦].

هو نوع آخر من التحدي والعلم المسبق بأنهم لن يقدموا على تلك المباهلة، ولم يتمنوا الموت. ثم يختتم هذه الآيات البينات بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٧] فقد وصفهم بالظلم لعلمه بمكرهم وفسوقهم وكذبهم ولو كانوا صادقين حقا، لتمنوا الموت.

قال أبو جهل لعنه الله إن رأيت محمدا عند الكعبة. لآتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال رسول الله ﷺ: "ولو فعل لأخذته الملائكة عيانا ولو أن اليهود تمنوا الموت لما توا و رأوا مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلا ولا ولدا " رواه أحمد.

ثم يصف سبحانه وتعالى لهم هذا المخيف المرعب، وذلك الدمار الشامل، والخطر الواقع المحيط بالخلق عامة، مهما طال العمر، وشرب الدواء وراجع الحكماء. نعم إنه الموت الذي يفر منه الجبان، وتهابه الجبابرة؛ ذلك الذي خافته اليهود؛ فرفضت تلك المباهلة، خافت تلك المقابلة يوم الحساب، يوم كشف السرائر قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

فالموت محيط بالجميع، وأينما هربوا، وأينما اتجهوا؛ فهو قد أغلق عليهم المنافذ؛ وملاقاته هي مفاجأة للهروب لا مفر منها؛ ثم يرد الجميع لموقف الحشر للحساب أمام رب عادل مطلع على كل شيء هو العالم بالسر وأخفى؛ فيخبر

الجميع بما عملوا، أحصاه ونسوه، لا مجال للكذب والتزوير والفجور؛ فالجلد والأطراف تشهد على صاحبها الآثم.

وفي هذه الآية عظة وحث المسلمين على الجهاد، والإقدام في القتال والحرب؛ وذلك لان الأعمار بيد الله، وسبب الموت هو انتهاء الأجل فقط.

هذه الآيات البينات تذكر العرب عامة وقريشا خاصة؛ بفضل الله عليهم؛ وذلك بإرسال كتاب بلغتهم ينير لهم الطريق المستقيم، طريق الخير والفلاح، رغم أنهم أمة أمية، ورسولهم أمي مثلهم؛ ولكن الله فعال لما يريد؛ فقد حول، بفضله وكرمه ورحمته هذه الأمة المشهورة بالجهل إلى أمة علم، بل وتنافس، وتتفوق على الأمم الأخرى التي كانت قد سبقتها منذ آلاف السنين، وذلك بفضل الله.

تقارن هذه الآيات الكريمة المنيرة بين عمل علم الكتاب بين اليهود الذين اشتهروا عبر التاريخ بالعلم والقراءة والكتابة، ولكنهم، رغم هذا؛ مثلهم بأسوأ التمثيل، كالحمار الذي يحمل الكتب القيمة الهادية لغيره، وأما هو فليس له إلا ثقل الحمل.

فليس عمل الكتب و تزيينها هو المفيد المكرم لصاحبه، المعزله، بل العمل بما فيها هو الأصل والمهم، فما فائدة تلك الآيات بنعتها أمته بخير الصفات، وأصحاب هذه الآيات يكفرون برسالة محمد ﷺ بل ويناصبونه العداء، متناسين أنه مرسل ومختار من مرسل الكتاب الله العزيز الحكيم.

الافتخار هو بالعمل الصالح؛ فهو فخر بحق إلا بطاعة الله المنجية يوم لا ينفع مال ولا بنون.

نرفع أيدينا وهي ملطخة بالحرام، ونلهج بالدعاء بفمٍ يحصد الأخضر واليابس من أموال الربا والاحتكار والغش والسرقة والاحتيال والتدليس.

نتحدى الرب الخالق القادر الرازق بإعراضنا عن العمل بما أمرنا به في كتاب

حفظه من التحريف والتغيير والتبديل، نقرؤه رطبا كما أنزل، تظهر معجزاته ظهور القرون والسنين، فإن لم يطبق علينا مثال الحمار يحمل كتابا لا يستفيد منها إلا ثقل الحمل هذه الأيام، فقد يطبق علينا قريبا ما دمنا نتخذ كتاب الله مهجورا، ونرضى بأحكام الكفر ونحذف من حياتنا أحكام الإسلام العادلة المنيرة، نسير في طريق الشر والمعاصي، نحسب أننا نحسن صنعا، نسير في طريق الشيطان ولا نبالي بالمصير الذي حذرنا الله منه.

٣٦- الاستقامة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

وبعد أن استعرضت الآيات البينات في هذه السورة ما حصل لبعض الأمم السالفة؛ وخاصة ما كان من تلك الأمم قريبا من قريش في الزمان أو المكان أو وصلت أخبارها أو قصص هلاكها لقريش.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٠] فمنها لا يزال فيه بقية يشاهدها الناظر، كالا هرمات بمصر وقصور ملوكها وبقايا مدائن صالح والبتراء، ومنها ما سقطت أروقتها وأعمدتها كالزرع المحصود المحطم.

وعرض قصص هذه الأمم التي دمرت هو تهديد ووعيد لقريش خاصة، وللمشركين عامة، ممن أغواهم الشيطان فساروا على نهج تلك الأمم الهالكة؛ بمقاومتهم دعوة التوحيد، وتعذيب المسلمين، وتهجيرهم، وصدهم عن السبيل القويم.

وقد طمأن سبحانه وتعالى المؤمنين، إن هم ثبتوا واستقاموا وتمسكوا بهذا الدين، أنهم في مأمن من العذاب والحزن: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣].

قال سبحانه وتعالى مخاطبا رسوله الكريم: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢].

و"الاستقامة " هي السير حسب ما أمر الله بدون إفراط ولا تفريط. والذين تابعوا معه هم صحابته، ﷺ ومن تبعهم من أمته. فالاستقامة على السير على الصراط المستقيم مطالب بها كل مسلم؛ ومن حاد هلك.

عندما نزلت هذه الآية الكريمة قال رسول الله ﷺ: "شمروا شمروا" ابن أبي حاتم.

والتشمير: هو السير بحذر من الوقوع في المعاصي كشخص يسير بأرض شوك. وعن ابن عباس أنه قال: ما نزل على رسول الله آية هي أشعر، ولا أشق من هذه الآية عليه، وذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب!قال: "شيبني هود و أخواتها ". الترمذي.

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك. قال: "قل آمنت بالله ثم استقم" رواه مسلم.

وأما الطغيان فهو تجاوز الحد والتجبر في الحكم و الولاية، وتحميل النفس فوق الطاقة، أو أن تحلوا و تحرموا حسب الهوى، فتعطلوا أحكام الله، وتنحرفوا.

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فهو يرى ما نعمله من خير وشر، ويجازينا عليه؛ وهي تهديد و تحذير من ترك الخط المستقيم. والطغيان هو الغلو والإفراط في الطاعة والعبادة، كمن يحمل نفسه فوق طاقتها، وقد صح عنه، ﷺ، أنه قال: "أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأنكح النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" رواه مسلم وهذا القول فيمن ابتدع صوم الدهر، وقيام الليل كله، والتفرغ للعبادة بترك الزواج والانشغال بالعبادة عن الحياة الدنيا.

والغلو يحول اليسر في هذا الدين إلى عسر؛ فقد نهى عن الطغيان والمجاوزة: وهي تحديد لمعنى الاستقامة؛ فلا قصور ولا تقصير ولا طغيان ولا مجاوزة.

وهذه الآية بل تلك السورة بمجملها تحدد سلوك الداعية وصبره ووجوب ثباته، وأن يتحمل مشاق الدعوة، كما تحملها الأنبياء عليهم السلام، ومن شايعهم من المؤمنين الأخيار، عبر التاريخ وما واجهوا من فساد وطغيان من الكفار والمنافقين وحزب الشيطان.

فالاستقامة عامة في كل سلوك الفرد والجماعة والداعية والولاية والنبوة؛ فهي خط قد رسمه وأقره وأمرنا بالسير فيه رب العالمين.

كما أمرنا سبحانه و تعالى بالصبر والثبات، ومقاومة الشيطان وتزيينه وإغرائه، وهوى النفس الأمارة بالسوء، والمغريات المحيطة بتلك الطريق؛ وما يثبت على السير في هذه الطريق إلا من أعانه الله وهداه.

قال سبحانه وتعالى في ثقل السير في هذا الطريق القويم، مخاطبا رسوله محمد ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

والهاء في ﴿إِلَيْهِمْ﴾ ترجع لمشركي مكة المكرمة.

وقد أمر سبحانه وتعالى رسوله الكريم بالتمسك بأمره؛ ففيه النور الذي يجعلنا على الخط المستقيم الموصل الأبواب الجنان قال سبحانه وتعالى مخاطبا رسوله الكريم محمدا ﷺ، وأمته الماجدة الصابرة الطائعة: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٤٤].

وذكر القوم هنا تذكير للعرب عامة، ولقريش خاصة، بوجوب شكر الله على فضله ورحمته، وما شر فهم به الله من جعل لغتهم هي لغة كتاب الله الكريم، تنتشر في أنحاء العالم، كنور الشمس، وتُسمع من علا شرفات المآذن، وفي المساجد؛ بل وتكون هي لغة الملأ من عرب وعجم، وفي المحافل الدولية.

وسوف تسألون عن هذه المكرمة، وشكركم علها. وهي تـذكرة تـذكرون بهـا أمر دينكم الذي أعزكم، وتعملون به.

ويحذرنا سبحانه وتعالى من الظالمين ومعاملتهم. كما يحدد علاقتنا بهم، حيـث يقول: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

الركون: هو الميل و الحب والإيمان والمداهنة، فينهانـا، سـبحانه وتعـالى، عـن حب تلك الشريحة. ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ اسم موصول و جملة صلة. فالتحذير من عموم الظلمة كافر هم ومنافقهم ومسلمهم؛ فالتعامل معهـم ومجالسـتهم يجـب أن تكـون بحذر، مع محاولة الأخذ بالعزيمة بالنسبة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والركون إليهم نتيجته النار. ومن عاشر قوما صار منهم ويجمع الإنسـان يـوم القيامة مع من أحب.

ومن الركون إليهم ذكرهم بالحسن والطيب، وتقليدهم ونجـدتهم ومـوالاتهم، والسير في طريقهم لإرضائهم، والسـكوت عـن انحـرافهم عـن الـدين، ومخـالطتهم لتكثير سوادهم.

فما دام الركون للظالم فيه خطـر النـار. فكيـف بالظـالم نفسـه؟ اللـهم عافنـا، وألطف بنا! ولا تكلنا لأنفسنا طرفة عين.

وليتذكر من يخالطهم أنه يعيش بـين جحـور الثعـابين وليتوقـع اللـدغ في كـل لحظة. وأن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

قال رسول الله محمد ﷺ: "من مشى مع ظالم ليعينه وهـو يعلـم أنـه ظـالم فقـد خرج من الإسلام" رواه أحمد.

وما أحسن ما كتبه بعض الناصحين للزهري حين خالط السلاطين: ".. أخذ الله تعالى الميثاق على العلماء، قال سبحانه وتعالى: "لتبيننه للناس و لا تكتمونه" وأعلم أن أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت إنك آنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوك ممن لم يؤد حقا ولم يترك باطلا حين أدناك؛ اتخذوك قطبا تدور عليك رحى باطلهم، وجسرا يعبرون عليك إلى بلائهم وسلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، يدخلون الشك بك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء؛ فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك في دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٩].

فإنك تعامل من لا يجهل و يحفظ عليك من لا يغفل؛ فداو دينك فقد دخله سقم، وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض و لا في السماء والسلام". روح المعاني للألوسي البغدادي.

٣٧- أهل النار يستغيثون

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٠ - ٥٣].

وانتهى الحساب وفرح المؤمنون بمقعدهم في روضات الجنان، يرفلون في حلل العزة والكرامة، بجوار رب رحيم كريم، أطاعوه في الدنيا فأكرمهم في الآخرة، ومن أوفى بعده من الله

وعندما استقر بهم المقام تذكروا الظالمين العصاة من الكفار والمنافقين، ومصيرهم السيء فنادوهم تبكيتا لهم، ولإيقاع الحسرة في قلوبهم زيادة على ما هم فيه من البلاء والسعير و الحرمان.

حيث قالوا لهم مذكريهم بوعد الله للبشر كافرهم ومؤمنهم: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

ثم تعرض هذه الآيات البينات موقف رجال الأعراف، وهم من تساوت حسناتهم مع سيئاتهم في ذلك الميزان العادل؛ فهم يقفون بين الجنة والنار، يلتفتون نحو الجنة، فيرون ما فيه أهلها من نعيم مقيم، فيطمعون في دخولها، وعندما تحول وتصرف أبصارهم نحو أهل النار، ويرون ما فيه أهلها من عذاب و نكال يستعيذون

بالله من شرها ويلجأون إليه من سعيرها قائلين. ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧].

وأثناء هذه المقارنة و ما احتوته من دقة وصف تلك الفئات الثلاث وما هم فيه يبرز رب العالمين طلب أهل النار وهو أهم وأعظم ما يحتاجونه ويطمعون فيه، وهو الماء، ذلك الخير الذي كانوا يتنعمون به في حياتهم الدنيا، ولم يكونوا من الشاكرين؛ فيقول سبحانه وتعالى واصفا طلبهم هذا: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[الأعراف: ٥٠].

المتكبرون المتعجرفون في هذه الدنيا يطلبون الماء و بعض الطعام من أهل الجنة. وأين المزارع والأطيان؟ وأين القصور والحدائق؟ أين الشرط والخدم؟ أين القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة؟.

فليتعظ أهل العقول النيرة، فيتجنبوا ناراً وقودها الناس والحجارة. يطلبون الماء الوفير في الدنيا فلا يجدونه في أودية النار؛ يستغيث الحبيب بحبيبه، والأبن بأبيه والأخ بأخيه يطلبون شربة ماء فلا يستجاب لهم، بل تردعهم كلمة قنوط: أن تلك الخيرات هي محرمة عليهم وعلى أمثالهم من الكافرين الظالمين فلا مواساة فيها.

هذا الذي غمس نفسه في مستنقع الربا والغش والاحتكار والسرقة والرشوة لبناء القصور العالية، يتحفها بالرياش الثمينة، والحدائق الغناء، والروضات الفيحاء؛ يطلب ممن ورث هذه النعم شربة ماء فلا يستجيب له، بل يهمل سؤاله. وإن أجاب فسيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[الأعراف: ٥٠].

وبين سبحانه و تعالى – سبب حرمانهم الخير حيث قال: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾ [الأعراف: ٥١].

فاللهو واللعب ما في الحياة الدنيا الغرورة من أمور مغرية شغلتهم عن العمل بما أمر الله، ونسوا مواقف وأهوال يوم القيامة والنار و ما حذرهم الله منه.

ثم يبين، سبحانه وتعالى، جزاء الظالمين، وحكم الله فيهم حيث قال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٥١].

الجزاء من نفس العمل هم نسوا أحكام الشرع، ولم يعملوا بها؛ فكان الجزاء تركهم في النار كالمنسي. ومن أعظم العقوبات الحبس مع النسيان فيه، حتى أن نبي الله يوسف، عليه السلام رغم صبره وثباته، يقول للذي نجا من السجن: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ خوفا من أن ينسى في سجنه.

الجحود: هو استمرار الإنكار و السير في الجريمة و الكفر.

ثم يذكرنا سبحانه و تعالى بأهمية القرآن الكريم في إنقاذ البشرية من الضلال حتى تقوم الساعة، فهو خاتم الكتب والمهيمن في تعاليمه على ما سبقه من كتب، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٢].

هذا الكتاب هو هدى ورحمة لمن اعتقد عقيدة الإسلام، ثم آمن وعمل وسار على طريق الفلاح والصلاح.

ويذكر سبحانه وتعالى فضله على البشرية، بتفصيل أحكام القرآن الكريم وتطبيقه عمليا على الأحداث من عهد رسول الله محمد ﷺ، مما ساعد في فهمه، عبر العصور

وتنكير كلمة﴿عِلۡمٍ﴾ هنا للتعظيم، أي أن الكمال لله وحده، فهو العالم بمصالح عباده، فأمره منسجم مع ذلك، وهو الحكيم الخبير.

ثم يؤكد أن نعيم الجنة هو للمؤمنين، ولهيب النار للمشركين وهذا هو تأويل ما حوته آيات كتاب الله من بشرى للمتقين وتهديد ووعيد للكافرين. قال سبحانه وتعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣].

أي ما يؤول به من أمر يوم الحساب والجنة والنار.

والاستفهام هنا إنكاري ووعيد فهو يذكر بيوم القيامة، حيث تظهر الحقائق لمن نسوها أو تناسوها؛ فيتذكرون ويندمون، لكن لات ساعة مندم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [الأعراف: ٥٣].

يتذكرون ما بلغته رسل ربنا لهم، وكيف كان إعراضهم، وكفرهم، ثم ينتقلون إلى التمني وقد يئسوا من النجاة فهم يبحثون عن مخرج وقد أحيط بهم؛ ولا مفر من الله إلا إليه.

ولكن هذه الأمنيات جاءت متأخرة، ولا راد لحكم الله، حيث يجيبهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

فأنفسهم كانت بلاء عليهم، فقد تخلت عنهم أصنامهم وكما كانوا يعبدون من غير الله حتى الشيطان قد تخلى عنهم، واعترف لهم بكذبه عليهم، وغوايته لهم: ﴿قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ تؤكد خلودهم في العذاب، والنار هذا من أشد البلاء، وأعظم الكرب، فلا شفيع، ولا رجوع لإعادة الاختبار.

والتفصيل مع تصور الموقف يفيد التهويل والتخويف من غضب الله. ولا يستفيد ويتعظ من هذه الآيات الحكمة إلا من استنار قلبه بنور الإيمان، وألهمه الله التقوى وثبته بالقول الثابت في الدنيا والآخرة، فسار في طريق الخير، طريق الصالحين.

٣٨- الإناث من البشر

من الخطأ و الخطر، والتطاول على صاحب الأمر أن يتدخل المخلوق في أمر يخص الخالق، و الخالق فقط.

فما كان لبشر عاجز محدود القدرة و القوة، مصيره المحتوم إلى الموت فالتراب؛ أن يتدخل في خلق بشر؛ أو اختيار نوعية هذا البشر: خلقه ورزقه وحياته ومماته من اختصاص العليم الحليم.

وما كان لبشر أن يعترض أو يتدخل في أمر هو من اختصاص خالقه، فخلق الإنسان ذكرا كان أم انثى، هو اختصاص الخالق القادر الحكيم.

قال سبحانه وتعالى يبين علاقته الكاملة المطلقة في خلق الإنسان حيث يقول: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٤٩ - ٥٠].

فقد حسمت هذه الآيات الكريمة، وغيرها من الآيات البينات أمر الخلق، وأنه بيد الله لا يشاركه فيه أحد، قال سبحانه و تعالى في هذا الأمر: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ [الأعراف: ٥٤].

إذن ما جريمتها، وقد خلقت أنثى؛ فالإنسان يحاسب على أفعاله التي يعملها مختارا، فلا مجال له في التدخل في أمر خلقه؛ فالنوع واللون والطول والقصر والحياة والموت والرزق كلها بيد الله خاصة به، سواء نتج منها خير أو شر حسب وجهة نظر ذلك المخلوق فما عليه إلا الطاعة و الصبر و التحمل؛ ثم إسناد الأمر لصاحب الأمر. الله هو واضع التوازن في هذه الأرض بين الذكور والإناث.

والإيمان بقدر الله هو من الأسس في شريعة الإسلام العادلة الشاملة؛ فهو من أركان الإيمان، فالتدخل في قدر الله جريمة وإخلال بركن من أركان الإيمان.

فكان من أعظم و أبشع جرائم العرب الجاهلية: هو ما وسوس لهم الشيطان والنفس الأمارة بالسوء من التدخل في أمر هو من اختصاص الخالق؛ معتلين بعلل حسب أهوائهم، ذلك تميز الذكور؛ ورفع شأنهم وذكرهم ووصم الإناث بصفات الوضاعة، واحتقارهن، وكأنهن اخترن خلق الأنوثة فيهن.

فمن هنا نرى الآيات في كتاب الله الكريم، تركز على علاج هذا المرض العضال الذي يهمل و يحتقر نصف البشر؟ لا لسبب بل لهوى النفس، وسوسة الشيطان الرجيم و مساعدته للانتقام من آدم – عليه السلام – وذريته.

فمن الشرائح الشاذة في المجتمعات احتقار جنس الإناث من البشر؛ واعتبار الذرية الصالحة هم الذكور؛ وقد تولد عن هذا المرض العضال أن اعتبرت الجاهلية العربية جنس الإناث كالمتاع والأنعام توزع مع الإرث، ولا يوزع الإرث عليها كالرجال.

وقد وصل الأمر ببعض العرب الجاهليين أن كانوا يئدون البنات، فدفنهن وهن أحياء؛ وذلك خوف العار في الحروب والأسر، وإما من الفاقة والفقر كما ذكرت الآية الكريمة التالية: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣١].

وكلمة "إملاق" تعني الفقر. وقد تعهد رب العزة في هذه الآية الكريمة برزق الجميع البنين قبل الآباء، كما اعتبر قتلهن واحتقارهن هو من أخطاء الجاهلية العمياء.

وقد استنكرت الآيات الكريمة هذا العمل الفظيع والجريمة النكراء والتهديد

والوعيد من الله، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير: ٨ - ٩].

والمسؤول هو القاتل حقيقة، وما سؤال الموؤودة إلا للاستنكار والوعيد لمن يقدم على الوأد، وقتل الأحياء بدون حق ولا مبرر ولا سبب.

ثم تستمر الآيات الكريمة في فضح نفوس الجاهلين، ونقد عقيدتهم، وخاصة ربطهم بين الملائكة وما يحتقرون من جنس البشر، وهن النساء، حيث قال – سبحانه وتعالى –: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢٧].

وقوله تعالى أيضا: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١ - ٢٢]. وكلمة "ضيزى" أي جائرة.

وهذا يدل على خبثهم وفسوقهم وكفرهم. يريدون لله ما لا يريدونه لأنفسهم.

وقد بين سبحانه وتعالى زيف اعتقادهم، وسوء نفوسهم، وأنهم ليسوا على شيء في معتقدهم ودينهم، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ۝١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزُّخرُف: ١٦ - ١٧].

فلا يكفيهم الشرك، وما هم فيه من الضلال والعناد؛ بل تعدى ذلك إلى عدم العدل في القسمة؛ حينما نسبوا إلى الله الخالق ما يكرهون، ونسبوا إلى أنفسهم ما يحبون؛ وقد وصفت هذه الآيات الكريمة حالهم، وقد بشر أحدهم بالأنثى، وكأنها عار ومنقصة.

حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

ومعنى كلمة "سبحانه" تنزيهه عما يفترون، وهو جعل البنات حصته، وهم لهم الذكور؛ لأنهم يأنفون من خلفة البنات، و يترفعون عنهن.

وتصف الآيات هذه، وبكل دقة، موقف وشكل ووجه من يبشر بأنثى، حيث يقول سبحانه و تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل: ٥٨].

فسواد وجهه لكظمه الغيظ، وقد امتلأت نفسه بالحزن و الغم.

ثم يصف سبحانه وتعالى حيرة هذا الذي بشر بتلك الأنثى، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٩].

ولعظم الخزي يحاول أن يختفي عن المجتمع، وهو متردد حائر بين يترك هذه الوليدة حية ويتحمل الهوان والمعارة، رغم أنفه، أم يحفر لها حفرة فيدفنها حية، للتخلص من همه وحزنه بسببها.

وقد استنكر رب العالمين حكمهم الظالم الشاذ الغريب هذا. وكلمة "يدسه" بمعنى يخفيه لعظم الخزي منه فلا يريد أن يطلع عليه الناس.

و مقارنة بين هذا الموقف وما فيه من غرابة وشذوذ لا توافق الفطرة والرحمة وحسن العقيدة، وبين هذا الحديث الذي روته أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها-: حيث قالت: "جاءتني امرأة و معها ابنتان لها، فسألتني فلم، تجد عندي غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيء، ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخل علي النبي ﷺ فحدثته حديثها، فقال النبي ﷺ: "ما ابتلى من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار" رواه مسلم.

وفي حديث آخر عن أنس بن مالك. قال: قال رسول الله، ﷺ: "من عال

جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو. وضم أصابعه" رواه مسلم.

ولمن يقوم بالوأد أو باضطهاد الأنثى لأنها أنثى المثل السيء قال: سبحانه وتعالى فيه: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النحل: ٦٠].

المثل الأعلى لله الذي شمل كرمه وعلمه وغناه جميع خلقه، وأما الجهل والكفر والفسوق فهي صفة أصحاب المثل السيء الذين يتدخلون في قدر الله وهم عاجزين عن رد الموت عن أنفسهم، وعن جلب الرزق والخير لها.

ثم ذكرت هذه الآية تأخير عذابهم لما بعد الموت، من التهديد والوعيد ما فيها، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١].

وقد حددت هذه الآية المباركة معنى الموت، وذلك بانتهاء الأجل الثابت المحدود. ثم بينت أنه لو ربط الأجل بأعمال الناس والانتقام منهم لما ترك على الأرض من أحد؛ وذلك بكثرة الظلم.

وهناك نوع آخر يظهر فيه حمقهم وجهلهم، وذلك هو نسبه ما يكرهونه لله، وما يحبونه لأنفسهم: فالبنات لله، والأولاد لهم؛ وذلك لزيادة التوبيخ والتقريع وتأكيد ما مر من قولهم وتزيين الشيطان لهم، ثم يذكر من قبائحهم وكذبهم أن لهم الحسنى، حيث قال سبحانه وتعالى فاضحا ومبينا كذبهم وافتراءهم على الله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ [النحل: ٦٢].

"المفرط" هو المسرف في ارتكاب المعاصي والجرائم. وقد حكم عليهم بدخول

النار قبل يوم الحساب، وذلك لكذبهم وكثرة جرائمهم وعصيانهم وفسوقهم.

هذا؛ وجاهلية هذا العصر هي أعظم تعسفا وأنكى جرما، وأكثر فسادا من جاهلية العرب التي نزلت فيهم هذه الآيات حيث ذمتهم و توعدتهم لوأدهم البنات، فالوأد في هذا العصر، عصر الخير العميم، والمال الوفير؛ عصر كنوز الأرض التي ظهرت، واستغلت لمنفعة الناس، عصر الآلة التي ضاعفت خيرات الأرض النافعة.

ورغم ذلك تحدد بعض الأنظمة الوضعية الجائرة الفاسدة عدد المواليد في الأسرة الواحدة، يرافق ذلك الدعاية القوية التي تتبناها تلك الأنظمة؛ لتحديد النسل، والتبشيع بكثرته.

وقد استشرى شر هذا المرض الفتاك الخطر، حتى أصبح خلقا و عادة من عادات الجاهلية الحاضرة، سببها سيطرت العقول الناقصة المتناقضة المحدودة الفهم؛ المسيطرة على تلك الأنظمة الوضعية الحاضرة المطبقة في بعض البلاد الاشتراكية كالصين؛ حيث يرمي بعضهم الأنثى من أبنائه في البحر، أو يتخلص منها بأي طريقة أخرى؛ وذلك لعله ينجب بدلها ولدا ذكرا، وحتى لا يفقد امتياز تحديد النسل المطبق في بلاده، حسب نظامهم المتبع في تلك البلاد.

وهذه الجرائم المخالفة لفطرة الإنسان سببها العقيدة الفاسدة الضالة المضلة، وعدم الإيمان بخالق للكون يديره ويرحمه ويغدق نعمه عليه. وما من نسمة تخلق إلا عليه رزقها، فلا خوف من نفاذ رزقه وخيره.

فهذه العقائد المحدودة الفهم، السطحية الفكر، تخالف فطرة الإنسان من حب الولد الذكر والأنثى معا، وتكثير النسل، واحترام إنسانية الإنسان، وتنظيم غرائزه، وحاجاته العضوية، تنظيما سويا، حتى يتولد عنده السكن والهدوء وراحة البال، وحب الحياة، حتى تنسجم عقليته مع نفسيته.

وقد نسي هؤلاء الفلاسفة المشرعون أن للكون راعيا مـديرا حكيمـا هـو الله، وأنه سبحانه وتعالى قد تعهد برزق الجميع من نبات و حيوان وإنسان، بيده خـزائن الخيرات، يرسلها بقدر و يصرفها بحدود. وما يخلق من نسمة إلا وقـد كتـب رزقهـا حتى يتوفاها وقد وعد بهذا ووعده الحق، ومن أوفى من الله.

قال رسول الله ﷺ فيمن يتدخل في قدر الله في اللون والطول والقصر والأنثى والذكر. عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للـنبي ﷺ حسـبك مـن صـفية كـذا وكذا. قال بعض الرواة: تعني قصيرة، فقال: "لقد قلت كلمة لو مزجت بمـاء البحـر لمزجته!" رواه الترمذي و كلمة رسول الله ﷺ هـي مـن أكـبر الزواجـر والنهـي عـن التدخل في قدر الله.

و"مزجته" بمعنى خالطته فتغير طعمه ورائحته لشدة نتنها.

٣٩- اليتيم

المجتمع الإسلامي هو مجتمع متكامل منظم، الضعيف فيه قوي حتى يأخذ حقه كاملا غير منقوص، والقوي فيه ضعيف حتى يأخذ الحق منه. فإن كان السلطان للأمة، فالسيادة للشرع.

فشريحة الأيتام هي شريحة ضعف، وقلة إدارة، حتى ولو وجد المال الوفير، فاليتيم في حاجة للرعاية، وذلك لعدم اكتمال شخصيته، وعدم مقدرته في التصرف بماله، والمحافظة عليه وتنميته التنمية الصحيحة الموفقة.

فأنزل الله الآيات المفصلة والمنظمة لطريقة التعامل مع هذا اليتيم الضعيف، وبكل دقة ورحمة وعطف.

فقد بدأت الآيات المكية تبشع وتنتقد سلوك الجاهلية الظالمة نحو هذا الضعف، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧]. والخطاب لعرب الجاهلية.

وقوله سبحانه وتعالى: مخاطبا رسوله الكريم: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩] ويكون قهره لعدم استطاعته الدفاع عن نفسه، وضعف رد الفعل عنده؛ لموت سنده الطبيعي فيقف ذليلا حائراً أمام ذلك المعتدي الظالم.

وقوله – سبحانه وتعالى -: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤ - ١٥]. و"المسغبة" المجاعة و هذه الآية تثير في النفس كوا من الخير والشفقة، وخاصة من أجل الرحم والقرابة.

وقوله سبحانه وتعالى: أيضا: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

وفي هذه الآية نوع من الإيثار، يقوم به الإنسان من أجل إنسان آخر؛ فيقدم

طعامه لغيره رغم حاجته لهذا الطعام، وحبه له.

قال رسول الله ﷺ "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا" وأشار بالسبابة والوسطي وفرج بينهما " رواه البخاري.

فهذه الآيات الكريمة و الأحاديث الشريفة، تبين سلوك عرب الجاهلية، نحو هذا اليتيم الضعيف؛ فكانت السيطرة للقوي الظالم، والجبار المتعسف. فهذه الآيات تندد و تتوعد ذلك القوي الظالم، الجبار المتكبر؛ فتذكره بيوم الحساب، يوم تبلى السرائر، يوم العدل الحقيقي.

وعندما نزلت الآيات المدنية المفصلة للأحكام، فنظمت التعامل مع هذا اليتيم وماله له، فأوجبت احترامه ورحمته ورعايته والمحافظة على ماله ونفسه وتدريبه التدريب النافع له ولماله، ورفع معنوياته، وعدم قهره، والأنثى بشكل خاص من هؤلاء الأيتام؛ فقد أوصى بها خيرا، فهي تُعطى مهرها كاملا غير منقوص، وتعامل فيه كمثيلاتها من النساء، بدون إجحاف ولا ظلم ولا إذلال.

ثم ملاحظة هذا اليتيم لإرشاده إلى طريق الخير، وتدريبه المتواصل، وعدم حرمانه من التصرف في ماله إذا بلغ الرشد، وكان أهلا للمحافظة عليه. ثم التحذير من أكل ماله ظلما، لضعفه وعدم قدرته على الدفاع عن نفسه وماله حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠].

كما ذكرت الآيات وجوب احترام إنسانية هذا اليتيم المحتاج، والأمر بإعطائه من أموال الدولة إن وجدت، حيث قال سبحانه وتعالى في ذلك: ﴿لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١].

ووجوب رعايته ومساعدته الدائمة من قبل الدولة وأولي الأمر، حيث قال

سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ١٢٧].

قال رجل لأبي الدر داء رضي الله عنه: أوصيني بوصية، قال: إرحم اليتيم، وأدنه منك، وأطعمه من طعامك؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ أتاه رجل يشتكي قسوة قلبه، فقال رسول الله ﷺ: "إن أردت أن تلين قلبك فادن اليتيم منك، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك فإن ذلك يلين قلبه، وتقدر على حاجتك" رواه أحمد.

كما قال ﷺ: "والذي بعثني بالحق لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم ولان له في الكلام ورحم يتمه وضعفه، ولم يتطاول على جاره بفضل ما أتاه الله، والذي بعثني بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة لا ينظر الله إليه يوم القيامة" رواه الطبراني.

كما قال سبحانه وتعالى يصف جلافة وتكبر بعض الكفار واضطهادهم لليتيم: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾ [الماعون: ١ - ٢].

الناس من ذكر وأنثى، قويهم وضعيفهم، صحيحهم ومريضهم المالك والمملوك، كلهم خلقوا من طينة واحدة؛ فيجب التراحم بينهم والشفقة والتعاطف، واحترام القوي للضعيف، والحاكم للمحكوم، والغني للفقير.

كما يجب اختصاص اليتيم بالرعاية، قبل غيره بل وأكثر من غيره؛ وذلك لضعفه، ولخلو مكانه من الراعي الحقيقي وهو الأب والأم، لأنها الرعاية الطبيعية لذلك المكان فإذا خلا المكان من ذلك الراعي الشفوق الرحيم؛ فعلى المجتمع رعايته، واحترام شعور وإنسانية ذلك اليتيم؛ حتى يصبح لبنة جيدة قوية صالحة لبناء مجتمع المستقبل، وحتى لا يكون معول هدم و تدمير لما لاقاه لا سمح الله من عقوق واضطهاد وقهر.

وبعد أن ربط سبحانه وتعالى بين خلقه لهذا الإنسان من ذكر وأنثى، وبين له كيف يتقيه؛ وذلك بالسير حسب أوامره ونواهيه؛ بين العلاقة بين شريحة ضعيفة سائبة من الرعاية والمجتمع الإسلامي الذي يحوي القوي و الضعيف قال: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾"حوبا" إثما.

والآية هذه تشير إلى وقت تسلم هذا المال لليتيم، وذلك عندما تطمئن على حسن تصرفهم ولمحافظتهم عليه، وذلك بلوغ الرشد. ثم يطلب سبحانه وتعالى من ولي اليتيم الذي اختلط ماله مع مال ذلك اليتيم،ألا يعطي اليتيم ما خبث وفسد من هذا المال، لضعفه، ويأخذ الطيب من ذلك المال، لسطوته، فهذا هو الظلم بعينه.

ثم تذكر الآيات بحسن معاملة اليتيمة والعدل في معاملتها حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ [النساء: ٣].

كانت الجاهلية المتعسفة في معاملة اليتيمة تنقص تلك اليتيمة عن مثيلاتها من البنات في المهر؛ وذلك عندما يريد وليها أو أحد أفراد بيته الزواج من هذه اليتيمة؛ فأمر الله بالعدل فيها، أو التحول إلى غيرها، ثم يأتي نصيبها من غير أهل هذا البيت.

وقد شرع الله لكم الزواج من واحدة إلى أربع؛ و هذا هو كما يلاحظ سبب نزول هذه الآية الكريمة فمن خاف التقصير في حق اليتيمة فليتركها، والنساء كثر ﴿خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣] فمن خاف التقصير في العدل بين النسوة فليتمتع بواحدة؛ وهذا الكلام عام و لا يقتصر على اليتيمة التي هي سبب النزول.

﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾ هـن المملوكـات بالتسـري. ﴿أَلَّا تَعُولُواْ﴾ أي لا تكثـر عيالكم فتظلموا وتجوروا في القسمة والمعاملة.

وكما هو ملاحظ من النص أن هذه الآية تتعلق بمن تحدثه نفسه بـالزواج مـن اليتيمة التي له عليها ولاية فيجب إعطائها مهر المثـل، أو تركهـا تتـزوج بمـن تريـد. ووليها يختار غيرها من الحرائر و قد حددها الشرع بألا تزيد عـن أربـع نسـاء في آن واحد. أو من السراري المملوكات وبدون تحديد، و يربط موضوع الزواج بأكثر من واحدة بالعدل؛ فكلا الأمرين يحتاج إلى العدل والقدرة عليه.

ثم يذكر سبحانه وتعالى وعلـى وجـه العمـوم في كـل النسـاء: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ [النساء: ٤].

فالأمر يتعلق بالمهر، وحرية تملكه من قبل صاحبة الشأن، لأنه فريضـة مُسـماه واجبة لها، ثم بين طريقة تنازلها عن بعضها، وذلك أن يكون عن طيب نفس.

ودقة التعبير توحي بوجوب الحريـة الكاملـة، وعـدم الضـعف أو التهديـد أو الاحتيال، فان لم يكن هناك خديعة فهو هنيء مريء.

ومن سياق الآيات في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [النساء: ٥].

أقول هذه الآية التي تتعلق بالأيتام؛ فمن صفتهم الضعف عند إدارة أمـوالهم، فلابد من قيم على تلك الأموال وقد حددت الآية العلاقة بين هذا القيم و اليتـيم؛ فمن حق هذا اليتيم على ذلك القيم أن يأكل ويكتسي ويعامل معاملة حسـنة أثنـاء تدريبه على إدارة ماله الذي يأكل منه ويكتسـي دون إسـراف ولا مخيلـة ولا تقـتير وحرمان.

فيجب تليين الخطاب، وعدم إهانته، ووعده بتسلم هذا المال عند بلوغ الرشد،

وذلك لإشعاره بالثقة والاعتماد على النفس.

وإضافة المال لمجموع الأمة في كلمة " أموالكم " هي من روعة التعبير القرآني، وبعد دلالته فالأصل بالمال هو لمجموع الأمة؛ وما الفرد إلا عضو في هذه الأمة، فيجب على الدولة ممثلة الأمة المحافظة على هذا المال والعدل في تمليكه، ويجب عليها أن تحافظ وتصون أموال المسرفين و المبذرين والسفهاء من الضياع.

ثم يعلمنا الله: الطريقة الصحيحة المفيدة في معاملة اليتيم وتدريبه، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦].

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة، وبكل تفصيل وتوضيح، على أوامر ونواه توضح معاملة هذا اليتيم: من تدريبه بالتدريج على صون وتنمية ماله هذا حتى إذا ظهر منهم حسن الإدارة والتعامل الصحيح مع ذلك المال وحفظه؟

فيسلم ماله له بحضور شهود، وخوفا من ذلك اليتيم أو عليه.

ثم بينت هذه الآية تعامل ذلك الوكيل على مال اليتيم فأجازت له الأكل منه بدل إدارته، ولكن بالمعروف وبدون استغلال جهل وضعف هذا اليتيم ولكون الوكيل محتاجا.

كما بينت هذه الآية التحذير لذلك القيم الوكيل من استغلال وكالته تلك لنهب مال اليتيم قبل رشده وقبل تسلمه لماله؛ وذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ﴾ [النساء: ٦].

ثم التحذير من يوم الحساب فالله هو المحاسب الذي لأتخفى عليه خافية فهو المشاهد المراقب المطلع. وحسابه أدق من محاسبة هذا اليتيم يوم استلامه لماله من وكيله.

ثم يأتي خاتمة المطاف، وما فيها من التهديد والوعيد؛ وذلك لتذكير هذا القيم الوكيل بالموت واليتيم فليعامل هؤلاء الأيتام الضعفاء كما يعامل أبناءه وذريته، وكما يتمنى أن يعامل أبناءه من بعده قال سبحانه وتعالى في هذا الأمر: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

فيأمر القيم بالتقوى حتى يحفظ ذريته من الضياع؛ والله خير حافظ ومعين، ويتجدد التهديد والوعيد من الله سند ذلك الضعيف الذي أبتلى بفقد ذلك الصدر الحنون، والقلب الشفوق؛ فأصبح يتيما تتقاذفه أمواج المجتمع العاتية الضعيف منها والقوي، كما تنهب أمواله تلك الأفواه الجشعة، فما أن يكبر حتى يجد أمامه سراب صحراء واسعة، وغيره ينعم ويتلذذ بذلك المال والثراء.

فيحذر رب العزة من ظلم هذا اليتيم، ويبين لنا وبكل وضوح استنارة أن مصير مال هذا اليتيم سيكون نارا في بطون آكليه. ومصيرهم يوم القيامة إلى النار. قال سبحانه وتعالى في هذا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

عن أبي سعيد الخدري قال: حدثنا النبي ﷺ عن ليلة أُسريّ به قال: (نظرت فاذا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل في أفواههم صخرا من نار فيقذف في أحدهم حتى يخرج من أسا فلهم ولهم جؤار وصراخ وقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال هؤلاء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ

ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴾ رواه ابـن جريـر وابن أبي حاتم.

كما روى عن أبي برزة، عن رسول الله ﷺ، قال: [يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج أفواههم نارا فقيل: يا رسول الله من هم؟ قال: ألم ترى أن الله أن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا]رواه الطبراني.

هذا هو حق الضعيف اليتيم على المجتمع المسلم، لا يسلمه ولا يخذله، بل يحميه وماله من جبابرة ولصوص الأرض، أما يوم القيامة فللمعتدي السعير، نار وقودها الناس والحجارة.

هذه الآيات وما حوته من صلاح وفلاح لذلك اليتيم جعلته لبنة صالحة في بناء مجتمع صالح ما خانه أخوته المسلمون، ولا ظلموه، ولا تخلوا عنه في حالة ضعفه وحاجته بل سندوه فأحبهم، وأحب مجتمعهم، فكان السيف الذي يحميهم والعين التي تحرسهم.

فلم يصبح معول هدم، ولا عنصر تخريب ولا بركان حقد عليهم.

فقد حصنت هذه الآيات وتطبيقها من قبل المجتمع المسلم عش ذلك اليتيم الضعيف؛ فغدا قويا مكرما محصونا من شر الأشرار ومن اعتداء السفهاء والفجار.

٤٠- الله يكشف الضر

من طبيعة الإنسان اللجوء للقوي في ساعة الضعف، ويستنجد طالبا المساعدة، لينجو مما هو فيه. ويظهر ذلك واضح الخوض في لجج البحار الهائجة أو في غمار المعارك الحامية، أو في ساعات الضيق الشديدة، كالمرض الشديد أو الحاجة الملحة فيقول: أن أنجانا الله من هذه لنكونن من الشاكرين ولكن عندما تنقشع غيوم الغم والكرب وعواصف الضعف، وتظهر شمس الاستغناء عن معين نسير وراء سراب الدنيا الفاني، فنلهو ونلعب، وتغرينا رياح الأمل، وبريق الذهب، وخضرة الجنائن، وزرقة المياه، وليونة الفراش، وجمال الحسان.

ولا نتذكر الرب القادر، مزيل الكرب، وكاشف الضر، إلا عندما نواجه ضعف أنفسنا؛ وذلك في البأساء والضراء، وحين البأس، فنلجأ إليه سبحانه وتعالى في وقت الضيق في كشف الضر ورفع البلاء. فهذه الآيات المباركة التي تذكر الإنسان بنعم الله ورحمته، ووجوب شكره سواء فيها ما نزل بمكة أو بالمدينة، تصف وبكل دقة حالات نفس الإنسان وكيف ويبطر ويتكبر ويتجبر، يوم هو يرفل في حلل السعادة والصحة والخير العميم، وكيف به يلجأ إلى الله متذللاً متعاطفا مستنجدا بالله كاشف الضر ومزيل الغمة والكرب.

وفي هذه الآيات الكريمة من التقريع والتوبيخ والتذكير ما فيها. قال سبحانه وتعالى يصف موقف هؤلاء المسرفين الضالين: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢].

ففي هذه الآية المباركة الوصف الدقيق لكلتا الحالتين: وصفه وهو يستجير ويستنجد بالله في حالة ضعفه وشدته، وعندما صرف عنه البلاء أعرض، وأسرف

في الكفر والعناد، وعمل المعاصي وارتكب الآثام، ونسي أو تناسى ما قال به بعضهم: أكثِر من شكر الله في السراء يدفع عنك الضراء. وقال سبحانه وتعالى مهددا ومتوعدا مكر الكفار وعدم شكرهم: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

قيل في سبب نزول هذه الآية أن أبا سفيان بن حرب زعيم مكة قال للرسول محمد ﷺ وذلك حين كان كافرا قحطنا بدعائك فإن سقيتنا صدقناك فسقوا باستقائه، ﷺ، فلم يؤمنوا: وهذا هو مكرهم الذي ذكرته هذه الآية. والرسل هنا هم الحفظة الذين يكتبون أعمال العباد ومكر الله هو هلاك الملأ من قريش في معركة بدر المشهورة وما سلطه الله عليهم من الأمراض و الجزاء من جنس العمل؛ فقد فاجاءوا المنعم بالتمرد والكفر والكيد ففاجأهم بأن عجل لهم المعقوبة.

واليك مثلا أخر ضربه الله سبحانه وتعالى على كفران النعمة، وعدم شكر المنجي المنعم سبحانه وتعالى حيث يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

فمن نعم الله على العباد أن سخر لهم ما يركبونه في البر، وعلمهم صنع الفلك لركوبها في البحر. ثم يصف حال البحر المريحة، وسرورهم العظيم لهدوء هذا البحر وموجه، ولكن ثبات الحال من المحال. فقد هبت العواصف العاتية فاضطرب الموج، وأحيط بسفينتهم وخيم الرعب عليهم فلجأوا لمن يكشف الضر، الرب الحقيقي وأداروا ظهرهم لغيره من المعبودات كالأصنام والطواغيت؛ فالأمر

جد والموت وفاغراً فاه وقد أحيط بهم وهذا اللجوء للرب الحقيقي قد يكون بالفطرة، أو من بقية الديانات السابقة أو التجارب التي اكتسبوها من شدائد البر والبحر، المهم أنهم استيقنوا بضعف معبودا تهم بل أيقنوا فسادها وفساد الارتباط بها في ساعة الشدة فأخلصوا الدعاء لله وتعهدوا بشكره وإخلاص العبادة له سبحانه وتعالى: ولكن للأسف وبعد أن ساعدهم مفرج الكرب وخرجوا من خطر هذا البحر الهائج غانمين مسرورين، فاذا هم قد نسوا ما عاهدوا الله عليه وساروا في طريق الفساد والشرك واللهو واللعب، وقال سبحانه وتعالى منذرا ومحذرا أمة الإسلام من هذا الانتكاس ومخالفة العهد وعدم الشكر: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [يونس: ٢٣].

والبغي والفساد وليس في الفساد حق ولكنه أعلى وأعظم أنواع الفساد لعدم وجود شبهة خير عندهم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاث رواجع على أهلها: المكر والنكث، والبغي ثم تلا رسول الله ﷺ: ياأيها الناس أنما بغيكم على أنفسكم ولا يحيق المكبر السيء إلا بأهله ومن نكث فإنما ينكث على نفسه) رواه بن مردويه والديلمي.

﴿ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٣ - ٦٤].

يصف حالهم وهم يتخبطون في ظلمات البر والبحر ويرفعون أصواتهم يلهجون في الدعاء الخالص من الشرك للواحد الأحد الفرد الصمد يدعون بقلوبهم وجوارحهم ويتعهدون أن يشكروا الله الذي نجاهم ثم يكشف سرائرهم حيث أنهم قد انتكسوا وعادوا إلى شركهم وضلالهم، وأهملوا ما عاهدوا الله عليه من

إخلاص العبادة الله الذي لجؤوا إليه في ساعة الشدة وكلمة (ظلمات) قد يكون ظلمات الشدائد أو ظلمة الغيوم المتراكمة مع موج البحر المتراطم في ظلمة الليل الحالك السواد يجتمع كلها، فيطرب الأمر على ربان السفينة فلا يهتدي سبيلا وهذا موقف آخر، تصفه وتحذر منه الآيات البينات في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٥٣ - ٥٤].

فهو سبحانه وتعالى يذكر نعمه وفضله وكرمه عليهم ثم يذكركم وأصواتكم كأصوات البقر تدعونه وتتذللون إليه، وتستنجدون به لأنه الوحيد القادر على نجدتكم وكشف الضر عنكم وعند نجاتكم سالمين من ذلك المأزق والكرب، تنسون الشكر، وينتكس بعضكم يكفر بنعمة الله، ويشرك به ويسير وراء سراب النفس الأمارة بالسوء يسوقه الشيطان لعمل الشر والضلال.

وهذا وعيد وتهديد لمن لا يصحوا من غفلته تلك إلاّ في ساعة شدة ومسيس حاجة، فيعترف بكفره وظلمه فيدعو على نفسه بالويل والثبور، ولات ساعة مندم قال سبحانه وتعالى ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٦].

ولكن هذا الاعتراف وبعد فوات الأوان؛ هل ينفعهم أم أنها النفس اللوامة في ساعة لا يؤذن لهم فيها بالاعتذار، حيث قد كشف الله سرائرهم وأنذرهم وحذرهم، بهذه الآيات البينات التي تكشف عن أنفسهم المريضة وتناقض سلوكهم وتغير أحوالهم ففي الشدة والحاجة الملحة ترفع الأيدي و الأصوات المستجيرة طالبة الرحمة بكل خشوع وتذلل وعند الفرج تتحول النفوس والسلوك وكأن لسان حالهم يقول: تذللنا حتى نلنا المراد، فلا حاجة للشكر، فيظهر التكبر، وتغطي

عواصف الرعونة والتبجح، وأعاصير اللعب واللهو خضرة ونعومة دعاء الشكر؛ بهذا وعظنا علام الغيوب وذكرنا لتجنب هذا السلوك الشائن؟.

فلنتعرف على ربنا في الرفاه ليكون عونا لنا في الشدة والضعف ويستجيب دعاءنا حيث قال الله سبحانه: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠].

قال رسول الله ﷺ (الدعاء مخ العبادة) وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥].

مراجع

١. القرآن الكريم.

٢. الجامع لأحكام القرآن. للقرطبي.

٣. تفسير القرآن العظيم. لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.المتوفي سنة ٧٧٤ هـ_ دار إحياء الكتب العربية.

٤. تفسير البيضاوي_أنوار التنزيل وأسرار التأويل_ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي_دار الجيل سنة ١٣٢٩ هـ.

٥. ثلاثون مؤمنة وصحابية كن مشاعل للنور _ للمؤلف الدار البيارق.

٦. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني _لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي _الطبعة الرابعة – ١٤٠٥ هـ إدارة الطباعة المنيرة إدارة إحياء التراث العربي بيروت لبنان.

٧. صفوة التفاسير محمد علي الصابوني دار القرآن الكريم بيروت الطبعة الأولى١٤٠١ هـ.

٨. فتح القدير محمد بن علي الشوكانى المتوفي سنة ١٢٥٠ هـ دار الفكر.

٩. في ظلال القرآن للسيد قطب دار الشروق الطبعة العاشر و ١٤٠٢ هـ.

١٠. محاسن التأويل تفسير القاسمي محمد جمال الدين القاسمي دار الفكر بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ.

١١. مختصر تفسير الطبري اختصار وتحقيق الشيخ محمد على الصابوني د. صالح احمد رضا عالم الكتب الطبع الأولى ١٤٠٥ هـ.

١٢. مختصر تفسير ابن كثير محمد على الصـابوني دار القلـم بـيروت لبنـان مكتبـة جدة الطبعة الخامسة.

١٣. مختصر تفسير القرطبي لأبي عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي اختصار ودراسة وتعليق الشيخ محمد كريم راجح الناشر دار الكتاب العربـي بـيروت الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ .

١٤. الصحاح الست وبعض كتب الحديث الأخرى الموثقة.

الفهرس